تقي البحارنة

عنفوان الكتابة

خالد البسام

إصدار: وزارة الإعلام

رواد الصحافة البحرينية

تقي البحارنة..

خالد البسام

2007

عنوان الكتاب: تقي البحارنة.. عنفوان الكتابة
أسم المؤلف: خالد البسام
الناشر: وزارة الإعلام
الطبعة الأولى: 2007
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د.ع 2007/6250م
رقم الناشر الدولي: 2-92-90-99901-978 (ISBN)
إخراج وتنفيذ: راشد عامر

Titel: Taqi AL - Bahranah .. The Heyday Writing
Author: Khalid AL - Bassam
Publisher: Ministry of Information
First Edition 2007
L. D: 6250 / 2007
ISBN 978-99901-90-92-2

وزارة الإعلام
مملكة البحرين ، إدارة المبطعة الحكومية ، ص.ب: 26005
هاتف: (+973) 17682926 - فاكس: (+973) 17689066

Ministry of Information
Kingdom of Bahrain, Direrctorate of Government Printing Press
P.O. Box 26005 Tel: (+973) 17682926 - Fax: (+973) 17689066

البريد الإلكتروني: e-mail: gppartwork@info.gov.bh

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي شكل من الأشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

All rights Reserved
No part of this book may by reproduced or transmitted in any form
or by any means without prior permission in writing of the publisher

رواد الصحافة البحرينية

تقي البحارنة..

عنوان الكتابة

Kingdom of Bahrain
Ministry of Information
Government Printing Press

مملكة البحرين
وزارة الإعلام
المطبعة الحكومية

الحبر الباقي

اختار «تقي البحارنة» لنفسه تنوعاً هائلاً في حياته، بالكاد يستطع أحد إحصاءه في روزمانة عمره المملوءة بالحيوية والعمل.

فبعد ختم مبكر للقرآن الكريم وتحصيل ممتاز في المدارس الابتدائية والإعدادية في البحرين، اختار أباه مدينة «بغداد» بالعراق لتكملة الدراسة الثانوية.

عاد الشاب بعد سنوات وقد اكتسب ثقافة متميزة واطلاعاً حسده عليه الكثيرون أيامها. واستثمر «تقي» كل ذلك في المواهب القادمة التي راح يفتشها داخل نفسه ويعبر عنها في الكتابة والشعر والبحث والتجارة والعمل الوطني، ثم الأعمال الدبلوماسية والسياسية والتطوعية.

كما أدرك الشاب الصغير «مواليد المنامة ١٩٣٠» أن العمل في التجارة مع إخوانه ليس مصدر رزق جيد فقط له، بل سيكون مصدر

6 الحبر الباقي

اطلاع ومعرفة واحتكاك بالناس، ووقتاً للقراءة والمشاركات في الأنشطة المختلفة.

وهكذا وجد نفسه ينشط أولاً في العمل التطوعي حيث اختار نادياً من أعرق أندية البحرين الثقافية، وهو «نادي العروبة» مكاناً له، فراح يشارك في ندواته ويلقي بعض المحاضرات هنا وهناك، وزاد من فعالياته إلى درجة قيادة هذا النادي في فترات مختلفة من عمره.

ومع النادي برز عنده «شيطان» الشعر مبكراً فنظم الكثير من الأشعار، وحفظ بعضها في ديوانيه المطبوعين «بنات الشعر» و«في خاطري يبكي الحنين».

ولم يكتف «تقي» بذلك فقط، بل ساهم بفاعلية في العمل السياسي الوطني، فاختار أن يقف مع الحركة الوطنية بقيادة «هيئة الاتحاد الوطني»، وكان من ضمن لجنة الأعضاء الثمانية الاستشارية للهيئة بعد الاعتراف رسمياً بها من قبل حكومة البحرين في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي.

وكان له دور هام أيضاً في تكوين اتحاد العمل والعمال في البحرين عام ١٩٥٥، وأسندت إليه الأمانة العامة للاتحاد، وقام بتمثيله في القضايا والمنازعات العمالية.

وتواصل عمله بتعيينه أول سفير للبحرين بعد استقلالها وذلك في جمهورية مصر العربية عام ١٩٧١. كما شارك في عضوية مجلس الشورى لثلاث فترات، علاوة على أعمال رسمية أخرى، كما استحق الكثير من التكريم الرسمي والشعبي.

وقبل تلك الأعمال برز «تقي البحارنة» ليس لكونه شاعراً وأديباً متميزاً بل كاتباً مرموقاً أيضاً، وفي إحدى أهم مجلات البحرين والخليج آنذاك، وهي مجلة «صوت البحرين» «١٩٥٠ - ١٩٥٤»، فلم تثنه كل تلك الأعباء والأنشطة والأعمال التي كان يمارسها بحماس وحيوية، عن الشيطان الآخر.. هو الكتابة.

كانت كتاباته في «صوت البحرين» تتميز بتنوع مادتها وفي تعدد موضوعاتها وأفكارها المستمر في كل عدد.

فكان يكتب في القومية العربية ويستعرض كتاباً عن الفتوة، ويكتب في أدب الرحلات في ثلاثة مقالات عن رحلته إلى لبنان، ولا ينسى الشعر الذي يكتب فيه بحثاً على حلقات، ومقالاً عن «ابن مقرب.. الشاعر المجهول»، ويستعرض موضوعات فكرية هامة حول «الحضارة التي تريدها».

وبجانب تنُّوع موضوعاته كان يتنوع في الأسلوب بين المقال الأدبي

والسياسي والفكري، ويُظهِر ثراء معلوماته وثقافته ولكن بدون تصَنُّع كما كان يفعل غيره.

ويقول الشاعر إبراهيم العريض عن أسلوب «تقي» في الكتابة:

«إن كل حادث عند تقي، بالإضافة إلى كونه عامراً بالوصف، يتجاوز قيمته المحلية عندما تهتم ريشته بإخراجه الخاص، فيصبح وكأنه صفحة ناطقة في سفر «الحياة البشرية» بحيث أنك - يا من يقرأ - خلال تحَرِّيك تلمس «الماهية» في صورة رسمها توًّا بقلمه، تظل تعايشها على طول الخط، منبهراً بـ «كيفية» إخراجها في إطارها.

إن تقي يذكرني بأيام دراسته في الثانوية، فأجد نفسي من زاويتي أعيش معه هناك مجدداً، وبعد ذلك يذكرني بالندوات الأولى التي حضرتها في نادي العروبة، فأرى وكأني أعود بحسي كذلك لتلك اللحظات المتوهجة من جديد بين المحتفلين.

لَكَأن هذه الصفحات فاتحة لتلك الحياة الحافلة المعبّرة التي عشناها مرة، ولكن بسحر ساحر عاد هذا الفنان بريشته يخلقها وإذا بنا اليوم جميعاً نظلّ نعيشها معه.. كما عشناها.. مذهولين».

ونشر «البحارنة» حبره على صفحات مجلة «صوت البحرين» وشارك في الكتابة فيها منذ أعدادها الأولى وحتى توقفها عام ١٩٥٤.

في تلك المجلة الثقافية الشهيرة وجد «البحارنة» نفسه كاتباً لا يميل كثيراً إلى التخصص في الكتابة عن القضايا القومية فقط، كما كان يفعل الكثير من الكتاب في تلك الفترة الملتهبة.

ولعل هذا التنوع أضاف تميزاً هاماً لـ «البحارنة» في كتاباته، وأعطاها روحاً أخرى.

ففي مقال «الإسلام قول وعمل» يكتب منبهاً إلى أن المأساة في العالم العربي والإسلامي هي مشكلة المسلمين لا مشكلة الإسلام. (١)

وفي دراسة له بعنوان «مقدمة في الشعر العربي»، يؤكد أن موقف دعاة التجديد المعاصرين من الشعر القديم ينطوي على كثير من التعسف والبعد عن النزاهة العلمية. (٢)

وفي أول مقال نادر يُكتَب في البحرين ويمكن إدراجه في ما يسمى بأدب الرحلات، يكتب «تقي البحارنة» ثلاث مقالات عن رحلته إلى لبنان عام، ١٩٥٤ بعنوان «ثلاثة شهور في لبنان» يستعرض فيها كل نواحي الحياة في لبنان من السياسة والطوائف وتحرر المرأة والطعام والمناخ وغير ذلك. (٣)

---

(١) صوت البحرين، عدد يوليو ١٩٥٣.
(٢) صوت البحرين، عدد يونيو يوليو ١٩٥٠.
(٣) صوت البحرين، عدد يناير ١٩٥٤.

ومن رحلة لبنان إلى الكتابة عن الأفكار التي يؤمن بها ويدافع عنها، حيث يكتب مقالاً عن «القومية العربية.. في مهب الرياح»، يتحدث فيه عن مشكلات العروبة وينتقد زعاماتها بصراحة. (٤)

وبعد تنوعه وثرائه الكتابي في مجلة «صوت البحرين» استرخى «شيطان الكتابة» عنده لفترة طويلة، بسبب أعباء الأنشطة الأخرى وربما «الشياطين الآخرين» غيره، ثم راح يكتب مقالات متنوعة في مجلة «صدى الأسبوع» ثم في مجلة «بانوراما الخليج» كانت تتوزع بين الأدب والتاريخ والذكريات.

خالد البسام

(٤) صوت البحرين، عدد فبراير ١٩٥١.

مقدمة .. في الشعر العربي «١»

صفات الأدب الخالد وعناصر الإعجاز فيه، من المواضيع التي كثر حولها الخلاف وتعددت في تحديدها قواعد اللغة، وأبواب البلاغة، فلم يزدها ذلك إلا بُعداً عن الجلاء وإيغالاً في التعقيد والغموض. ذلك لأن عماد الفهم الصحيح لقيمة أي إنتاج أدبي إنما هو الذوق الفني الخالص، وموضوع كهذا أساسه الذوق، لايخلو بحثه من صعوبة، طالما كان نقاد الأدب يصدرون بطبيعتهم عن أذواق مختلفة، وتستوحي كل جماعة منهم أثر البيئة في اتجاهاتها، وتيارات الوسط الأدبي في مفهوماتها.

على أن من الآثار الأدبية ما يستعلي بطبيعته عن المستوى الذي تجد فيه الأذواق المتنافرة في عصورها المتغايرة، ما يدفعها على الاختلاف في تحديد قيمته من وجهة عامة، وإنْ كانت قد لاتتفق اتفاقاً تاماً في بعض نواحيه، وجزئياته الصغيرة. وهذه طبيعة لاتتوفر إلا في النتاج الأدبي الخالد الذي يتمتع بكافة عناصر الخلود، تلك العناصر التي تخلق من القِدم جِدَّة، ومن الماضي حاضراً يفيض بالإبداع، ومستقبلاً يشرق بالحسن والجمال.

ولقد قُدِّر للشعر العربي القديم أن تكون له صفة الخلود هذه ما يجعله ضمن

تقي البحارنة

12

صوت البحرين

حقائق الكون الثابتة التي تدور مع الزمن في ماضيه، ثم تطالعه في مستقبله وهي على أشد ما تكون رسوخاً، وأقوى ما تكون ثبوتاً واستقراراً. فبالرغم من الأزمان المتعاقبة التي تقلب بها الشعر العربي القديم فإنه لايزال إلى عصرنا يتلألأ بجوهره النقي، كله جدة، وكله قوة، وكله بلاغة وإعجاز. ولعل أول ما تطالعنا من سمات ذلك النتاج الخالد هي صفة «الأصالة» بجميع خصائصها ومعانيها. وتلك هي أولى القيم الروحية التي تربط حقائق الشعر العربي بحقائق العرب القومية، لأن هذا الأدب الأصيل هو وحده الذي يستطيع أن يكشف عن خصائص النفس العربية، ويشفَّ عن مدى قابلية تلك الخصائص للخَلْق والإبداع.

فإذا تجاوزنا بنظرنا حدود القيم الأدبية والقومية، فإننا نجد للشعر العربي القديم علاوة على كل ذلك ميزة أخرى، لها صفة علمية تتصل اتصالاً وثيقاً بأدب وعلوم الإسلام. ولكي ندرك هذه الحقيقة ليس علينا إلا أن نرجع بذاكرتنا إلى الوراء عدة قرون ماضية، حيث نقف على أبواب النهضة العلمية الإسلامية عند بداية القرن الثاني للهجرة، حين صار تدوين كلام العرب - وفي مقدمته الشعر - أولى الخطوات في سبيل تدعيم حركة الازدهار العملية وتركيز جهود التدوين الأدبي. فقد كان فضل الشعر العربي كبيراً على هذه الحركة العلمية، إذ كانت حاجة ذلك العصر إلى تصنيف كتب التفسير، وتدوين الحديث، ووضع النحو، ودراسة السيرة متعلقة به. كما أن الفقهاء كانوا يجعلون المهارة في الشريعة والفقة والفتيا مفتقرة إلى الكتاب والسنة وأقسام العربية. وقد رووا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان يطلب اللغة والأدب والشعر عشرين سنة، لايريد بذلك إلا الاستعانة به على الفقه.

على أن عناية علماء التفسير والحديث برواية الشعر العربي، واستظهار معانيه، لم تكن بالشيء الجديد آنذاك، فهي تمتد إلى عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين، وإنْ كانت تلك العناية لم تصل في هذا العصر إلى درجة النشاط العلمي المنظم الذي امتاز به عصر التدوين فيما بعد. فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحب رواية الشعر، ويرى أنه وسيلة لتفسير غريب القرآن، ولكن هذا الاتجاه العلمي كان أكثر وضوحاً في زمن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فهو الذي حسَّن ذلك للمفسرين، وقال إن الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه. أما رواية الشعر العربي لذاته وحفظه مجرداً من غاية المفسرين، فقد كان حتى قبيل عصر التدوين، طبيعة في العرب، وهم أكثر الأمم حباً لكلامهم وإعجاباً به، ذلك الحب الذي يستمد قوته من انجذاب العربي بفطراته إلى عناصر هذا الكلام نفسه، بروعة ما فيه من الصدق والبيان، والبلاغة والإيجاز. وإنما كانت تلك الصفة العلمية مما زاد قيمة الشعر العربي، ومما أضاف إلى ذلك الميل الفطري، جهوداً أخرى علمية ترمي إلى تنقيحه ودراسته.

إلا أن حركة علمية أخرى لها صفة مغايرة، وهي حركة الترجمة والنقل عن الثقافات الأجنبية،، كانت قد نشأت بجانب هذه العلوم العربية، وكان أول من تزَعَّم الترويج لها نفر من الموالي وأهل الذمة.

هذه العلوم الأخيرة، بما صحِبَها من آثار المنطق اليوناني الدخيل والبحث الفلسفي العقيم كانت على النقيض من الأولى، ذات أثر سيء على اللغة العربية وآدابها، ذلك لأن أكثر أولئك الذين خاضوا في علوم العربية بعدئذ، كانوا من

14 صوت البحرين

الأعاجم والفلاسفة الذين لم يصعدوا إلى عصور العربية الأولى، ولم يُرزَقوا الذوق العربي السليم، وفي هذا ما يفسر لنا كُتْهَ كثير من قواعد اللغة، وعلوم البلاغة التي أُخِذ معظمها عن أصول أدبية لايسكن إليها الذوق العربي ولاينسجم معها. ونظرة واحدة على تلك الأصول تدلنا على عناصر المنطق اليوناني والتفكير الفلسفي المعقد الذي بنيت عليه. بل لعلنا لانبالغ إذا قلنا أن كثيراً من كتب البلاغة والنقد التي بدئ بتأليفها منذ هذا العصر حتى العهد المتأخر من الدول الإسلامية، قد نُقِل معظمها عن اليونان، وصدرت قواعدها عن عقلية أجنبية محضة لاتمُتُّ بسبب إلى العقلية العربية الأولى، ولاتركن إلى أصولها المعروفة، وإنما تستمد كل شيء من الخارج، وتجتلب له الشواهد اجتلاباً عنيفاً من الأدب العربي. ولايزال التاريخ يحمل لنا صورة من ذلك النزاع الشديد الذي نشأ بين أنصار العلوم العربية، وبين دعاة الترجمة وعلوم اليونان. وكان مما يعيبه أولئك على هؤلاء انحرافهم عن النظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، وأنهم يعتاضون عن ذلك بعلم «هو قُبْحٌ لهم في الألفاظ، وقيدٌ لهم في الألسنة، وعِيٌّ لهم في المحافل» على حد تعبير ابن قتيبة.

على ضوء هذا التطور الذي شهدة مطلع القرن الثانيو يجب علينا قبل أن نتجاوز هذا العصر أن نرسم خطاً فاصلاً بينه وبين العصر الذي سبقه متجاوزين بذلك حدود التقسيم الزمني في تاريخ الأدب العربي القديم الذي وضع أسُسَه المستشرقون، ذلك التقسيم الذي يستند أكثر ما يستند إلى الحوادث السياسة دون النظر إلى الاعتبارات الأدبية والاجتماعية الأخرى.

«ففي الأدب العربي عهدان طويلان يشطرانه شطرين: عهد القدماء، وعهد

المحْدَثين. ويبتدئ عهد القدماء بنضوج الشعر العربي قبل الإسلام بقرن أو نحوه، وينتهي في أوائل القرن الثاني، فهو يشمل الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي. أما عصر المحدثين فبدؤه قبيل قيام الدولة العباسية.. بدؤه في الواقع من عهد بشار، ومروان ابن أبي حفصة، ومطيع بن إياس وغيرهم من مخضرمي الدولتين. ويشمل كل من جاء بعدهم من الشعراء الذين كتبوا باللسان العربي إلى اليوم. فمهما اختلفت مذاهب الجاهليين والإسلاميين، ومهما تنوعوا في الصياغة والطريقة وفنون القول، فإنهم جميعاً ينهَلون من ينبوع واحد، ويَصدُرون عن ذهنية واحدة، ويتقاربون تقارباً ملحاً في التفكير والتعبير. يختلف زُهير عن طرفة، وذو الرمة عن جرير، وعمر بن أبي ربيعة عن العرجي، ولكنه اختلاف الجداول انحدرت عن جبل واحد وأخذت ماءها من سحب واحدة، اختلاف في التطبيق، واختلاف في التأتي للأمور، فأما الأصول التي تحتذي، فأما المناحي العامة فواحدة لا اختلاف فيها، وليس بعجيب أن يظل الشعر الإسلامي في جملته جاهلي الروح، فالدولة عربية محضة، والثقافة عربية صقلها الإسلام، والشعراء عرب إلا ثلاثة أو أربعة، والصحراء مقام الاكثرية فيهم، والطبع هو الغالب على شعرهم».

تلك حال الشعر العربي حين ورثه الأقدمون في أوائل القرن الثاني، ورثوه صحيحاً، قوي العبارة واضِحَها، جزل التراكيب متماسِكَها، لاتزال فيه روح البداوة القديمة في المنهج والصياغة والخيال والمعنى. إلا أن الحياة في القرن الثاني «حين مجيء دولة بني العباس» كانت تبتعد كثيراً عنها في العصر الجاهلي، إذ تبدلت تبدلاً حقيقياً، واستحالت الحياة العربية السامية إلى حياة معقدة ملتوية تجمع بين السامي والآري، وتأخذ من هذا ومن ذاك: لقد ظهرت

16 صوت البحرين

للوجود طبقة الشعراء المحدثين تناهض الشعر القديم سلطته، محاوِلة الحد من تيار الإعجاب الذي كان يمتلك الوسط الأدبي آنذاك لروعة الشعر العربي.

لقد حاول هؤلاء المحدثون أن يحدثوا تجديداً في الشعر القريم ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل نظراً لسقم تلك الجهود، وبُعد أصحابها عن السليقة العربية، والذوق العربي السليم. وهذا هو السبب الذي تجرد من أجله نتاج المحدثين من عناصر القوة والحيوية التي امتاز بها شعر العرب. ولا غرابة في ذلك فإن معظم الذين تزعموا هذه الحركة كانوا من غير العرب، سواء كان اتجاههم هذا مسايرة لأوضاع الحياة الجديدة والتي تغيرت تغيراً أساسياً عن الحياة العربية الأولى، أو أنه همجرد استجابة لدوافع النزعة الشعوبية، فإنه مما لابد منه الاعتراف بأن ضعف السليقة، وفساد اللغة، وتحلل الأخلاق، كل هذه الصفات كانت من أهم عوارض الانحلال التي لازمت شعر المحدثين هؤلاء.

«ونستطيع أن نرى عند بشار، ووالبة، وأبي نواس، والحسين بن الضحاك، نماذج من ضعف الشعر، ونماذج من ضعف الأخلاق. فهذه الروح السامية الحارة القوية الصفية التي كانت من عهد قريب عند جرير وجميل، هذه الروح فسدت في أول امتزاجها بالروح الفارسية، فالمديح غدا فاتراً، والهجاء أصبح مرذولاً، والنسيب الأموي الطاهر خبث ومُجّن».

لقد كانت روعة الشعر العربي القديم تتجلى في صدقه وإيجازه. فمن الصدق اكتسب شعر العرب صفة التأثير في النفس العربية، ولقد قيل: «ما خرج من القلب وقع في القلب». كما أن الشعر العربي بما يشع في أطرافه من التصوير الصادق كان يأخذ سبيله الطبيعية في التعبير، فيبتعد بذلك عن التعقيد

والتكلف، وعن سائر الصفات التي يتعثر فيها المنطق، وتتبلد عندها القريحة حين تُحْمَل حملاً على المعالجة والمعاناة في إبراز معنى متكلف، أو تقريب خيال بعيد. فالبلاغة الصادقة هي كما وصفها صَحار بن عياش العبدي لمعاوية حين سأله: «ما هذه البلاغة التي فيكم؟» فقال:«شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على أفواهنا». ومن الإيجاز توفرت للشعر العربي صفة النفاذ إلى الغاية، وبلوغ صميم المعنى المقصود، والاكتفاء في ذلك بالإشارة الواضحة واللمحة الدالة. ومتى توفرت للكلام هاتان الصفتان، فكان صادقاً، واتخذ الإيجاز سبيله في الأداء، فإنه يكون عندئذ قد وصل إلى ذروة الإعجاز البلاغي.

والغريب في الأمر أن تكون هذه الصفات، و ما يقاربها، من الأصول التي لم يجد علم البلاغة الذي وضعه المتأخرون، بدأ من تقريرها، ثم لايكون لذلك إلا أثره الضئيل في النتاج الأدبي المتأخر الذي طغت عليه موجة الصَّنعة، وأتت على جماله قواعد المحسِّنات اللفظية والبديع. فهذا الجاحظ يقرر كثيراً من تلك الأصول التي أجملناها في كلام له عن بلاغة العرب في كتابه «البيان والتبيين» فيقول:

«وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لايقيده على نفسه، ولايدرسه أحد من ولده. وكانوا أميين لايكتبون، ومطبوعين لايتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم

عليه أقدر وأمهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أرجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ أو يحتاجوا إلى تدارس. وليس هم كمن حفِظ علم غيره، واحتذى على كلام مَن كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلُّف ولا قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب».

ذلك هو رأى الجاحظ في بلاغة الكلام العربي، وموجز الصفات التي قصدها هي أولاً: البديهة والارتجال، وثانياً: الطبع وعدم التكلف. وهي صفات في الكلام لاتتعدى حدود الصدق والإيجاز التي أشرنا إليها من قبل.

على أن هذا المفهوم الأدبي الذي يبسطه الجاحظ في كلامه، لم يكن ليجد له السبيل العملية لتسَلُّم زمام التوجيه، سواء في عصر الجاحظ نفسه، أو فيما تلى ذلك من العصور. فلقد كان تبَلُّد الذوق بفعل المفاهيم الأدبية المتأخرة الخاطئة مما حال دون ترسُّم تلك للعصور خطى البلاغة الصحيحة. ولعل نظرية «أبلغ الشعر أكذبه» هي خير ما تمخضت عنه عبقرية المتأخرين في تحديد قيم النصوص الأدبية، تلك النظرية التي رضي هؤلاء الوقوف عندها، قانعين بما يستحلبونه من عصيرها القاتل، والتي تكشف لنا بوضوح مدى الانتكاس الذي منيت به العقلية المتأخرة. وهكذا قُدِّر للشرق العربي أن يظل أجيالاً طويلة يقتات من سموم هذه النظريات التي وجدت في ظل حياته المضطربة، وعقليته المعقدة، مرتعاً خصباً للاستقرار والنمو.

ثم جاء العصر الحديث، ودبت حركة النشاط الأدبي في أوساط المجتمع العربي، ووجد النقاد والباحثون أمامهم تراثاً ضخماً من مخلفات عصور التاريخ العربي والإسلامي، فخلطوا بين مختلف تلك العصور - إلا قليلاً منهم -

ووضعوا على الأدب العربي وزر العصور التي سلفته، والتي افترت عليه، وشوهت من مفهومه، فكان هذا الاتجاه الخاطئ مدعاة إلى قيام نفر ممن ادعوا لأنفسهم التجديد، فتنكروا للأدب العربي برمته، وأحدثوا فيه كثيراً من النظريات الخاطئة، والآراء المضللة. وجاء بعدهم دعاة المدرسة الحديثة، وأغلبهم من فئات المستعربين الذين تلقوا ثقافاتهم من المستشرقين، وتابعوهم في آرائهم التي ينادون بها، فعمدوا إلى نصوص الأدب العربي القديم يُحَكِّمون فيها نظريات الغرب، ومقاييس آدابه. فلما تنكر لهم وسخر من مقاييسهم ثاروا عليه وزعموا أنه أدب متأخر فقير، واتهموه بشتى الأباطيل، حتى أن من بينهم من لم يؤمن بصحة الأدب الجاهلي بتاتاً، وادَّعى أنه برمته شعر إسلامي منحول!

والواقع أنه لا غرابة من تردي دعاة التجديد المعاصرين إلى هذه الهوة السحيقة من سقم الفهم، وفساد المنطق، وضعف الرأي في الحكم على الشعر العربي القديم، فإن فساد هذه النتائج هو بدوره نتيجة لفساد المقدمات التي بنوا عليها بحوثهم ونظرياتهم. فلقد غاب عن إدراك هؤلاء أن كل دراسة من هذا النوع ما لم تُبْنَ على ذوق عربي خالص، وحس قومي مرهف، وأنها ما لم تستمد ضوءها من أصول الأدب العربي نفسه، فإنها لن تعدو أن تكون دراسة بتراء لايُنتظَر وراءها غير الإساءة لهذا الأدب وجعله ضحية من ضحايا النظريات الدخيلة، والنظرات الأعجمية المنكوسة.

إن قوانين النقد الأدبي «لاتُفرض على الأدب فرضاً، وتلقآ عليه إلقاء، وإنما يجب أن تُستنبَط من نصوصه الممتازة على أنها خواص وُجِدت فيها فألبستها القوة والجمال، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود. ولذلك فإن قوانين النقد

العربي يجب أن تنشأ من دراسة أدبه، وتؤلَّف من خواصه وطوابعه الممتازة».

ولكن أنى لهؤلاء الأدعياء على الأدب العربي، المدعين عليه، أن يفهموا ذلك وهم قد رضوا لأنفسهم أن يظلوا إلى الأبد أحلاساً للترجمة والنّقال، وطبولاً جوفاء تقرع بالمزاعم الشعوبية والدعاية لآراء المستشرقين؟

هذا ونرجو أن تتاح لنا فرصة أخرى لتتبع تلك الآراء المضللة في الأدب العربي القديم، وذلك في بحث قادم إن شاء الله.

صوت البحرين - مايو ١٩٥٠

مقدمة في الشعر العربي «٢»

في بحث سابق انتهى بنا الحديث حول خصائص الشعر العربي القديم إلى استعراض موقف دعاة التجديد المعاصرين المتطرف، وبيَّنَّا أن حكمهم الخاطئ على الأدب القديم ينطوي على كثير من الجور والتعسف والبعد عن النزاهة العلمية. وقد قلنا أن هذا النوع من الحكم الذي يعتمد في أساسه على أصول غريبة عن الأدب العربي بعيدة عن روحه وطبيعة ثقافته، ما هو إلا تجنٍ فاضح لايُقصَد من ورائه غير الإساءة لهذا الأدب نفسه، وجعله ضحية من ضحايا النظريات الدخيلة والنظرات الأعجمية المنكوسة. ولقد آن لنا ونحن على وشك الدخول في تحليل بعض الشبهات المعاصرة التي يروجها الناقمون على الأدب العربي - أن نشير إلى الغاية من وراء ذلك ليست هي الرد على تلك المزاعم أو تفنيدها كلمة بكلمة، ورأياً بآخر. فلمثل هذا مجاله الخاص الذي لايدخل ضمن موضوعنا هذا، وإنما هي محاولة للكشف عن موضع الخطأ في توجيه تلك المزاعم وتلَمُّس الوجهة الصحيحة التي يجب أن يصدر عنها النقد الأدبي في حدود تحكيم الأصول التي يقرها الأدب العربي. وفي هذا المجال لايفوتنا أن نقاد الأدب الأقدمين كانوا أكثر وعياً لهذه الحقيقة فيما خلَّفوه من

22 صوت البحرين

نقد في تاريخ الأدب القديم. ولعل ذلك يرجع إلى افتراض حُسْن النية ونزاهة التحري في ما كتب أولئك مع عدم افتراضهما حتماً عند هؤلاء الذين لايفتأون ينتقِصون من الأدب العربي كذباً وافتراءً باسم النقد المجرد تارة، والتجديد تارة أخرى.

إن شكوك دعاة التجديد واعتراضاتهم هي أكثر من أن تحصى، فهي تتناول بالإنكار وسوء التعليل كل ما ورد في تاريخ الأدب العربي على أنه من النتاج الجاهلي، وهي لاتقتصر على ناحية منه دون الأخرى، بل تراها منبثة في كل صوب، تدور حيناً حول نسبته: أصحيح هو أم منحول، وحول أشخاصه: أحقيقة هم أم مجرد اختلاق. وبعد طائفة لا نهاية لها من الشكوك والمزاعم التي لايُسنِدها دليل صائب، ولايقوم بها رأي واضح، تعود فتتساءل منكرة: لماذا لم يوجد في الأدب القديم أثر للقصص والملاحم وغيرها مما نجده عند اليونان والرومان؟ وليتها تقف عند هذا الحد، فهي تتجاوز العصور القديمة إلى العصر الحديث، فتعيب على الأدب القديم افتقاره إلى كثير من مظاهر التجديد في الآداب الأوروبية المعاصرة، كما تعيب عليه انعدام وحدة الموضوع فيه، ثم ترميه بالتقليد والتكرار المعيب (١) . ومثل هذه الاعتراضات التافهة،

---

(١) من التجني الغريب ما يزعمه العقاد في كتابه (مراجعات في الآداب والفنون) ص ١٠٣ وهو «إن الذي يروى من قصائد الجاهلية ليس بالنموذج الذي يحتذى ب في النظم. وإن في تلك القصائد - غير التفكك وضعف الصياغة - كثير من العيوب العَروضية، والتكرير الساذج، والافتسار المكروه، والتجوز المعيب». وهذا الفهم العجيب يتنافى مع ما عرف به الشعر الجاهلي في جملته من أنه قوي الصياغة، نافذ الأسلوب، يجانب التكرير، ويأبى استكراه الألفاظ واجتلابها». ولسنا ندري ما هو النموذج الآخر الذي تقتدي به بعد الشعر الجاهلي، وكل ما جاء به من الشعر المتأخر لابد وأن يكون مديناً ولو في بعض صفاته إلى الشعر الجاهلي الذي هو نتاج العبقرية العربية الأولى.

توجيه غريب لايعتمد على أبسط قواعد المنطق والتفكير السليم. ونحن نود هنا أن نستعرض من تلك الأقوال ثلاث نقاط رئيسية هي:

١) **الانتحال:** الانتحال معناه ادعاء الشخص ما ليس له من الكلام أو القول. والأدب المنحول هو الأدب الذي نُسِب إلى غير قائله. هذا هو التحديد الموجز لمعنى الانتحال، وهو ما كان متعارَفاً عليه عند علماء اللغة والأدب. فلقد كان من جراء حركة التمحيص العلمية الواسعة التي نهج فيها علماء العربية على غرار إسناد الحديث، ووضعوا لذلك طرق الأخذ والتحمل، أنْ تميزت من شعر العرب طائفة من الأشعار ثبت أنها منحولة، كما عرفت جماعة من الرواة بالوضع والصَّنعة، وقد جاء على رأس هؤلاء النقاد جمع غفير من العلماء في طليعتهم محمد بن سلام الجمحي والأزهري، وعلى بن حمزة البصري وغيرهم. وقد قسَّم هؤلاء الشعر المنتحَل إلى عدة أقسام تبعاً للأسباب التي دفعت على قوله، أهمها:

١ - شعر القبائل التي وضعت في الإسلام أشعاراً نسبتها إلى غير أهلها، للمفاخرة والمكاثرة، وقد عرفت قريش بذلك في صدر الإسلام، وممن اتُّهِموا بمثل هذا الوضع في القرن الثاني محمد بن عبدالله الفقعسي، راوية بني أسد.

٢ - شعر الشواهد: وهو شواهد القرآن، وشواهد النحو، وقد كان الكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يُستشهَد بها، كما وقع للبصريين شيء من ذلك، ثم ازداد الوضع بعد تفرع المذاهب وشياع الكذب في الرواية على ألسنة الموالي والمستعرِبين. كما حملوا على الوضع الاتساع في الرواية ورأس هذا الأمر حماد الراوية الكوفي، وقد أخذ في مذهبه خلَف الأحمر. ومنه التزَيُّد في الأخبار، وقد كان هذا النوع مما تفرع له الإعاجم والشعوبيون فهم يكذبون

مبالغة في الإغراق والتزيُّد، وهؤلاء هم الذين كتبوا في تاريخ العرب واخبارهم ومثالبهم، وقد كان اتساعهم في الافتراء على أشده في أوائل القرن الثالث حين استفحل أمر الشعوبية.

تلك هي باختصار أهم مظاهر الانتحال التي توصل إليها نقاد الشعر الأقدمون، وهي نتائج أوصلتهم إليها عنايتهم الفائقة بالنقد والتمحيص، فكان أحدهم لايجزم برأي إلا وبيده الدليل الثابت عليه. ونحن لو نظرنا إلى الأشعار العربية القديمة التي يُشَك في صحتها على ضوء تلك الاستنتاجات لوجدنا أنها أشعار قليلة لاتضير الشعر العربي برمته. وقد لايؤثر حذفها فيه شيئاً. على أن هذا القليل نفسه من الشعر المنحول لايفقد قيمته كلياً، وقصارى ما يتجرد منه هو النسبة التاريخية لقائلي هذه الأشعار، حيث تكون هناك ضرورة ما لتشخيص الشاعر بالذات ودراسته من شعره. فهذه المجموعة من الأشعار التي يُرى أنها قيلت في الإسلام ونسبت إلى شعراء جاهليين لاتفقد من قيمتها غير العنصر التاريخي، وغير الظل الشخصي للشاعر الذي نحلها، أما قيمتها الأخرى فإنها تظل على ما هي عليه. إن مثل هذا الشعر المنحول لايعدو في جوهره أن يكون شعراً عربياً له نفس خصائص الشعر العربي الجاهلي، لأن قائله وهو عربي بطبيعته لم يكن في صدر الإسلام ليستطيع التجرد عن خصائص الشاعر القديم، هذا مع العلم أن قائله لم تخف عليه ضرورة محافظته على نفس الجو، ونفس الطريقة والأسلوب الجاهليين، لتتم له بذلك أسباب الوضع، وليجوز عمله على الناس. ليس هناك إذن من خطر على طبيعة الشعر العربي القديم من ظاهرة الانتحال، لأن المعين الشعري الذي يصدر عنه الجاهليون

والإسلاميون يكاد يكون واحداً في جوهره، فإذ وُجِد من هذا الشعر المنحول ما ليس يتفق ومميزات الشعر العربي المعروفة، أو ما هو شاذ عن طبع العرب وأسلوبهم، فإن ذلك أكبر فضيحة له، ومثل هذا الشعر يطرح ويجفى لأول وهلة تقع عليه العين لأن مظاهر الانتحال فيه ظاهرة.

ومن هذا القبيل ما نراه في ظاهرة وضع الأشعار التي يستشهد بها، فهذه هي الأخرى قليلة جداً في الشعر القديم، إذ من دلائل صحة الشاهد ونواحي قوته أن يكون قائله معروفاً، ثم إن هذه الشوارد من أشعار الاستشهاد لاتمثل إلا أقلية ضيئلة من الشعر القديم، ولما كان وضعها لغرض الشاهد فقط، فإن واضعيها لابد وأنهم قد التزموا حدود الشعر الجاهلي ليتم لهم بذلك دسها بين النماذج الجاهلية الأخرى، وإلا فإن زيفها سرعان ما يبدو وأثر الصنعة سرعان ما يظهر عليها.

ذلكم هو معنى الانتحال عند العرب كما فهموه، وهم أدرى به وأولى من غيرهم بالحكم عليه. فو لم يكن في حال من الأحوال مطية للطعن في صحة الشعر الجاهلي، بل لعله جاء من عكس ذلك تماماً. أي نتيجة للحرص على تنقيحه، وحِفظ عماد الصدق في روايته على عادة العرب من التمسك بالخبر الصادق ورواية الصحيح من الأنباء خلفاً عن سلف.

إلا أن هناك نوعاً مستحدثاً من الانتحال يزعم فيه أصحابه بأن الشعر الجاهلي القديم موضوع برمته، وقد نحله الشعراء الإسلاميون، وأنه لهذا السبب لايمثل الحياة الجاهلية، ولايمثل اللغة الجاهلية. كما أنه لايمثل اللهجات العربية القديمة. وهم يقررون بناء على ذلك أنه لايصح أن يتخذ مادة لتفسير القرآن، لأن القرآن هو الذي يمثل العصر الجاهلي كما تمثله

الخرافات والأساطير العربية السائدة! ولقد تطرفوا في زعمهم هذا تطرفاً خرج بهم عن نطاق المعقول إلى الهذيان والبحران، حتى إن من بينهم من لم يتورع عن التعرض إلى نصوص القرآن الكريم والشك في صحتها التاريخية

ونحن نرى أن الأخذ بهذه الآراء المضللة يؤدي إلى المقاصد التالية:

أولاً: فصل اللغة العربية ممثلة في الشعر الجاهلي عن القرآن الكريم، ومن البديهي أن ما يقصده هؤلاء من وراء ذلك هو تجريد اللغة العربية من أكبر مميزاتها وخصائصها، وهي كونها لغة القرآن والمفتاح إلى إدراك بلاغته وإعجاز أسلوبه.

ثانياً: اتهام مسلمي الصدر الأول صراحة بالإجماع على الوضع وترويج الكذب، وهذا الرأي طعن سافر في رجالات الإسلام في أزهى عصوره التاريخية وأشدها تمسكاً بنصوصه وحرصاً على شريعته.

ثالثاً: الحكم بضياع جهود الرواة الذين تناقلوا أشعار الجاهلية، وعلماء التفسير الذين استغلوا تلك الأشعار، ونقاد الأدب الذين بنوا على شواهدها الكثير من أصول اللغة والأدب وعلوم العربية، طالما كان هناك مجال للقول بأن الشعر الجاهلي كما هو معروف لايمثل اللغة العربية، ولا اللهجات القديمة، وأنه لايصح لذلك أن يؤخذ مادة لتفسير القرآن أو دراسة العربية، وفي هذا القول ما فيه من تحطيم لأكبر الجهود الدينية والعلمية في تاريخ الإسلام.

والعجيب في الأمر أن تجيء هذه المزاعم كلها باسم التجديد في الأدب،

كأنما التجديد في الأدب في نفسه كالتجديد في الماديات من الأشياء المستعملة، حيث يطرح كل ما هو بال قديم ويصبح معنى القديم مرادفاً للرداءة، ومعنى الجِّدة مرادفاً للجودة، وهذه مغالطة لاتجوز على غير السذج والبسطاء من ضحايا أولئك الكُتَّاب الذين يغتنمون كل فرصة سانحة للنيل من الأدب العربي والدس فيه، مع أنهم إنما يعيشون عالة عليه ويرتزقون من وراء المتاجرة باسمه (٢) .

٢ ـ القصص والملاحم: ومما أُخِذ على الشعر الجاهلي خلوه من عنصر القصص والملاحم والتمثيليات التي وجدت عند اليونان والرومان وغيرهم. ومعظم القائلين بهذا الرأي ينقلونه عن المستشرقين، ويعبرون به عن وجهة النظر الغربية، وهي وجهة لاينتظر منها أن تكون صائبة، لأنها لاتصدر من زاوية النظر العربية التي هي قبل كل شيء ذوق أدبي لايتسنى لهؤلاء أن يدركوه. فهؤلاء المستشرقون ما فتئوا يدأبون على تلَمُّس نقاط الضعف والانحلال سواء في التاريخ السياسي أو الأدبي للأمة العربية، وتوجيه الرأي العربي نحو تلك النقاط بالذات بغية صرفه عن استجلاءنواحي القوة في أدبه وتاريخه. ولقد وجد هؤلاء في الخليط الشعوبي المتناثر من نتاج العصور الأدبية المتأخرة ضالتهم المنشودة، فأشادوا به، وتضافروا على دراسة شخصياته ومنظماته،

---

(٢) أول من نادى بهذه المزاعيم ـ بعد المستشرقين ـ هو طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي». ولقد تجرَّد للرد عليه غير قليل من الكتاب العرب، تناوله كل منهم من زاويته الخاصة، وأرجعوا كل ما جاء في كتابه إلى مصادره، سواء تلك التي سرقها المؤلف من القدماء وأساء استغلالها، أو التي تابع فيها أساتذته المستشرقين، واستوحي عناصرها من مصادر نقمته الشعوبية على الأدب العربي. وممن كتب رداً عليه محمد لطفي جمعة في كتابه (الشهاب الراصد)، والأستاذ الغمراوي في (النقد التحليلي)، والخضري بك في (نقد الشعر الجاهلي) ومصطفى صادق الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن).

لأن ذلك مما يتماشى مع غاياتهم ومقاصدهم. أما في الأدب القديم فقد عز عليهم ذلك، وخشوا أن يبعثوا منه ما يعيد إلى الأذهان عناصر تلك القوة والحيوية التي كان يتمتع بها، باعتباره نتاج أمة غلاَّبة فاتحة، ذات أثر توجيهي مباشر في تاريخ العالم، فلم يجدوا ما يصرفون به الاهتمام المباشر بعناصر الحياة فيه غير إثارة أمثال تلك المواضيع التافهة، واتخاذها سلماً للتنقص من الأدب القديم برمته.

ونعود إلى الفن القصصي فنقول إن عناصر الحياة العربية، وطبيعة الفكر العربي لاتستسيغ مثل هذا النتاج، بل إنها لَتأباه حتى ولو أكرهت عليه. وفي هذا دلالته الكافية على أصالة هذا الشعر الذي وصل إلينا نقياً من ظاهرة القصص، وذلك في تماشيه مع روح الأمة التي أوجدته، فإذا وصل أدب الأمة إلى هذه المرحلة فإنه يكون قد تبوأ أرقى منازله، لأنه يصبح عندئذ عامل تقدم ونمو، بقدر ما يكون الأدب الزائف الذي لايمثل خصائص الأمة والتعبير عن متطلبات القومية عامل تأخر وانحطاط. ونحن نكتفي في هذا المجال بأن ننقل رأياً لمصطفى صادق الرافعي في هذا الموضوع لأنه أقرب إلى ما نراه من خلو الشعر القديم من عنصر القصص والتمثيليات. قال في كتابه «تاريخ آداب العرب»:

«ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا في تاريخ العرب وآدابهم عندما ألموا بذكر هذا النوع في أشعارهم ثم قطع بهم دونه، كيف يعللون ذلك ويتأولونه، فمنهم من زعم أن العرب نظموا كثيراً وضاع ما نظموه، ومنهم من زعم أن سِفْر أيوب في التوراة ليس إلا منظومة عربية نقلت إلى العبرانية ولحق أصلها بدفائن العدم، والكلام على هذا النحو لايحمل على التاريخ فإن حمل عليه خطا به إلى

الخطأ، لأننا لانتصور أن العرب خلقوا من فطرتهم شعراء ينحتون لأوزان، ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذي وصل إلينا، كما أن الرواة يقطعون بالجزم بعدم ضياع شيء من شعر الجاهلية. فإذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يُجمع من التاريخ ويُحفَظ من الأخبار، فذلك موجود في أشعارهم، ولكنهم لم يطيلوها إطالة الإلياذة وغيرها، لأن ذلك يقتضي له عمل من النظم وضرب من التأليف المقصود لايتم حُسْنه إلا بالتنسيق وسياسة الألفاظ واستكراه المعاني وافتسارها ثم إتمام اللحمة بين فصل وفصل، وبين قطعة وقطعة، ثم تحكيك الألفاظ وتصفية الأسلوب واستيفاء صنعة التأليف. ولايكون ذلك جميعه إلا بالصبر والمطاولة ورصد الأوقات التي هي أجمٌ للنشاط وأصفى للخواطر. ولو أن في العرب من انقطع لهذا العمل لهجنوا صنيعه، ورموه بالعي، ولتركوه مثلاً وآية. فهذا النوع لايتفق على الارتجال أبداً، ولابد فيه من الصنعة، فلم يقله العرب بإجماع الرواة، فدل ذلك على أنه ليس من حاجة اجتماعهم. ووجه آخر، وهو أن العرب لايطيلون أشعارهم إلا في المواقف وفي أيام الحفل، ثم إن طبيعة لغتهم تأبي الإطالة إلى أكثر مما تبعث عليه حاجة المفاخرة والمقارعة، لأن البلاغة فيها مبنية على الحذف أو الإشارة والإيجاز والاكتفاء من المعنى باللمحة الدالة، ومن القصة بالمثل المعروف، ثقة بينهم بعضهم عن بعض. وهم إنما يتفاخرون على هذه السُّنَّة، وبهذه البلاغة، فلو أنهم ابتلوا بمفاخرة اليونان أو الرومان مثلاً لاحتالوا في نوع آخر من الشعر يبسطون فيه اللغة، ويمدون معاني الخطاب. ومن تدبر طرق الخطاب في القرآن الكريم، وهو أبلغ ما يمكن أن تصل إليه العربية وجده يوجز في مخاطبة العرب، فإذا خاطب اليهود بسط الكلام، فكذلك كان يفعل العرب.

وإذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يحمله من الخرافات أو القصص الموضوعة، فهذا أيضاً قد نظم فيه العرب، ولكنهم لم يفردوه بالقصائد ولم يطيلوه إطالة بالغة لذاهاب معنى التقديس من عقائدهم. فليس لهم آلهة ولا أنصاف آلهة، ولا أساطير من هذا القبيل. إنما كانوا يتناقلون من ذلك أشياء تناسب طبيعتهم، ومذهبهم الاجتماعي.

يخرج من ذلك أن الشعر القصصي «بالمعنى المصطلح عليه» لم يكن من طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهو لم ينظموه في جاهليتهم قطعاً، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد».

٣ ـ خشونة الشعر الجاهلي: وقبل أن نبدأ في تحليل معنى الخشونة في الشعر الجاهلي، نود أن نشير إلى أن كثيراً من السذج من يسمي هذه الظاهرة «تعقيداً». ومثل هذا الوصف جهل واضح بطبيعة الكلام العربي التي تأبى التعقيد في أي صورة من صور الكلام. ونعود فنتساءل بعد هذا: أي الأذواق هي مرد الحكم في خشونة الشعر الجاهلي؟ فمفهوم الخشونة كما نحددها اليوم بالنظر إلى أنه ذوق في الفهم محدود في نطاق زمني ضيق هو عصرنا هذا، لايعتبر حجة بالنسبة للمفهوم الأدبي العام الذي له أن يقرر وحده ما إذا كان وصف الشعر القديم كله، والجاهلي منه عل الأخص بالخشونة هو حكم عادل وصحيح! فإذا ما حكمنا المفهوم الأدبي العام فإننا نجد أن كثيراً من الألفاظ والأساليب التي نعدها خشنة بالنسبة لما نستعمله اليوم من ألفاظ رقيقة وأساليب لينة، ليست هي كذلك في حكم الذوق العام. هناك بالطبع ألفاظ خشنة وأساليب جافة نجدها منبثة في نواحي الشعر القديم، لأن مثل هذه الألفاظ وتلك الأساليب قد فقدت صورتها الذهنية في مجتمع اليوم نتيجة

للتطور الزمني ولتغير الظروف التاريخية التي أوجدتها، ولكن هذا لايشمل إلا ذلك القسم الضئيل من الكلمات التي ظلت رهن ظرفها التاريخي، مما لايصح معه تعميم صفة الخشونة على الشعر القديم كله. وفيما عدا تلك الألفاظ فإن مظهر الخشونة الذي نجده، هو مظهر نسبي يرجع في حقيقته إلى أحد أمور ثلاثة هي:

١ - من أولى خصائص الشعر العربي أنه يمثل مجتمعه ويعكس بيئته، فهو سجل حافل بأيام العرب وتاريخ اجتماعهم، كما أن فيه كثيراً من أسماء الأماكن ومواضع الدمن وأنساب القبائل وأسماء الرجال إلى ذلك من الأسماء والمصطلحات التي لاترجع خشونتها إلا لمجرد جهلنا نحن بها، فلو أننا عنينا بتتبعها وتكرار ذكرها لما بدت إلينا خشنة جافية، شأنها في ذلك شأن كثير من أسماء الأماكن والقرى والمواضع الأخرى في كافة الأنحاء اليوم.

٢ - الجهل الذي يعم أرجاء عصرنا بالأدب القديم وما يقوم عليه تاريخ العرب وأيامهم. ويقع عبء المسئولية في ذلك على نظام التعليم المتبع اليوم، فهذا النظام لم يراع الذين وضعوه المصلحة القومية فيه، ولم يركزوه على دعائم توجيهية، ولهذا جاءت برامجه خليطاً متنافراً لايضع الطالب أمام وجهة ثابتة. ولعلنا لانعدو الصواب إذا قلنا إن برامج الدروس في العالم العربي ما تزال تمليها وجهة النظر الأجنبية دون اعتبار لمصلحة الأمة العربية في تلك الوجهة إلا فيما ندر. ويمكن أن نتصور نوع ذلك الخطأ المريع، خصوصاً في برامج الدراسة الأدبية في فترة العصر الجاهلي، حيث تقدم للطلاب أعسر النماذج على فهمهم، فتبعث فيهم السأم والملل، مع العلم أن الشعر العربي حافل بكثير من النماذج السهلة اليسيرة التي لايجد أقل الطلاب اليوم مستوى،

صعوبة في تتبعها والإلمام بها، لو وُجِد من بين واضعي أسس التعليم من يولي هذه الناحية ما تستحقه من عناية. أما باقي العبء فيقع على الاتجاه الأدبي المعاصر. فهذه المطابع وتلك الدور الصحفية وأولئك الكتاب المأجورون ممن يقتاتون بضمائرهم وأقلامهم، قد ساعد كل ذلك على خلق جو أدبي مائع لايمت بصلة إلى ما يجب أن تكون عليه البيئة الأدبية التي تستهدف التوجيه القومي والسمو بالمستوى الأدبي العام. كل هذه ولاشك أسباب مباشرة أدت إلى النظر للشعر القديم على أنه معقد لايستسيغه المزاج الأدبي الحاضر.

٣ - من صفات الكلام العربي ميله إلى الجزالة والإيجاز في اللفظ والمعنى، مما يعسر تتبعه على من هو ضحل التفكير، نزر الثقافة. فالبيئة التي نشأ فيها الشعر العربي القديم كان لها التأثير المباشر في طبعه بصفات الصلابة آناً، والسهولة أحياناً أخرى والتدرج به إلى مراتب فيما بين ذلك تبعاً للظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية على السواء. يقول الرافعي في هذا المعنى:(٣)

«أما السبب في أن العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت ألفاظهم الشعرية حتى تخرج نحيفة لا تتمالك فذلك راجع إلى فطرة الاستقلال وحالة البداوة. فإن شئت قلت: إن ألفاظهم إنما تقطر من سيوفهم، أو تسيل من رماحهم، أو تجدب في رمالهم، أو تخصب في أوديتهم، أو تدب في حشراتهم، ولكنك لاتستطيع أن تقول إنها تتردد ألفاظاً مدعورة، وتتمثل وهي معبودة، وتتهالك رقة دينية، ونحو ذلك مما لايلائم نشاط البداوة، ولايكون إلا وهنا من هرم الحضارة وتماوت الحياة الاستقلالية بما يفشو في أطرافها من جراثيم

(٣) تاريخ آداب العرب

الانقراض، وأظهر ما تجد ذلك في الشعر العبراني فإن الذلة والمسكنة والرعدة الدينية أخص مميزاته».

وبعد: فإن النتاج الأدبي الخالد لايضيره، وهو في أوج جودته، أن يكون عرضة للنقد عند من لايفهمه، أو مجالا للتأويل عند من يتعمد الإساءة إليه. ولقد تبين لنا فيما سبق كيف أن كثيراً من العيوب والتنقصات التي أخذها دعاة التجديد على الشعر القديم لاتتعدى كونها مجرد اتهامات لا مبرر لها، عند من يستهدف في حكمه جانب العدل والإنصاف. إلا أن ذلك لايعني أن الأدب القديم أو أي أدب آخر، مبرأ من جميع العيوب، سالم من كافة المآخذ الأدبية، فذلك شأو في الكمال لايمكن لبشر أن يدعيه، وهو ما لانقصده بداهة، لأن في مثل هذا الحكم إيصاد لبابي النقد والتمحيص اللذين هما أداتان مهمتان لتجديد القيم الأدبية الصحيحة، والسعي بالجهود الأدبية نحو التطور والجودة. إلا أن الذي يجب أن نشترطه في تطبيق هاتين الأداتين أن يكون استعمالهما منوطاً بالتحري الصادق والغرض النزيه.

صوت البحرين ـ مايو ١٩٥٠

ابن مقرب.. شاعر مجهول

في غمرة الماضي الغابر، منذ قرون سبعة ماضية، طوت يد الزمن صفحة خالدة لشاعر بحراني عظيم، عاش في البحرين، فكان مثالاً للمناضل الحر والشاعر المصلح.

ويتراكم غبار السنين والأعوام على سيرة هذا الشاعر وعصره، وإذا كان جُلُّ ما تبقى لدينا عنه مجموعة من شعره، محدودة التداول بين عدد قليل من الأفراد، إنّ يكن بينهم من استطاع التعرف عليه، فإن معظمهم ممن لايمكن أن يفيد منها شيئاً.

ذلكم هو شاعر البحرين الأمير أبوعبدالله علي بن المقرب العيوني الذي تطل علينا شخصيته من ثنايا ديوانه، ثائرة تستدعي الإعجاب والإكبار، متوثبة تستحق الثناء والتقدير:

سأمضي على الأيام عــزم ابن حــرة
يرى لعود فيما تحمد النفس أحمدا
فأمـا حيـــاة لاتمـــل حمــــيدة
يحـــدث عنـــها مـــن أغـــار وأنجدا

أنـــال المنـــى فـــيها، وإمَّـــا منيـــة
تريـــح فـــؤاداً أجَّ مـــن غلة الصدا

والأمير الشاعر ـ كما يدل عليه لقبه ـ سليل أسرة حاكمة ولِيَت شئون هذا البلد حقبة من الزمن، فهو ينتمي إلى الأمير عبدالله بن علي العيوني، الذي انتزع الإحساء من حكم القرامطة، واستولى على القطيف وجزيرة أوال «البحرين حالياً» فأسس بذلك إمارة العيونية في منطقة البحرين.

نشأ علي بن المقرب في مسقط رأسه الإحساء وتلقى فيها مبادئ ثقافته، ثم بدا منه ميل مبكر للأدب والشعر، فبرز فيهما ولما يزد على العاشرة من عمره. إلا أن ميله هذا قد اقترن منذ الصِّغَر بعاطفة وطنية حساسة لم تلبث أن تحولت إلى سخط شامل على الوضع السائد آنذاك، وثورة على القائمين بالحكم، مما أدى إلى تضايق أمير الإحساء منه، وكان آنئذ أبا المنصور علي بن عبدالله، فأمر بحبسه ومصادرة أملاكه وبساتينه دونما ذنب جناه.

ولما أُفرِج عنه توجه إلى العراق ومكث في بغداد أشهراً معدودة ثم عاوده الحنين إلى وطنه فرجع مؤملاً زوال الشحناء من قومه عليه، ومدح عدة أمراء في القطيف وأوال والإحساء طالباً رد أملاكه، فلم يظفر بطائل.

وقد حدثت تطورات سياسية عدة أثناء إقامته هذه ازدادت بعدها الحالة سوءاً وكثُرت الفتن وتعددت رؤوسها، فعاتب أمير الإحساء بشعر طويل، ثم سئم المقام فهاجر للعراق ثانية قاصداً الموصل وديار بكر للقاء الملك الأشرف بن العادل، الذي كان قد نهض لقتال الإفرنج في دمياط فلم

يستطع مواجهته، فامتدح والي الموصل فوصله، وكان ذلك سنة ٦١٨ هـ. ثم رجع إلى الإحساء ومكث هناك بقية عهده.

ولابن مقرب ديوان شعر مطبوع على الحجر في الهند سنة ١٣١١ هـ، وهو على النمط القديم في تبويبه وشروحه، كما أنه خال - مع الأسف - من كثير من المعلومات الضرورية لمن يود الانصراف إلى دراسة الشاعر دراسة مستفيضة.

أما المقدمة التي كتبها الناشر فهي كذلك غير مستوفية لكثير من المعلومات اللازمة. وكأن كاتبها قد اتخذ من موضوعها مجالاً لإثبات قدرته على حشر الأسجاع، وتركيب الجمل وتنميقها، مما أدى به إلى إهمال نواح عديدة من سيرة ابن مقرب، مثل ذكر تاريخ ولادته ووفاته وحالة عصره. وكذلك فهو قد أهمل جملة واحدة بقية عهد ابن المقرب بعد رجوعه من الموصل، فلم يذكر عنه شيئاً. وقد ركز الناشر جل بحثه عن أخلاق ابن المقرب ومزاياه وتعسف أقاربه الحكام في معاملته، إلا أنه على الرغم من ذلك. لم يوفق في تعليل سر تلك الخصومة التي كانت قائمة بين الشاعر وولاة الأمور. فهو يعزوها إلى سماع الأمراء قول الوشاة فيه وتقريبهم أهل السَّفَه والجهل على رجال العلم وذوي الفضل. وهذا التعليل السلبي، وإنْ كان على جانب من الصحة، إلا أنه ليس في ذاته السبب المباشر في هذه الخصومة. فمن الواضح أن ابن المقرب كان قد وقف موقفاً إيجابياً من هؤلاء الأمراء حين بدأ يهددهم ويتوعدهم، وهو لذلك ينوي القيام بما يشبه الثورة على الوضع القائم في عصره. ونحن لانجهد كثيراً في تلَمُّس هذه الروح الثورية في شعره والمتحفزة للوثوب في أقرب فرصة مؤاتية.

وثورة ابن المقرب هذه تظهر أحياناً ضمنية في شعره وأحياناً أخرى صريحة لا غبار عليها، ولا لف فيها، وذلك تبعاً لشخصيات خصومه من جهة وظروفه

هو من جهة أخرى. ولقد أدرك ولاة الأمور هذه الحقيقة فعملوا على إخماد النار قبل أن يضطرم أوارها ويصلَوْنَ جحيمها.

فأحياناً نراه في ثوب الناصح، يحذر بوخامة العاقبة، وينذر بزوال المُلْكُ، طالما كان الملك غير ثبّات على اللعب. وهو يغتنم فرصة النصح هذه ليوجه نقده اللاذع ممزوجاً بالسخرية إلى سيرة الأمراء الشخصية المنحرفة وسيرهم في طريق من اللهو مظلم، قد يجر عليهم البلاء والدمار كما جر على غيرهم. فيقول مثلاً مخاطباً أمير الإحساء:

كم في أبويك الأمجاد من ملك
بالمجد ملتحف بالتاج معتصب
لم يبق إلاَّكَ فانظر ما يقال غداً
وإنْ هممت بضعف العزم فانتسب
وغر على المُلْكُ من لعِب الرجال به
فالمُلْكُ ليس بثَبَّات على اللعب
دعاي: يا رب ألْهم رب دولتنا
أنْ يبلغ الرأس منا رتبة الذَّنَبِ..!

وأحياناً تبدو لنا ثورته بين طيات شعره الحماسي، يدعو فيه إلى لمِّ شعث بني وطنه، ويعاتبهم على الخمول:

لاتُكْثِري من مقالات تزيد ضَنَىً
ما الخط أمي ولا وادي الحساء أبي

فـــي كـــل أرض إذا يممتــها وطـــن

مــا بـين حــر وبــين الدار من نــسب

يا ساكني الخط والجرعاء من هَجَـرِ

هــل انتظاركــمُ شيــئاً ســوى العطب

بحـحـــت ممــا أناديـكـم وأندبكـــم

لخـير مُنْـقَلَــبٍ عـــن شـــر منقلـــبِ

فَسَـــكِّتُوني بقـــول لاتفُـونَ بـــه

قد صــرت أرضــي بوعد منكـمُ كَذِبِ

لأطلــبنَّ العُــلا جهـدي طِلابَ فــتىً

يـدوس بالعزم هـــام الســبعة الشهب

أرى العــــلا تقتضيـــني غـيروانـية

عزماً يُبيْــن عن فضلي وعن حسَـــبِي

ومـــا نهضـــت بـــه إلا وأقعـــدني

خـــذلان قومــي وعبثُ الدهر في نسبي

إلا أنه كثيراً ما ينصرف عن هذه الأساليب «الملفوفة» فيعلن سخطة وثورته في وجه الأمراء متهدِّداً متوعِّداً:

وأمـــدح أقـــواماً لو أني امتدحتهـــمُ

بمـــا فيـــهـم لـــم يـبق عـــيب لعائب

لَكَفَّ أذاهم لا اجتلاباً لخيرهمُ
وكيف يدرُّ الحول أبساس حالب
فيا عررا لايفثأ المدح شرهم
وقد يفثأ الراقون سم العقارب
متى جرَّ نفعاً مدحكمُ أو كفى إذاً
وكم نفع السارين حَدْوَ الركائب
فيا ضيعة المدح الذي سارَ فيكمُ
على ألسنِ الراوين سير الركائب
لأنْ كنت لا كنتم قذىً في عيونكم
فإني شِفاءٌ للعيون الضوارب
أَغَرَّكُمُ دهرٌ خسيسٌ أحَلَّكُمُ
مراتب ما كانت لكم بمراتب
رويداً بني المستقرِماتِ فحاضرٌ
وعدتكم إنجازه غير غائب
فوا أسفاً إنْ مُتُّ لم أوط أرضكمُ
كتائب خيل تهتدي بكتائب
تريكم نجوم الليل ظهراً إذا بدت
تكدس في ليل من النقع ضارب

بكل فتـــى أمـــضى من السيف عزمـــه
إذا اعتَـرَكْـــتُ والسيف عضب المُضارِب
فلســـت ابـــنَ أم المجـــدِ إنْ لـم تزركمُ
مُسَوَّمـــــةً بـــين القنـــا والقواضـــب

شعره

وشعر علي بن المقرب كما ينتظر منه أن يكون جياش متوثب في جيده، موغل في الحماسة في أغلب قصائده التي تمتاز بطولها، إلا أنه لاينسى بين كل مقطع أن يقف برهة عند حكمة يستخلصها أو مثل يضربه، ثم يسرد طرفاً من أخبار العصور الغابرة يستوحي منها العظة ويضرب بها الأمثال، وغالباً ما تكون هذه الحوادث مستمدَة من تاريخ العرب الجاهلي، أو من سيرة آبائه العيونيين وتاريخ حروبهم في البحرين. كل ذلك يعالجه ابن المقرب في شعره بأسلوب سهل لا أثر فيه للتكلف المصطنع أو التقعر في انتقاء محسِّنات اللفظ. وهذه إحدى الميزات التي استطاع بها أن يتخلص من أثر الصَّنعة الذي كانت تفرضه البيئة الأدبية وتطبع به النتاج الأدبي آنذاك. والغريب أن عصره يكاد يكون قريب العهد بمخلفات القرامطة في بلاده، وهم الأنباط الذين مسخوا كل ما وقعت عليه أيديهم من آثار مادية أو أدبية على السواء.

هذا في شعره الجيد، أما في نظمه العادي، فغالباً ما يسُفُّ في أسلوبه، وخصوصاً حين يتعرض للنواحي التاريخية أو المواعظ والحكم. وتخالط بعض قصائده الجيدة كذلك عدة أبيات من هذا النوع ينزل فيها عن المستوى الذي بدأ به، ولكنه لايلبث أن يعود إلى مستواه الجيد. وعلى العموم فإن أقل ما يقال

في شعر ابن المقرب غير الجيد أنه في درجة النتاج الأدبي لذلك العصر إنْ لم يكن يفضُلُه في روحه وإحساسه وقيمته التاريخية. ومن قصائده، التي تحمل قيمة تاريخية رغم ضعفها، قصيدة مطلعها:

قم فاشْدُدِ العيسَ للترحـال معتزِما

وارْمِ الفجاج فإن الخَطْبَ قد فَقَما

وعدد أبياتها ١٤١ بيتاً، فهي رغم ضعف أسلوبها ذات قيمة من الناحية التاريخية، لأنها عبارة عن ملحمة شعرية تصور كثيراً من تاريخ ذلك العصر وما قبله، وتشتمل على حوادث محلية، وله عدة قصائد من هذا النوع.

وقد طرق ابن المقرب معظم أبواب الشعر، وأهمها المديح، والنسيب، والفخر، والرثاء، وقليلاً من الهجاء. ولكنه قلما يقصر قصيدة كاملة على أحد هذه الأغراض، ففخره بنفسه وسخطه على الوضع وتحريضه قومه، كل هذه لابد منها في أغلب قصائده.

والمديح هوأكثر الأغراض التي نظم فيها، إلا أن شعره في ذلك كان مقصوراً على أقاربه الأمراء وبعض ذوي الوجاهة ممن أكرموه في سفره. فمدحه الأمراء كان كفاً لأذاهم، ومدحه الباقين مراعاة لودهم:

مديحي رجالاً بعضهم أتَّقي به

أذاه، وبعضاً للمراعاة والود

ولقد كره على الشعر العطايا فلم يخرج منه القريض تَكَسُّباً، وله مواقف كثيرة أبي فيها أن يمدح من شانَتْهُ سيرته وأخلاقه، بل إن مثل هؤلاء غالباً ما

يكونون موضع تقريعه ومعاتبته. إلا أنه قد تجنب مع ذلك الهجاء الفاحش المبتذَل في شعره، واقتصر على العتاب الودي أحياناً، والتنديد الساخر أحياناً أخرى. والسبب في ذلك هو استصغاره لقدر من وشوا به وناصبوه العداء ممن كان يربأ بنفسه عن التعرض لهم حتى بالهجاء، مردداً فيهم حكمته:

أرى الناس مـذ كانـوا عبيـداً لغاشم
وخصمـاً لمغلـوب وجنـداً لغالـب

أما الغزل والنسيب في شعره، فهما رغم كونهما توطئة لموضوع قصائده - على عادة القدماء - إلا أنه لايقف فيهما عند المعاني القديمة الجامدة، والألفاظ المعادة، بل يضفي عليهما الشيء الكثير من شعوره الحماسي وعاطفته الوطنية الحساسة. ولهذا جاء غزله رغم قلته، فحلا لاتخالطه أعراض الأنوثة ولاتحلُّل كلماتها. هذا ولابن المقرب عدا كل ذلك ملَكة في الوصف لايمكن تجاهلها، وتمتاز بجزالة اللفظ، وقوة الأسلوب وتتابع المناظر المثيرة، وغالباً ما تكون قطعه الوصفية ضمن قصائده الفخرية.

الوطنية في شعره

من خصائص شعر ابن المقرب ما يحمله بين طياته من تأثير اللون المحلي، وطابع البيئة الخاص. فإن من أول الحقائق التي تواجه القارئ في ديوانه هي أنه لم يتخذ نظم الشعر غرضاً لذاته، يعتكف له في محراب الفن المجرد، أو يتأمل فيه رؤى الخيال البعيد. ولا غرابة في ذلك، فابن المقرب شاعر مصلح لم يزل شعره لسان الثورة. وراعية النهوض في بني قومه حتى الرمق الأخير من حياته. إنه شاعر المجتمع الذي يعيش لقومه لا لنفسه. وفي الواقع لا في الخيال:

أعربت حين دعوت إلا أنه
لا يبلغ الأموات صوت دعاتها
إنْ ترض قومي الهون في فطالما
عمدا أهنت النفس في مرضاتها
كم قد غدوت ورحت غير مقصر
في لمِّ فرقتها وجمع شتاتها

ولهذا فابن المقرب لايضيره أن يضرب الأمثال، أو يستمد العبر من أقرب الأشياء إليه، وأكثرها مساساً بتفكير مجتمعه، ومصطلحات بلاده. ففي مواضع كثيرة من ديوانه ذِكرٌ لأماكن لاتزال معروفة، وقرى ما تنفك آهلة، وعادات ما برحت مستحكِمة في شتى نواحي البحرين. ولايستغربن المرء وهو يطالع ديوانه، أن يجد فيه من الأمثال ما يستعمل فيه مثلاً أسماء لأنواع من الأسماك الشهيرة عندنا اليوم كالصافي والكنعد، ومن الأطعمة الشائعة والألبسة المعروفة، وسائر مرافق الحياة البحرانية.

إلا أن أهم ميزات الشاعر مكانته من الأدب القومي لهذا الجزء من الوطن العربي على الأخص، حتى إنه لَيعتبر بحق شاعر الوطنية فيه، وهذا ما يفسر لنا سر إعجاب الشاعر بأبي الطيب المتنبي وتأثره به، ذلك الإعجاب الذي يبدو في كثير من لمحاته وأساليبه ولا غرو، ففي سيرة هذين الشاعرين نواح كثيرة يشتركان فيها. وإذا كان ابن المقرب دون المتنبي في شعره فإنه يشترك معه في طموحه ويقظته ومزاياه الأخلاقية، اشتراكاً ظاهراً.

وفي شعر ابن المقرب القومي مَسحة من الجِدَّة، فهو ما يزال يعبر عن أروع

الشعور الوطني رغم بُعْد الشُّقة التي تفصل بين عصره وهذا العصر الذي تبلورت فيه فكرة القوميات، ورغم التباين بين ثقافة كل منهما. وفي طليعة قصائده التي تحمل هذا الطابع قصيدة مطلعها:

دع الـدار بالبحريـــن تعفـو ربوعـها
وسُقـها ولـو لـم يبـق إلا نسوعـها

ومن قطعها الجيدة قوله:

فخـير لَعمـري مـن بسـاتين مرغم
على ذي المجاري ـ طلح نجد وشوعها
ومـن مـاء نهـر الجوهريـة لو صفا
ذبابـة حسـي لا يُرجـى نبوعـها
أمـا سـمنها في أبحـر الملـح ماؤهـا
وفي نخلها العم الطـوادي جذوعهـا
وليـس لنـا في الـدر إلا محـارُهُ
ولا في عـذوق النخـل إلا قموعـها
فبُعـداً لـدار خـيرها لعـدوهـا
وقـوم بأسـوا كـل حـظ قنوعها
عفـاء عـلى البحرين لو قيل أينـعت
«دنـانير» واديـها وجـادت زروعـها

فهـــل ذاك إلا للعـــدو، وغصـــة
ســيأتــي بــها متبوعهــا وتَبوعــها
لقد صدعوا عمداً عصـاها فـلا التقت
ولا التــأمت إلا عليــهم صدوعــها

ومن جيد شعره الذي يصف فيه حاله مخاطباً قومه في قصيدة مطلعها:

أبــت نُـــوَّبُ الأيـــام إلا تماديــاً
فيــا شقــوتي ما للــيالي ومــا ليــا

وقوله:...

أقول وقــد طــال اهتمــامي لفتــيـة
تسـامى إلى غـــر المعـــالي تسـامـياً
إلامَ بنــي الأعمـــام نســقى نطافهـــا
أجاجــاً ويسـقى الغيرعذبــاً وصافياً
فـــو اللـــه لا أدري وإنـــي لصـــادق
عمـــىً مـــا أرى من قومنـــا أم تعامياً
تَلَوَّمْتُ قومــي كي يريعــوا فلــم أجد
على الدهــر مــن قومــي هُماماً مواليـاً

وطـــال مـــداراتي اللـــئام وإنمـــا
ســـفاه لمثـــلي أن يكـــون مـــدارياً
ومن لم يفارق منزل الضيم لـم يـزل
يروح ويغـــدو موجـع القلـــب باكـــياً
ومـن يَثْـــوِ في دار الهوان يعـــش بهـا
أخـا مضـــض لا يـبرح الدهـر شاكياً
فإن عَقَلَت قومـــي لســـاني بأرضـــها
فليـــــس بمعقـــول إذا كـــنت نائـــياً
سأرســـل فيهـــا بالدواهـــي شـــوارداً
تنبِّــــه ذا عقـــل وتُفْهِـــم داعـــياً

ولقد كان له في مشاكله الشخصية ومحنته المادية ما يكفي لصرفه عن تناول هذه النواحي الاجتماعية - شأن غيره - ولكنه أبى ذلك، فلم ينس بلاده وهو يجاهد عن نفسه، ولم يتجاهل قومه وهو يطالب بحقوقه:

كنـت قبـــل اليـــوم أبكـــي بشـــجىً
هـــمَّ نفـــسي وطريـــفي وتِـــلادي
ثـــم قـــد أصبحـــت أبكـــيَ بـأســـى
شـــجو إخـــواني ورهطـــي وبـــلادي

وبعد: فإن مجال التحدث عن شخصية ابن المقرب وشاعريته لَمتسع الأرجاء، وأرى أن اكتفي بهذا القدر الآن تاركاً الحديث عن النواحي الأخرى من

ديوانه – وعلى الأخص التاريخية منها – إلى مناسبة أخرى. على أني أرجو أن أكون قد استطعت في هذه الإلمامة أن أبين شيئاً عن هذا الشاعر وطرفاً من شاعريته، كما أني آمل أن يجد ديوانه من يقوم بالعناية به وطبعه ليتسنى للجميع الاطلاع عليه وليتمكن شبابنا من دراسته.

صوت البحرين ـ سبتمبر ١٩٥٠

تقي البحارنة | 48

صوت البحرين

القومية العربية.. في مهب الرياح!

لم تمض على الشرق العربي طيلة أدوار انحطاطه الأخيرة فترة كان أحوج ما يكون فيها إلى الإصلاح، مثل هذه الفترة التي انتهى إليها طوافه الأخير وأسلمته إلى أعاصيرها عهود الرُّقاد الطويلة، وضغوط الأجيال المتعاقبة، وتيارات الأهواء الشعوبية الجامحة. ففي هذا العصر الفاصل في مصير الأمم ومستقبل الشعوب يجتاز شرقنا العربي مرحلة انتقالية يتحدد فيها اتجاهه ويتقرر عندها مصيره، بعد أن أمضى شطراً من الزمن بين التردد والحيرة، من أثر الصدمة التي خلَّفها الطوفان الأجنبي وأحدثها التطور المفاجئ. وإن الامتحان الذي يواجهه الآن لَهُو من الخطورة والدقة بحيث تؤدي فيه الزلّة البسيطة إلى الانزلاق المتطرف، الذي قد تكون له نتائجه الخطرة بالنسبة لمستقبله ومصير العالم من بعده، لاسيما بعد الفشل الذريع الذي انجلت عنه جهود الأمم الأخرى في سبيل توجيه الإنسانية وتحقيق سعادتها وضمان حقوقها المشروعة.

إزاء هذه الحقيقة في ضرورة الإصلاح للمجتمع العربي المعاصر، تنهض ظاهرة أخرى قد تكون في بعض نواحيها ملازمة لهذا الشعور بواجب العمل

الإصلاحي والنضال القومي، ألا وهي اضطراب المجتمع الحاضر، في لجة من النظم الإصلاحية، وخضم من المناهج القومية التي يبثها الدعاة في كل صوب، ويملأون بضجيجها ذلك الفراغ الإصلاحي في كافة أرجاء المجتمع العربي ومختلف بقاعه. ومن بين هاتين الظاهرتين تتكشف لنا حقائق مهمة لها قيمتها عند البحث في حاضر العالم العربي وسر تعاسته.

وأولى تلك الحقائق هي أن هذه الجهود الإصلاحية، والمساعي القومية، التي يبذلها العاملون للنهوض بالأمة العربية، لم تؤت ثمرها المنتظر إلى الآن فيما تسعى لتحقيقه من غايات وأهداف. فلقد مضى على معظم المنظمات الإصلاحية منذ زمن نشوئها حتى يومنا هذا، ما هو كاف بطبيعته لإيضاح ما آل إليه أمرها، في تطبيق المبادئ التي وضعتها، وتحديد النقطة التي وصلت إليها من ذلك البرنامج الضخم الذي أعدته للنهضة العربية. وكأن هذه المنظمات التي لم تعمل شيئاً طيلة عصورها الماضية، لم يقدر لها أن تستفيق بعد من سباتها العميق المليء بالأحلام والأوهام والآمال الجسام، لتزيل بيدها أسباب ذلك الفشل الذي منيت به، وتعيد النظر من جديد في برامجها، وتوحد الصفوف بين اتباعها على أسس قويمة من الوعي الصحيح، ودعائم ثابتة من العمل المثمر. بل إنها على ما يبدو، ما تزال على العكس من ذلك تماماً في تعلقها بأسباب الحياة الكاذبة التي ألِفتها، وتمسكها بأذيال المبادئ العقيمة التي أخذت معظمها عن النظم الأوروبية المضللة، وفي تشبثها بأهداب المفهومات الشرقية البالية، بما تطرق إليها من عوامل الانحلال والوهن والجمود.

في ظلال تلك النشأة العقيمة، وبفعل عوارض الانحلال المزمن التي شملت

القيم القومية الحاضرة، فقد الجزء الأكبر من هذه المنظمات زمام القدرة على توجيه الثقافة العربية، بل وأكثر من ذلك أنها قد فقدت في نفس الوقت قدرتها حتى على وعي حقيقة الأهداف التي تناضل من أجلها، فكان ما نراه من خلافات ظاهرة بين الكثيرين من دعاة القومية على كيفية تحضير مناهج الإصلاح، ورسم خطوطها، أو حول الاتفاق بشأن الطرق المؤدية للنهوض هذا، مع أنهم يعملون جميعاً تحت اسم واحد، ويخدمون غرضاً واحداً.

على أن هذه المشكلة المعاصرة في تحديد القومية، وتخطيط حدودها العربية التي استنفذت جهد القوميين المعاصرين، لم يكن لها بِرُمَّتها وجود في المجتمع العربي الصادق، وليس في تاريخ العرب الطويل ما ينبئ بأن أمثال هذه المشاكل كانت قد واجهتهم في أي عصر من عصور انبعاثاتهم التاريخية. ونحن نجد أن العرب الأقدمين الذين نهضوا برسالة الإسلام لم تكن بهم حاجة إلى تعريف معالم نضالهم القومي، أو تحديد نوع العروبة التي يؤمنون بها ـ على حد تعبير العصر الحاضر ـ ذلك لأنهم كانوا قد حققوا صفة العروبة بالفعل لا بالقول، ومارسوها في واقعهم الراهن، لا في ظلال التأملات والأماني البعيدة. ولهذا فإن نقطة انطلاقهم كانت خارج نطاق هذه الكلمات، ولم تكن بين جدران تحديداتها، أو في حدود تعريفها، والاتفاق عليها. وتلك هي أولى الحقائق القومية التي يجب أن يعيَها جمهور الشباب العربي المعاصر، فيضعوا بذلك حداً لما تنطبع به الحركات القومية الحاضرة من صفات العقم والجدل واللف والدوران.

إن عروبة من يدعي القومية العربية، ويتزعَّم لواء الدعوة لها، هي أولى شروط قيامه بهذه الدعوة، وكذلك فإن وعي العروبيين لمقومات عروبتهم،

وتفجُّر حيوياتها النابضة بالحياة في كيانهم، بحيث تتخذ فيهم جميعاً معنى واحداً، وتفترض فيما بينهم اتجاهاً متناسقاً، هي أولى مستلزمات التعبئة العامة للعمل القومي. كما أنها نقطة البدء للانطلاق من مركز هذا الوعي العربي إلى حيز النضال القومي الشامل. وعلى ضوء هذه الحقيقة ندرك مدى ما بين هذه الجهود الضائعة وبين العمل المثمر من بون شاسع، وفارق بعيد، خصوصاً وهي لمَّا تستطع اجتياز أولى مراحل الدعوة، وتخطِّي مستلزمات النضال في سبيلها.

وكما أن الدعاة القوميين قد اختلفوا في «القومية» وأساليبها، كما اختلفوا من قبل حول «العروبة» وتخَطَّفَهم الرأي الخاطئ في فهمها، حتى أصبح في رأس كل منهم معنى مستقلاً، فإنهم لم يوفقوا بعد - كنتيجة حتمية لذلك - إلى وعي حقيقة «الفكرة العربية» في صميمه، وإدراك غاية ما ترمي إليه. وإذا ألقينا نظرة عامة على المناهج الوضعية الحاضرة، نجد أن طلائع القوميين لاتزال بعيدة عن وعي الحقائق الكامنة فيما ترمي إليه الفكرة العربية من تنظيم المجتمع العربي على أسس ثقافية أصيلة، وطبع كافة نواحي «اليقظة العربية» بالخصائص والمميزات القومية العريقة. فالفكرة التي بنيت عليها معظم تلك المناهج هي أن الأمة العربية لن تستطيع اللحاق بأمم العالم، ومسايرة التقدم الحديث، ما لم تأخذ نفسها بتطبيق ما تراه صالحاً من النظم الغربية، والمبادئ الأوروبية المعاصرة. وإذا كان الرد على هذه المغالطة يتطلب بمفرده بحثاً خاصاً، فإن خلاصة الرأي في بيان خطئها وفسادها تنصب على ما تدعو إليه هذه الفكرة من تحد صريح لعنفوان الأمة، وطعن سافر في حيويتها وكفاءتها الذاتية، طالما أنه ليس في وسع المنقاد أن يتخير المصير الذي

يساق إليه، أو الذي يُلقِي فيه بنفسه دونما وعي أو إدراك. هذا في حالة نجاحها فعلاً في أخذ الصالح وترك الطالح، وسدادها في ترَسُّم خطى الثقافات الأخرى، رغم أنه من المستحيل رسم خط فاصل بين الخير والشر في مثل هذا الاقتباس. ومن الواضح أن تطبيق نظام معين يمس ناحية خاصة من مرافق المجتمع، يقضي بداهة بتقَبُّل نتائج ذلك النظام بالنسبة للمرافق الأخرى، طالما كان ارتباط كافة النظم والمبادئ الحديثة وتداخل نتائجها، من الحقائق الملموسة التي لا موضع فيها للجدال. ولما كان القصد من نهضة العرب أن تدور الأمة العربية دورة عربية لا غربية، لها علاماتها القومية المميزة، فإن هؤلاء المبشرين بأمثال هذه النظم الغربية، في غمار انجرافهم بقوة الدفع الأوروبي الذي يفرض عليهم قيمه وتحديداته حتى في أغراض القومية نفسها، لأعْجَز من أن يضعوا للأمة العربية أسس نهضتها، لتسلك سبيلها القومي، وتخرج بخصائصها الثقافية الأصيلة، ذلك لأن مثل هذا الإحياء يتطلب قبل كل شيء استخلاص القانون الطبيعي في الإصلاح، لا النظم الوضعية الزائفة.

إن عناصر النجاح أو أسباب التدهور في الأمم والشعوب كافة، ترجع ولاشك إلى تأثير عوامل خاصة، لها من القوة والضغط ما يمَكِّنها من السيطرة التامة على توجيه هذه الأمم وتسييرها تحت مفعولها القوي، فتنحرف إما لوجهة الخير أو بؤرة الشرور، تبعاً لنوع ذلك الاستعداد الطبيعي الكامن في أعماقها. وبما أنه كلما كانت هذه العوامل تستمد فعاليتها في الظهور والاستمرار من صميم المجتمع، وتنبعث من كوامن خصائصه، كلما كان تأثيرها أشد، ومفعولها أبعد أثراً، لذلك فإنه ليس بين كافة تلك المؤثرات ما هو أشد نفوذاً من عوامل الطبيعة ومفعولها ومؤثرات البيئة ومقتضياتها، ومجاري الوراثة

وخصاصها، في المجال الذي تصطرع فيه الأمم، والبقاع التي تنتشر عليها. ومن الطبيعي أن تلك العوامل والمؤثرات البيئية تختلف في كل منطقة في العالم عنها في المناطق الأخرى، لهذا كان لكل طبيعة حكمها الذي تفرضه، وكان لكل أمة ثقافتها الخاصة بها، وبالتالي فإن كل بيئة وكل طبيعة تفرض على سكانها سلوكاً خاصاً في الحياة، وفهماً محدوداً لغاياتها وقيمها المختلفة.

فمعنى القانون الإصلاحي إذاً، أو القانون الطبيعي في الإصلاح لأية أمة من الأمم، هو استنتاج سر التدهور الشامل، واكتشاف مركز الانحراف بالنسبة إلى هذا السلوك الخاص بها، مما لايصح معه استيراد مبادئ ونظم وقوانين إصلاحية تحمل خصائص أمم أخرى غريبة، ومحاولة تطبيقها، أو فرضها على مجتمع لاتشاركه وإياها تلك العوامل الحيوية، ولايسايرها سلوكه الخاص وتصرفاته الطبيعية.

من هذا القانون الإصلاحي، نستنتج أن الاتجاه الصحيح في الإصلاح يجب أن يرمي، قبل كل شيء، إلى إزالة ما يتراكم على طبع الأمة الأصيل من مفهومات طارئة، ومبادئ مضللة، لينفسح الطريق أمام حيوياتها الكامنة للظهور والتبلور في قالب ثقافي أصيل. أما ما عدا ذلك من النظم المستوردة، فإنها من فطرة الأمة، كالطفيليات من الجسم الذي من أُولى صفات الحياة فيه، سعيه للقضاء على أمثال هذه الطفيليات، التي تحول بينه وبين استظهار حقيقته، وتلَمُّس كفاءته الذاتية.

استوضحنا فيما تقدم مجموعة من الأخطاء القومية المعاصرة، والآن لابد لنا من الإشارة إلى رأس تلك الأخطاء، وذلك فيما يتعلق بالإسلام، والثقافة الإسلامية التي تقوم ضرورتها، مع العروبة جنباً إلى جنب، في تكوين النهضة

العربية، وترسيخ دعائمها القومية.

إنه لَمِما يطعن القضية العربية في صميمها، ويحكم عليها بالانتحار البطيء، أن يقوم في مجتمعنا من يدعو إلى فصل الإسلام عن العروبة، بعد عزله عن المجتمع، والتحكم في تياراته. وتلك لَعمري نتيجة لاتُستغرَب طالما كانت دعوة هؤلاء إلى سلوك طرق التنظيم الاجتماعي في العرب تستلزم بطبيعتها استبعاد الإسلام من الحياة العملية، نظراً لأن المبادئ الإسلامية لايمكن أن تتمشى، في حال من الأحوال، مع شرور الحياة الحاضرة، وأوضاعها المقلوبة، ووثنياتها المبرقعة بمظاهر الخداع والدعاية والتزييف. على أننا يجب أن لانخص بالإسلام مطلقاً تلك الصورة المهلهلة التي يطبق بها في بعض البلاد الإسلامية، فإنه ما لم تتحكم أصول الدين الإسلامي في زمام الحياة الاجتماعية وفي شتى مرافقها، وتتولى مبادئه تنظيمها على أسس العدل الاجتماعي، فإنه لا فائدة ترجى من تطبيق ناحية منه وإهمال النواحي الأخرى. ولقد تكلم الدعاة الإسلاميون الكثير في تعداد مآثر الإسلام، وتبيين بعض نواحي المرونة فيه، على أسلوبهم في فهم الإسلام، فلم يتطرقوا لاستنباط النواحي التشريعية، وأسس الاقتصاد الإسلامي وكثير من النواحي الأخرى. ونحن لو فرضنا لهم بعض التوفيق فيما عرضوه من مزايا الإسلام، فإن الشيء الوحيد الذي لم يهتد معظمهم إليه، هو سر ارتباط الإسلام بمادة العروبة، واتحادهما معاً على صعيد واحد. وكما أن عزل أولئك الدعاة القوميين الإسلام من مادة نضالهم قد جر التسكع وراء تلمس النظم الصالحة في العرب دون جدوى، فإن نزع الدعاة الإسلاميين الإسلام من مادته العربية، قد حكم على آرائهم بالجمود، فلم تغير من وضعهم شيئاً، كما أنهم لم يبدلوا من مفهوم

الإسلام في أنفسهم شيئاً.

لقد كان مفهوم العروبة قبل ظهور الإسلام مرتبطاً بخصائص مكارم الأخلاق العربية ومآثر العرب الخلقية، فكانت عروبة خلقية قبل كل شيء. أما دماء النسب فكان فضلها لكونها المجاري النقية التي تضمن صيانة تلك العروبة الخلقية من كل شائبة ودخيل.

وجاء الإسلام فكان أول ما دعا إليه رسوله الكريم بعد الدعوة إلى التوحيد، «مكارم الأخلق العربية» بعد تنقيتها من شوائب المكتسبات الطارئة، وأوضار الأمم المجاورة، فضرب بذلك على الوتر الحساس في نفوس العرب، وجمعتهم من جديد تلك العروبة الإسلامية على صعيد الفتح الإسلامي والدعوة العالمية، ومنذ ذلك الحين تبلورت فكرة العروبة عند العرب في حقيقة التمسك بالإسلام، وتلازَم مفهومها له ملازمة الروح للجسد؛ والحياة للجسم. وإذا كان مما يشرف العروبة صلتها بالإسلام وتبلور معناها في ظل ثقافته، فإن تحكم مبادئ الإسلام في مصير الحياة العربية، هو مدعاة للفخر بهذا الانتساب، ومَجلَبة للشعور بالعظمة القومية، طالما كان الإسلام يشتمل على أدق خصائص النفس العربية، وعناصر فطرة الخير فيها. وهو بعد كل ذلك دين الفطرة الحنيفية، وملة أبي العرب الأكبر إبراهيم الخليل. ونحن لانعجب لذلك أن يختار الله العرب لتأدية رسالة الإسلام، بعد أن يصطفي لهم رسولاً منهم يجمعهم على كلمة التقوى، ويضع في أعناقهم أمانة الإسلام. فيخاطبهم بقوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، مِلَّة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس﴾.

مما تقدم نتبين حقيقة ارتباط عناصر الوعي العربي بالثقافة الإسلامية، وهي حقيقة أنْ تكن تراءت لنا بعيداً على أفق الماضي الغابر، فإن معالمها قد غابت عنا في غمرة حياتنا الحاضرة، كما غابت معالم كثيرة من حقائقنا الأخرى.

فليست علة وضعنا الحاضر أنْ ليس في أيدينا نبراس من الحياة المثلى نستضيء به، أو منهاج من الحق نشرعه، وإنما هو ضلال ضرب بيننا وبين أن نعي من الغيبوبة الشاملة، حتى فقدنا قدرتنا على التحرر مما نحن فيه، وانحراف حالَ بيننا وبين السلوك الصحيح بستار كثيف من الجهل المطبق والسياسة الخرقاء، وضغوط الأجيال المتعاقبة.

إن أدهى ما مُنِينا به اليوم هو هذا الهيام الذي ضرب بيننا بِجِرانه، وتلك الغيبوبة التي رسمت في كل مظاهر حياتنا آثار الاستسلام وعدم الثورة للحق، وإنكار المنكر الصريح. ثم إن أشد ما نعانيه تحت تأثير تلك الضغوط الجارفة التي استسلمناه لها ولم نفق بعد من دوارها، ذلك الاضطراب في الرأي والتنازع على الفكرة، وضياع النظرة الثاقبة. فلم تكد تصدمنا غوامض الحياة الأجنبية الطارئة وتنفعل في كياننا أدواء عصور الرقاد الطويلة، حتى فقدنا إزاءها كل رأي، وأضعنا فيها كل رشد، وهكذا أصبحنا لانأخذ من الأوضاع الحاضرة بسبب حتى تنفلت من أيدينا الأسباب الباقية.

أجل! هذه هي الحقيقة التي تفرض نفسها اليوم على كافة مجتمعنا، وفي شتى مرافقه. وإننا لو تدبرنا من أمرها وأمر أنفسنا، لرأينا أن أحوج ما نكون إليه الآن غاية تستقر عندها شتات آرائنا المتطايرة في الهواء، ونقطة تتركز حولها جهودنا المبعثرة، ووعينا المفقود. بل قل إنها الالتفاف حول فكرة صائبة تحل رموز حاضرنا، ونظرة ثاقبة تفتح ما استغلق من كنه وضعنا، حتى لَكأنها

قانون البيئة لا التقليد ونظام الوعي الذاتي في النهوض، حيث تنتظم شتى مرافق الحياة وغاياتها ووسائلها، وحيث تتجه المجهودات الفردية والجماعية على السواء لتنصَبَّ كالسيل الجُرُف، وتنطلق كالسهم المسدد إلى غاية كالشمس واضحة، وهدف كالحقيقة وهاجاً! عندئذ يكون المجتمع قد وحد جهوده وأهدافه وغاياته، توحيداً هو التوحيد الصحيح في اتجاهه إلى الله.. الغاية المثلى في الحياة، والمثل الأعلى للجهاد الإنساني.

فهذه الغاية التوحيدية هي خلاصة ما ترحي إليه أهداف المجتمع الإسلامي في صورته الصحيحة، وما تدور عليه حياة العرب الفطرية، حيث لاتجد النفوس من ضرورات المادة والاستغلال والطمع، مسوغات ومقتضيات للانحراف عن السلوك الصحيح والسعي وراء الخير الإنساني.

أما الآن فإذا كنا لانعلم - نهاية العلم - ونحن في غاية انخمارنا بأدواء مجتمعنا الحاضر ومفهوماته المتعددة المظاهر والصور، المتباينة الغايات والأهداف، ما إذا كنا سنبتعد أكثر فأكثر، أم سندنو شيئاً فشيئاً من تلك الحقيقة التوحيدية والغاية الإسلامية بصورها الواحدة في كل شيء، فإن هذا لن يغير شيئاً من قيمة ذلك القانون الإصلاحي الخالد، وما يقرره من أن مقدار ارتباط جهادنا القومي بحقيقته الإسلامية، سيكون له أكبر الأثر في تقرير مصيرنا المنتظر والاستدلال على اتجاهنا في النضال والسعي، ومبلغه من التوفيق أو الضلال.

صوت البحرين - فبراير ١٩٥١

الحضارة التي نريدها «١»

من أهم المشاكل التي يواجهها المسلمون اليوم، هي استجلاء موقف الإسلام من الأوضاع القادمة، وتحديد حكمه الصريح بالنسبة للنظم الحديثة، على ما تحمله هذه النظم بين طياتها من انحراف وتعسف. ولقد كان المفروض أن ينتهي التفكير الإسلامي المعاصر من مراحل التنظيم الأولية هذه، وهو في مستهل حركته بعد الخمول الذي لفه ليل الماضي الطويل، ليشرع في بناء كيان له خاص مستقل، يتمتع بخصائصه الإسلامية الأصيلة. تلك الخصائص التي لايمكن أن يقوم مجتمع إسلامي بدونها. ولكن عقدة الوضع الحاضر لاتزال - على ما يبدو - بعيدة عن الحل بمثل هذه السهولة المتصوَّرة، إذ ما تزال هذه المشكلة قائمة في كافة أرجاء المجتمع الإسلامي، ممثِّلة أشنع المآسي في تضليل الوعي، وتوزيع الجهود، وتوسيع شقة الخلاف والتناحر.

ويمكننا القول بصورة أخرى، إن علائم الحيرة، وسمات الشك والتردد، مازالت هي العامل المسيطر على كافة تصرفات المسلمين، فرادى وجماعات على السواء. وهذا وضع له خطورته، خصوصاً في هذه الفترة من تاريخ الأمم الإسلامية. فالنتيجة الطبيعية لمثل هذا الوضع، إنما هي إعداد التفكير لتقَبُّل كثير من الأخطاء والمغالطات التي يروجها أعداء الإسلام أو أتباعهم

المخدوعون، فتلَبَّس تلك المفهومات المضللة بحقائق الإسلام الأصيلة، وتشوه من مفهوماته الحية.

هذه المغالطات والأخطاء تتفاوت، ولاشك في مدى سيطرتها على تفكير المجتمع، كما أنها تختلف في درجتها من الخطورة، تبعاً لاختلاف مصادر كل منها قوةً أو ضعفاً. إلا أنها من حيث دلالتها على المجتمع الذي تسود فيه، ذات مظهرين:

أولهما: حينما يكون المجتمع عاجزاً، بفعل الوضع الفاسد الذي صار إليه، عن التمييز بين كافة الاتجاهات، والموازنة بين مختلف الآراء الإصلاحية التي يحاول انتهاجها. ففي هذه الحالة تتخذ الأخطاء مظهراً هو أقرب إلى السطحية في معالجة مشاكل الوضع القائم، والنظر إلى كل منها من زاوية ضيقة، ونظرة محدودة، لايلبث أن يرتد منها الطرْف حاسراً مذهولاً، لا يحل لغزاً، ولايكشف ستراً.

وثانيهما: حينما يصاب المجتمع بنوع من الذهول والشرود الفكري، نتيجة اصطدامه بأوضاع جديدة معقدة لم يُعِد لها عدة، ولم يحسب لها حساباً، وفي مثل هذا الوضع تتستر تلك المجموعة عن الأخطاء خلف حجاب من الإدعاءات الفارغة بالتنظيم الاجتماعي، وستار قاتم من برامج الدعوات الإصلاحية المتناقضة.

والمجتمع الإسلامي اليوم قد انقسم بفعل ذينك العاملين إلى معسكرين، يختلف كل منهما عن الآخر، في نظرته إلى المشكلة الإسلامية وفي أساليبه الإصلاحية، وطرق تفكيره. فالمعسكر الأول هو ما يسمونه اليوم «بالمعسكر

الرجعي» والذي يضم تلك الطبقة من دعاة الإصلاح الديني، الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وجعلوا من الإسلام مهنة تدر بالكسب الحرام، وسلماً للزعامة الكاذبة على أكتاف السذج والبسطاء. فهم يدعون باسم الإسلام تكسباً واحترافاً، لا تطوعاً أو إخلاصاً. ووجود هذه الطبقة ليس بالجديد في تاريخ الإسلام، فقد صحبوه طيلة عصوره المتأخرة، وبرعوا في التلون حسبما تقتضيه طرق التضليل، وظروف الاستغلال في كل عصر من العصور.

والمشكلة الإسلامية - كما يسميها هؤلاء - لاتتجاوز عندهم طائفة من القضايا الجزئية في المجتمع الإسلامي. وبالرغم من أنهم ما برحوا - منذ نكبة الإسلام بهم - يحملون على أكتافهم أدواء هذه المشكلة الإسلامية، كما يعرض التاجر سلعته، فإنهم مع كل ذلك لم يحلوا عقدة، ولم يجدوا للمأزق القاتم مخرجا. ولا عجب فبقاء الظروف السيئة، هو من مصلحتهم قبل كل شيء، وهم ينتظرون كل يوم أن تستجد في المجتمع الإسلامي مشكلة جديدة، يرتزقون وراءها عاماً آخراً. ولو نظرت إلى أبحاث هؤلاء في الإسلام، لوجدت أنهم لم ينتهوا فيها إلى الآن من الاتفاق على جزئيات المشاكل القائمة كالحجاب والسفور، أو الجدل حول نسبة الربا في الأرباح، إلى آخر هذه النقاط. وكأنهم قد انتهوا من إقامة المجتمع الإسلامي، وتحقيق الحكومة الإسلامية، ولم يبق عليهم إلا البحث في هذه القضايا واشباهها. لقد فات هؤلاء أن يعرفوا، أن تحديد رأي في هذه الشئون، يستلزم قبل كل شيء، الاتفاق على نوع هذه الحكومة الإسلامية التي ستطبق أحكام الإسلام. وكذلك فإن أمثال هذه المشاكل لايمكن النظر إلى كل منها على حدة. فقضايا المجتمع الإسلامي، مرتبطة تمام الارتباط بعضها مع البعض الآخر. فهل فكر هؤلاء، أولاً، في أسس

المجتمع الإسلامي المنشود؟ وهل تجاوزوا بأبصارهم حدود الحياة الضيقة التي يعيشونها ليسرحوها في آفاق المجتمعات الحديثة بأنظمتها المعقدة ومرافقها المتشابكة، وقيمها الاجتماعية المتعارضة، وأوضاعها الشاذة؟ إنهم لو حاولوا ذلك لوجدوا أنفسهم أمام مجهود جدي لا قِبَل لهم به، إنه يتطلب قبل كل شيء إيماناً راسخاً، وإخلاصاً في السعي، ونبراساً من العقيدة يضيء حوالِكَ هذا الوضع الشائك الذي تعقدت مرافقه، وتشابكت أسبابه. إن جهل معظم الدعاة الإسلاميين للوضع العالمي على حقيقته، بما في ذلك التعرف على أسس التنظيم الاجتماعي، ومصادر النشاط الاقتصادي بشطريه، العملي والإنتاجي، إلى غير ذلك من مرافق المجتمع الحديث وأساليبه، هو الذي أكسب آراءهم تلك الصفة من التصوير الخيالي، الذي لايلتفت إلى الواقع، ولايعالج من مشاكله شيئاً. ومن هنا كانت حاجتنا كبيرة وماسة إلى جهود أخرى إسلامية، تتناول المجتمع الحاضر من زاويته العملية، فتقيمه على الأسس التي يقرها الإسلام، وتضع بذلك حداً لعوامل الحيرة، ومصادر الشكوك التي تعم أرجاء الوطن الإسلامي، والتي ربما أدت به إلى أشد الكوارث، إنْ استمر في تخبُّطه على غير حذو واضح، أو مثال صحيح.

فالمشكلة الإسلامية اليوم هي أبعد مما تحاول هذه الطبقة تصويره. إنها مشكلة تقويض مدنية مادية ملحدة، وإنشاء حضارة إسلامية في محلها. إنها إقامة مجتمع إسلامي صحيح على أنقاض مجتمع متحلل زائف. (١)

---

(١) مما يبشر بالخير تفرغ نفر من الشباب المسلم لدراسة المجتمع الإسلامي على ضوء الوضع الحاضر، والمناداة بتكوين جبهة إسلامية تقف في وجه الكتلتين الغربية والشرقية الماديتين. وللأستاذ سيد قطب وغيره من الشباب، المؤمنين بعقيدتهم الإسلامية جهود يشكرون عليها في هذا السبيل.

تقي البحارنة

62
صوت البحرين

أما المعسكر الثاني، فيضم طائفة كبيرة من متعلمي المجتمع، أو أنصاف المتعلمين. وهي تلك الطبقة التي عَشَاها ما يسمونه «بنور المدنِيَّة» فجأة، فأفلت من يدها زمام السيطرة على توجيه ثقافتها الإسلامية في خضم الثقافات المائج. فهي تتخبط على غير هدى في غمار الفوضى الشاملة والبلبلة الفكرية السائدة.

إن السؤال الأول الذي يتردد على ألسنة هؤلاء، هو: «ما هو موقف الإسلام من مدنية الغرب؟» ثم لايكاد أحدهم ينتهي من التلفظ به حتى ينبري الجميع للإدلاء بدلائهم كلٌ حسب هواه. وجملة ما يُفهَم من آرائهم أنهم يقسِّمون مدنية الغرب إلى قسمين: خير وشر. ثم يدعون – دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير – إلى أخذ خير المدنية الحديثة دون شرها، وهناك قسم من هؤلاء يأخذ على النظام الإسلامي ما فيه من شدة، لاتناسب – على زعمهم – الظروف الحاضرة، ويدعو إلى استغلال ما يسمونه «بالمرونة الإسلامية» في مجاراة العصر، لتلائم ذوق المدنية الحاصرة. على أن جماعة آخرين ـ وقد بهرتهم بهارج المدنية، وحيَّرتهم نتائج العلوم المدهشة ـ يقطعون المسألة من وسطها، فيدعون إلى مجاراة المجتمع الغربي في كل شيء، ضاربين بالتقاليد الأخرى عرض الحائط. لأن الفصل بين عنصري الخير والشر مستحيل وغير عملي.

أما تقسيم الحضارة إلى خير وشر ـ نظرياً ـ فأمر صحيح لايمكن نكرانه. ولكن من هذا الذي يستطيع أن يفصل بين خير المدنية وشرها، وهما متلازمان؟ ثم من ذا الذي يقول بأن ما نسميه شراً من شرور المدنية، يسميه الغربيون كذلك؟ ولماذا لم يستطع الغربيون أن يتجنبوا شرور مدنيتهم، وهم أصحابها، وأولى من غيرهم بالاستفادة من خيرها، والحكم على تفاصيلها؟

والجواب على ذلك هو أن أصحاب هذا الرأي لاينظرون إلى الموضوع من زاويته

الصحيحة. فإذا كان تقبل المجتمع الغربي، بعلله وأوصابه، وبصورته المعروفة، رأياً غير صحيح، وإذا كان الاقتباس والترقيع، لاينتجان إلا وضعاً مشوهاً، وخليطاً متنافراً، فإن إنشاء مجتمع إسلامي، له خصائصه الإسلامية الأصيلة هو الرأي الأصح، والذي يجب أن نقرره بداهة. وإذا كان للمجتمع الغربي مثلاً، رأيه ـ الذي لايرضاه الإسلام – في نظام الأسرة، ومجال المرأة، وتنظيمه ـ الذي لايقره نظام الإسلام – في مرافق الاقتصاد والصناعة والإنتاج، وإذا كان للمجتمع الغربي كذلك سيرته في السياسة الاستعمارية، وأسلوبه في تضليل الوعي الثقافي، وإساءة استغلال ثمار العلوم، وإذا كانت كل هذه الصفات هي من خصائص المدنية الغربية؛ فإن للإسلام بالمِثل، وفي مقابل هذه الأشياء، رأيه الخاص في الأسرة، وتنظيمه للمرافق الاقتصادية وسياسته التحررية في الحكم، ونهجه القويم في الثقافة والاستفادة من ثمار العلوم لصالح الإنسانية، وخير العالم. إن المجتمع الإسلامي يجب أن ينهض على قوائمه وفراسنه كائناً مستقلاً، متحدياً حضارة هذا العالم الغربي التي تسير بالإنسانية إلى الشقاء والدمار، واضعاً إزاء كل سيئة من سيئات المدنية الحديثة، حسنة من حسنات النظام الإسلامي الخالد. والصفة الوحيدة لمثل هذا المجتمع أنه مجتمع «إسلامي» له نظامه الإسلامي الخاص في كل شيء. خرافة وشتان بين مجتمع كهذا وبين ما يريده دعاة خرافة الخير والشر من مجتمع ممسوخ متهالك، قصارى الجهود في بنائه، هي التقليد والاكتساب. وغاية الكمال فيه، أن يصبح مسخاً، مشوهاً، تنعكس عليه تلك الظلال الباهتة من صور المجتمعات الغربية.

إن مرافق المجتمع الحديث، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، بعضها مع بعض. ونحن إذا ما أردنا أن نأخذ أنفسنا بتقبل شكل معين من أشكال المجتمع الغربي،

فيجب علينا أن لاننسى، في الوقت نفسه، حقيقة ارتباط هذا الشكل الاجتماعي، الذي نظنه صالحاً، بالمرافق الاجتماعية الأخرى الواضح فسادها.

صوت البحرين - نوفمبر ١٩٥١

الحضارة التي نريدها «٢»

قلنا في العدد السابق أن الصدمة التي أحدثها طوفان الغرب الجارف، قد جعلت الشباب المعاصر في موقف مترجرج، تتجاذبه اتجاهات ثلاثة، تلتقي جميعها عند نقطة مشتركة: هي الدعوة إلى الاقتباس من مدنية الغرب. وقد حاولنا أن نجيب على عدد من شبهات الذين يدعون إلى ما يزعمونه من «خير المدنية»، محبذين هذا النوع من التقليد المعيب، والاقتباس المسموخ، وبينا أن هذا الرأي غير عملي، كما أنه يستحيل الفصل بين عناصر مدنية قد تلازمت أسبابها في المجتمع الغربي، واتحدت أهدافها لتحقيق رسالة تختلف تمام الاختلاف عن رسالة الإسلام. وتتنافى مع وجهه المجتمع الإسلامي وأهدافه.

وقد كان الجواب السابق نفسه، يتضمن في جوهرة، الرد على دعاة «المرونة» في الإسلام، الذين سبقت الإشارة إليهم في الحديث الماضي. وهم يرون أن حركة الإصلاح يجب أن تبدأ من الإسلام نفسه - أي من نصوصه وأحكامه، ومن تشريعاته وأنظمته. والذي يرمي إليه أصحاب هذا الرأي، هو أن الإسلام لن يكون صالحاً لمجاراة العصر الحاضر، ما لم يأخذ نفسه

بتقبل نظم الغرب السائدة كما هي، واستساغة أوضاعه الراهنة. وهذا رأي في غاية الخطأ ومنتهى التضليل. فالانسياق مع مقدمات هذا القول هو في حقيقته اعتقاد ضمني، بعدم صلاحية الإسلام لتنظيم مرافق الحياة الحديثة، وليس كما يتبجح به هؤلاء، من أنه وسيلة لاستغلال مرونة الأحكام الإسلامية. فذلك شيء آخر والفرق كبير جداً بين الاتجاهين.

إن تبعه الوضع الحاضر تقع على عاتق المسلمين وحدهم، إذ ليس للإسلام أن يتحمل شيئاً من مسئولية أتباعه، إذا هم قصروا في فهمه، أو فرطوا في تطبيقه، فهو كامل في ذاته، كما أنه حق، والحق ثابت أبد الدهر. لهذا فإن معنى المرونة في الإسلام لايمكن أن يشل مطلقاً، استيعاب أخطاء العصر، أو تقبلها، بأي شكل من الأشكال. وإنما هو في حقيقته - كما كررنا سابقاً - إقامة بناء إسلامي جديد، سالم من عوارض تلك الأخطاء والاستفادة من نصوص الشرع ومرونتها، في تنظيم هذا البناء الإسلامي. وهكذا تتطور بنا تلك المقدمة، إلى النتيجة الصحيحة، وهي كون جهود الإصلاح يجب أن ترمى قبل كل شيء، إلى صحيح موقف المسلمين من الإسلام، وفهمهم لحقيقته، ووجهة غاياته وأهدافه، حتى يتسنى لهم على ضوء الأهداف التي وعوها بإيمانهم واجتهادهم، تخطيط حدود المجتمع الإسلامي المنشود.

بقي علينا أن نجيب على الرأي الثالث الذي ينادي به إنصار المدنية الحديثة تحت تأثير نتائج العلوم والمخترعات.

الواقع أن أمثال هؤلاء الذين ينخدعون بمظاهر العلم الحديث في المدنية الغربية، يخلطون خلطاً شنيعاً بين عنصرين أساسيين يكونان معاً،

باتحادهما، المعنى المقصود من كلمة «المدنية»، هما: العلم والثقافة. فالرأي السائد لايفرق بين كل من العلم والثقافة إلا بمقدار يسير جداً. بل لعل الإغلبية الساحقة هم من الذين يظنون أن هاتين الكلمتين مرادفتان لمعنى واحد(١). ونحن إذا ما تتبعنا حدود كل من هاتين الكلمتين، فإننا نجد بينهما فرقاً كبيراً، ومعنى متمايزاً لايمكن تجاهله مطلقاً.

فنحن نريد بالعلم مجموعة حقائق ثابتة، استغلها الإنسان لمصلحته. ولهذا فإن من صفات العلم أن يكون واحداً بالنسبة لجميع الأمم. لأن مجال العلم، وهو الكون والطبيعة، واحد لايتغير. ولأن حقائق هذا الكون واحدة. ولقد أثبت تاريخ الإنسانية الطويل، أن العلم تراث إنساني، لايمكن بحال من الأحوال، أن يصبح غربياً ولا شرقياً. وإنما يكون لإحدى الأمم الفضل في التقدم به خطوات أوسع، والتطور به نحو نتائج أكثر فائدة. ومن صفات العلم كذلك أنه لايحمل طابعاً خاصاً ولايفترض له مجالاً معيناً، وإنما هو أداة قابلة للاتجاه، حسب رغبات وثقافة الفرد، أو الأمة التي تستغلها.

أما الثقافة فلها شأن آخر. إنها مجموعة صفات الأمة وطبائعها، وعاداتها، وأخلاقها المتوارثة. وهي على هذا الأساس، غير ثابتة. كما أنها غير مجردة ايضاً. بخلاف العلم. فنحن نرى من عدم ثباتها أن ثقافة كل

---

(١) من الخطأ المحض ما يتصوره عامة الناس من أن كلمة «المدنية» أو «الحضارة» يجب أن تكون مرادفة للرقي الإنساني، وازدهار الحياة البشرية، فهذا ليس شرطاً أساسياً. فهاتان الكلمتان لاترمزان إلا إلى درجة البشر من حيث الاستيطان، والأخذ بأسباب التحضر والاستقرار في «المدينة» أو «الحاضرة»، وهما منشأ اشتقاق الكلمتين. وعلى هذا الأساس تتفاوت درجات استفادة البشر من صفات التمدن، بمقدار ما يكون ذلك التمدن زائفاً شريراً، كما هو الآن، أو تمدناً رشيداً، يهدف إلى خير الإنسانية وسعادتها، كما هو في الإسلام.

أمة تتغير حسب البيئة والوسط الذي تعيش فيه. وهذا أمر واقع لا مجال لنكرانه. إذ به وحده تختلف طبائع كل أمة عن غيرها من الأمم الأخرى. وأما أنها غير مجردة، فلأن ثقافة كل أمة، هي مرآة لحقيقة أوضاعها، وعاداتها، وأخلاقها. ولأن محاولة اكتسابها، هي في نفس الوقت، محاولة للتشبث بأخلاق حملة هذه الثقافة، وتقَبُّل التوجيهات التي تنطوي عليها. ومن هنا يبدو لنا الفرق جلياً، واضحاً، بين حقيقة العلم الثابتة، ومعنى الثقافة النسبي. فقد يتفق شعبان، أو عدة شعوب، على استنتاج حقائق واحدة من حقائق العلوم، ولكن كل شعب لابد وأن يختلف في كيفية تطبيق تلك التجارب العلمية، والاستفادة منها على ضوء الحاجة المحلية.

ولذلك فقد يكون بين استغلال وآخر من الفرق، ما بين الخير والشر من مسافة. وأنت يمكنك أن تستعرض كافة الاختراعات والقوانين العلمية، لترى، أولاً، كيف أنها تتطور بتطور الحاجة إليها. وثانياً. كيف أنه يمكن استغلالها في سبيل خير الإنسانية وسعادتها، كما أنه من الممكن استغلالها في سبيل الشرور والتدمير. وما عليك إلا أن تغير من نوع هذه الثقافة التي تسيطر على توجيه حقائق العلوم، وتمتلك زمام استغلالها.

تلك هي جملة المعاني التي تحملها كلمة «المدنية». فهي مزيج من ثقافة خاصة، وحقائق علمية عامة. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتصور بسهولة قيام المجتمع الإسلامي الصحيح على دعائم أحدث النظريات العلمية، شريطة أن يكون استغلال ثمارها، خاضعاً لتوجيه الثقافة الإسلامية ولتحقيق مصلحة المجتمع الإسلامي ومقتضياته. وبهذا فإننا نكون قد تجاوزنا حدود تلك الفلسفة العقيمة التي تنادي بتقليد المجتمع الغربي،

واقتباس ما يمكن من خير هذه المدنية، مع محاولة تجنب الشر فيها. فهذا الرأي غير عملي. لأن أمر هذا الاختيار أن يصبح في أيدينا مادمنا نسعى إليه بنفسية الاكتساب والتقليد، بدلاً من عقلية الخلق والإبداع.

ولكي نتصور هذه الحقيقة جيداً، نأخذ مثلاً واحداً، ألا وهو نظام الأسرة في المجتمع الغربي. فهذا النظام، على عكس ما يبدو لأول وهلة، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام الاقتصادي في ذلك المجتمع. ففي نظام الأسرة نجد أن مجال المرأة يكاد يكون نقطة الخلاف الرئيسية بين وجهة النظر الغربية والإسلامية. فهل نظن أننا بالتزامنا نصوص الإسلام في تحديد مجال المرأة سنستطيع أن ننشىء مجتمعاً إسلامياً؟ كلا! فقبل أن نحاول ذلك، يجب علينا أن نغير كثيراً من الأوضاع الاقتصادية السائدة. تلك الأوضاع التي تربط المرأة بعجلاتها، وتجعل تغلغلها في المجتمع ضرورة لا مناص منها لتوليد القوة الشرائية التي تدور عليها وحدها عجلة الإنتاج الاقتصادي الهائل. ومن هنا تبدأ سلسلة من النتائج المتشابكة التي تدور مع بعضها البعض. فالمجتمع الغربي، بإقراره مبدأ الربا في الاقتصاد، يبيح بذلك فكرة الاستغلال بأوسع حدودها. وإذا أصبح مدار الجهود هو الربح لذاته، دون النظر إلى وسيلته، فإن حركة العمل والإنتاج، تتجاوز عندئذ حدود الحاجات الضرورية، إلى الإنتاج الكمالي توسعاً في طلب المزيد من الربح، وهذا النوع من الكماليات لابد وأن يحتاج إلى جهود شاقة لترويجه، تقوم على أساس استغلال سذاجة المستهلكين، وتحريك رغباتهم، وشهواتهم، بأساليب العرض والإغراء، والتفنن في الإعلانات، وتنظيم المعارض المختلفة. ومن الذي تتوافر فيه مؤهلات النهوض بأعباء هذه

الحملة الإعلانية؟ إنه «عنصر المرأة». وهكذا تبرز امرأة المجتمع السافرة المتبرجة، حقيقة لازمة الوجود في المجتمعات الغربية، لما يتمتع به عنصر المرأة من كافة صفات الإغراء، ومستلزمات الإعلان التجاري، الذي ينشده أصحاب رؤوس الأموال. ومن البديهي أن المرأة لن يتم لها ذلك الإغراء، ما لم يُبَح لها التبرج الفاضح، والاختلاط الإباحي، والتحكك بالمجتمع، وتوزيع النظرات الغَزِلة على الجمهور الذي أحاله أرباب الصناعات وأساطين الاقتصاد، إلى آلة شرائية عمياء بسحر المرأة، مبهورة بوسائل الدعاية والإعلان.

أما في المجتمع الإسلامي، فإن هذه الأغراض لا وجود لها مطلقاً. ذلك لأن تحريم الربا من أساسه، يعمل على الحد من غريزة الاستغلال المفرط، ويحاول بذلك حصر مجال الإنتاج في حدود المواد الضرورية، وتوزيعها توزيعاً عادلاً بين طبقات المجتمع. وعلى هذا الأساس فإنه لن تكون لأرباب هذه الصناعات - التي يكون الإنتاج فيها ذا صفة إنسانية تعاونية لا مجال فيها للجشع أو الاستغلال المفرط - حاجة ما للإسراف في اتخاذ وسائل العرض والإعلان للدرجة التي تُستخدَم فيها المرأة نفسها، فيتحطم من جرائها كيان الأسرة على صخرة الوضع الاقتصادي الشاذ، فإذا ما بقي للمرأة مجال خارجي بعد ذلك في المجتمع الإسلامي، فإنه سيكون منوطاً بتحقيق الأغراض الاجتماعية النبيلة، وقد وضع الإسلام حدوداً معينة تكفل السماح للمرأة بولوج هذا المجال الخارجي، حيث تكون هناك ضرورة مشروعة.

ذلك هو مثال بسيط، من أمثلة أخرى كثيرة، تبين لنا بجلاء كيف أنه

يستحيل الفصل بين أجزاء الحياة الغربية، وإقرار قسم منها أو تعديل الآخر، فهذا هو الترقيع بعينه، وإنما يجب أن يكون هدفنا متجهاً نحو بناء كيان إسلامي مستقل، له تنظيمه الخاص لمرافق المجتمع جميعها دونما استثناء.

ورُبَّ سائل يسأل: «وكيف سيتسنى لنا مثل هذا التحكيم في توجيه العلوم التجريبية على أسس الثقافة الإسلامية، أو تنظيم الحياة الاقتصادية بما يكفل بدوره تطبيق أحكام الإسلام في الأسرة والنواحي الأخرى، وما هي حدود هذه الثقافة.. ومن الذي سيقوم بذلك الانقلاب الشامل في الوضع الإسلامي المعاصر؟».

والجواب على ذلك، أن مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي، إنما هي رهينة بوعيه الشامل لهذه الحقائق الإسلامية. وهي النقطة التي يجب أن يثبت الإسلام فيها نفوذه وقوته. وإذا كان تخلي المجتمع الإسلامي عن مسايرة التطورات الزمنية طيلة عصور الانحلال الماضية، هو من أكبر أسباب تأخر المسلمين اليوم، فإن هذا لايبرر مطلقاً قبولهم لأوضاع الحياة الغربية كما هي وعلى أسوأ علاتها. فذلك هو الانتحار بعينه، والهزيمة ذاتها. إن مادة الثقافة الإسلامية موجودة بين أيدي المسلمين وأبصارهم، وما على ذوي الاجتهاد فيهم إلا أن يعملوا مخلصين في استنباط حدود هذه الثقافة، مستغلين تلك المادة الإسلامية التي لاتفني، مسترشدين بهدي القرآن، ومنار السنة، وآراء السلف الصالح. وواجب الأمم الإسلامية بعد ذلك، أن تضغط بإلحاح على حكوماتها القائمة، لتشجيع كل جه يرمي إلى إقرار حكم الإسلام الصحيح، وإزهاق أحكام البغي والباطل.

هكذا يمكننا أن نتصور حضارة الإسلام، وبمثل هذا التطور في موقفنا من استغلال ثمار العلوم، وتنظيم مرافق المجتمع، بما تستدعيه ثقافة الإسلام، يمكننا فقط أن نسعى في بناء مجتمع إسلامي يكفل العدل والرخاء، ويؤدي رسالة الإسلام والمدنية.

صوت البحرين - ديسمبر ١٩٥١

في الميزان

من الحقائق المقررة في تاريخ الأمم أن دلائل اليقظة فيها ما هي إلا صورة لما يختلج في نفوس أبنائها من شعور قومي وما تتصف به جهودهم من إخلاص ووطنية. ولقد أدركت كثير من الأمم - حتى أقلها مجداً وأحصرها تاريخاً - هذه الحقيقة فصرفت اهتمامها الشديد نحو «التوجيه القومي» محاوِلة إيجاد ذلك الرابط الروحي المتين بين أفرادها في ماضيهم وحاضرهم على السواء.

ومن الغريب حقاً أن تكون أجدر الأمم بهذا التوجيه القومي، أقلها سعياً إليه، وأثقلها خطى في سبيله، تلك هي الأمة العربية. فبالرغم من توفر عناصر التوجيه القومي في تاريخ الأمة العربية، فإن حمَلة الثقافة من أفرادها لم يجشموا أنفسهم بعد عناء النظر في حقائق التاريخ العربي الذي عبثت به الأيدي وطمست الكثير من حقائقه أهواء المغرضين، اللهم إلا في الشيء اليسير والنزر القليل جداً، ولعل كتابنا «الفتوة عند العرب» والذي نحن بصدد التعريف به على صفحات هذه المجلة هو من بين تلك الجهود الفردية التي ما يزال يبذلها الشباب العربي المتيقظ في هذا السبيل وهكذا. فإن يداً واحدة قد امتدت إلى إطمار ذلك التاريخ المظلم، الذي تراكم عليه غبار السنين والأعوام،

واستطاعت أن تجلو الشيء الكثير من صفحاته النابضة بالحياة والمثل العالية.

مؤلف الكتاب هو الأستاذ «عمر الدسوقي» الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول، وهو يعرفنا بكتابه في المقدمة فيقول إن الغاية من عمله هي تعريف الشباب العربي المعاصر، بتاريخه على حقيقته، وتقديم بعض صفحات مشرقة من سيرة الآباء، تفيض بالخير والسخاء، والخصال العربية الكريمة، علَّ أن تستفيد منها الأمة العربية اليوم، في كفاحها المرير مع عِداتها الغادرين. ثم يتناول المؤلف ظاهرة عزوف معظم الشباب الحاضر عن الأدب العربي مع عظمته وقوته وصفائه، إلى الآداب الأخرى التي هي «نتاج بيئة غير بيئتنا، ومجتمع قد كثرت علله وأوصابه، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه، ونخرت فيه الآفات التي تصيب الأمم المترفة المتكالبة على المادة. أدب ولَّده الاضطراب النفسي، والكبت والحرمان والضيق والظلمة، ظلمة الجو وظلمة الحياة».

والآن لنلق نظرة عجلى على أبواب الكتاب ومواضيعه:

ينقسم الكتاب من حيث تبويبه إلى مقدمة تعقبها فصول تسعة، يتناول المؤلف في الفصل الأول - وهو أصغرها - تحديد معنى كلمة «الفتوة» في اللغة وأنها من الفتاء، وهو الشباب والقوة الجسمية. ثم يتتبع تطور معنى هذه الكلمة عند العرب في استعارتهم إياها للتعبير عن القوة المعنوية، كالحرية والكرم إلى غيرها من صفات الرجولة الكاملة. وبعد هذا الفصل ينتقل إلى موضوع القوة عند العرب، وهو من أمتع فصول الكتاب. يبحث عن نشأة القوة وأثر الطبيعة العربية في الحواس وأثر الصحراء في تكوين العرب الجسماني والعقلي. ثم يتناول بالتحليل الصفات الخلقية واحدة بعد أخرى فيعرضها بأسلوب واضح، بسيط، حافل بالنماذج الحية. وهو يرى أن هذه الطبيعة العربية في البادية قد

انعكست على نفس العربي قوة، وصرامة، وجلَداً. وإن الفتوة عند العرب نشأت نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة، التي فرضت على العرب أخلاقاً خاصة، وألزمتهم بتقاليد لايستطيعون عنها حِوَلا، صارت لهم على ممر السنين جِبِلَّة وطبيعة وفطرة، وصارت لهم عنواناً بين العالِمين. ويتابع المؤلف رأيه، فيشرح بجلاء كيف أن الحواس التي تصقلها عوامل البيئة في الصحراء، تؤثر بدورها في سلامة التفكير، وقوة العقل «فسعة المجال في الصحراء أمام حواس الإنسان، ضرورية لتربية هذه الحواس. والحواس السليمة النامية تؤدي إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية، وأدائها أداء منتظماً لا اضطراب فيه. كما تؤدي إلى وجو عقل سليم، وحكم صحيح، وحياة معتدلة».

وهكذا يقرر المؤلف «قانوناً» له خطورته وقيمته في مجال الدراسات الاجتماعية، والتوجيهات القومية على السواء.

والفصل الثالث من الكتاب يدرس فيه المؤلف الفتوة في الإسلام، ويلخص موقف الإسلام من الفتوة، والأخلاق العربية بأنه - أي الإسلام - جاء ليكمل تلك الصفات عند العرب ويوجهها لخدمة صالح الجماعة الإسلامية. وقيمة هذا البحث تتجلى فيما ينطوي عليه من توجيهات قيمة في تعليل موقف العرب من الإسلام، والحقائق التي ينطوي عليها، مما استعصى فهمه على الكثيرين من كُتَّاب التاريخ، الأوائل منهم والمحدثين.

يقف المؤلف عند سر اختيار الله العرب للإسلام، فلاتفوته الأدلة لإثبات أن اختيار الله الأمة العربية لتأدية تلك الرسالة، إنما كان لأن العرب قد تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجايا وعُرْف كريم. ولأنهم خير من يفهمها ويستجيب

لها ويعمل بها. وينقل إلى الناس كافة في جد ودأب وتواضع ومرحمة. فيعارض بذلك اتجاه جمهور السذج والمغرضين إلى الحط من قدر العرب الجاهليين وطمس جميع ما لهم من خصال حميدة في مجال الحديث عن فضل الإسلام الذي كانوا هم مادته، ولسان الدعوة إليه. لقد جاء الإسلام منظِّماً للجماعة العربية، وموجِّهاً تلك الأصول الأخلاقية فيها، وجهتها الصحيحة، دونما جهل أو إسراف، ينفيان المصلحة منها. فالفرق بين رشد العقل الجاهلي، ورشد العقل الإسلامي، هو فرق بين نتيجة العزلة بالبداوة، والاكتفاء بوعي شئون العرب وحدهم، وبين الوسع الذي يشمل نظر العرب في موقفهم من العالم المحيط بهم، وبخاصة إذا أوشك أن يطغى عليهم فيهلك فضائلهم. وعلى هذا الأساس وحده نهض الخلاف بين الجاهليين والإسلاميين وسرعان ما انتهى بالتآلف على التقوى.

ويعقد المؤلف بعد ذلك فصلاً خاصاً يتناول فيه صفات الفتوة عند الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم، تعقبه دراسة مفصلة لرجالات الإسلام البارزين. ومن أطرف ما في هذا الفصل حوادث رواها المؤلف عن الرسول في حداثة سِنّه، تُظهِر ميله للفروسية والفتوة، وما يؤثر عنه من تشجيعه لهما. ومن المواضيع الأخرى في الكتاب فصل يبحث عن الفتوة عند المتصوفين. وفيه يُظهِر المؤلف مدى انحراف معنى الفتوة عند هذه الفئة عن معناها العربي الصحيح. ويبدو لي أن رغبة المؤلف في تتبع الفتوة، وما يتعلق بها على كافة مظاهرها، وميله لاستخراج «تاريخ» لها منفرد، قد دفعه إلى التوسع في تعميم مدلولها على جمهور المتصوفين. وإنْ كان هذا المدلول «قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسخاً وأخرجها عن معناها الصحيح» كما يقرر المؤلف نفسه.

ويلي هذا الفصل بحث شيق عن فتوة من طراز آخر «ارستقراطي» هي فتوة «المترفين» وهم بالطبع لايمتُّون إلى مَن قبلهم بصلة، من حيث إنهم ليسوا من عامة الشعب وسواد الناس، ولأنهم كانوا من أصحاب الثراء والجاه والسلطان، ويتزعم هذه الطبقة «الناصر لدين الله»، وميزة هذا الفصل أنه يصف كثيراً من أنواع الرياضات الممتعة بالطرد والفراسة والرماية إلى غير ذلك.

وبعد أن ينتهي المؤلف من فتوة المترفين يعقد فصلاً خاصاً يقارن فيه بين فتوة العرب وفروسية الغرب، وينتهي إلى أن فروسية الغرب لم تكن في البدء إلا صورة واضحة كاملة من مآثم النبلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم واستعبادهم للشعب، وأن الفروسية الغربية قد تطورت بعد ذلك إلى شيء من سماح العقل والصفات الإنسانية بتأثير الفتوة العربية فيها. ولكن هذه الصفات الإنسانية ما لبثت أن تلاشت منها، بعد زوال النفوذ العربي من أوروبا، وبعدما صارت حضارة الغرب مادية لاتؤمن بغير الحديد والنار والقهر والغلبة والجشع والطمع واستعباد الشعوب واستنزاف دمائها.

إلى هنا ينتهي المؤلف من أهم أجزاء الكتاب، ولكن ميله إلى الإكثار من الشواهد والأمثلة حا به إلى أن يخصص القسم الأخير، لعرض نماذج مختلفة من «قصص العرب» تبلغ الثمان، وهي نماذج حية من التاريخ العربي القديم، حافلة بالمثل الأخلاقية النبيلة.

من هذا الاستعراض السريع لمواضيع الكتاب تتبين لنا ضخامة المجهود الذي يبذله المؤلف في كتابه الذي يتجاوز الـ ٤٥٠ صفحة. فهو بالإضافة إلى أنه جديد في موضوعه سجل حافل بأحاديث الفروسية والمثل الأخلاقية وقد نفخ فيها المؤلف من روحه وطعَّمها بتوجيهاته السديدة. وإذا كان المؤلف لايكتم

القارئ المصادر التي اعتمد عليها، أو التي استمد منها الكثير من آرائه إلا أن الميزة التي يختص بها وحده، هي تبسيطه لتلك الآراء بأسلوب سهل بعيد عن ضجيج الجدل وأساليبه المعقدة، وحسبه من ذلك أن يضع بين أيدينا النموذج التاريخي، ويضرب لنا المثل الأخلاقية، لنستنتج بأنفسنا ما ينطوي عليه كل ذلك من حقائق بعيدة وتوجيهات سديدة.

على أن للكتاب بعد ذلك ميزة أخرى تتمثل في نظرته للتاريخ من زاوية أخرى جديدة، تُظهِر لذلك التاريخ وجهاً أكثر إشراقاً بالحياة والجمال، من ذلك المظهر السياسي المظلم الذي درج معظم المؤرخين على حصر جهودهم في مجال التنقيب فيه، مهملين الجوانب الأخرى من المجتمع الإسلامي. وهذه النظرة قد تكون أكثر أهمية وأعظم نفعاً بالنسبة إلى تهيئة ثقافة النشء العربية الإسلامية، وإنْ كانت بالنسبة للتحريات التاريخية المجردة لاتخلو من تصوير مبالَغ في مثاليته. فنحن لسنا محتاجين - كما احتاج غيرنا - أن نتخذ من رجالاتنا السابقين «آلهة»، متجاهلين طبيعة البشر وقانون الحياة. ولعل أكثر ما يُخشى من ذلك، هو أنه قد يؤدي إلى نزع جانب الأسوة المتوخاة، والقدوة المرجوة، من غرض سير تلك الشخصيات التاريخية.

على أن لدينا مع ذلك بعض المآخذ الطفيفة لابأس من الإشارة إليها ولو من بعيد لإتمام البحث. وأول ما نلاحظه هو كثرة استشهاد المؤلف بآراء المستشرقين. إنه قد يكون هناك ما يبرر الاستشهاد بآراء الأجانب في مجال التحقيق العلمي المجرد، أما بالنسبة إلى القيم الاجتماعية والخلقية فإن من الخطأ الاسترسال في التمَسُّح بآراء هؤلاء المستشرقين حتى ولو بدا من كلامهم ما يشبه الإنصاف. فنحن نعلم أن المقياس الخلقي أو الروحي هو

مقياس نسبي بين أمم العالم، يستمد قوته في الغالب من قوة تمسك الأمة به، ومحافظتها عليه، الأمر الذي يرغم الغير على احترامه وتقديره. وبالرغم من أن النصوص التي استشهد بها المؤلف لهؤلاء، قد جاءت في مجال إنصاف العرب، فقد وقع ما كنا ننتظره، ففي عدة مواضع من الكتاب لايسع المرء إلا أن يبدي إشفاقه من تلك العقلية الغربية حينما يقدر لها أن تحكم بأسلوبها الخاص على مثلنا الأخلاقية، أو تنظر فيها بموازينها. فمن ذلك ما نقله المؤلف «ص ١٦٥» «عن قيطاني» ما نصه:

«إن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل». فإذا عرفنا أن المؤلف ساق هذا النص في بحث له عن إثبات استعداد العرب الفطري للإسلام، أدركنا أن المؤلف قد ناقض نفسه بإيراده كلام «قيطاني» هذا الذي إنْ دل على شيء فإنما يدل على مدى جهله بمثل الحياة عند العرب وعاداتهم.

أما «فلوريمان» و«سيسموندي» فلهما كلام غريب عن منزلة المرأة عند العرب. ولا أدري كيف أجاز المؤلف لنفسه أن يستشهد به رغم ما فيه من زيغ ظاهر. تأمل قول «فلوريان» «من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ولكي يسطعوا أمام أعينهم «يريد أعينهن» سعوا في سبيل الثراء حتى يقدموا لهن أغلى ما يملكون من مال وحياة». فالسعي وراء المجد عند العرب إنما الغاية منه أن «يسطعوا» على حد تعبير «فلوريان» - أمام النساء، ولو تطَلَّب منهم ذلك التشبه باليهود في طلب الثراء والمال! أما «سيسموندي» فهو يرى أن الحجاب للنساء المسلمات «هيكل يعبرن فيه»، ثم يكرر كلمة «العبادة» على نحو ما يناقض

معالم الإسلام صراحة وإنْ كان يتفق بالطبع مع التقاليد الوثنية في العالم الغربي الذي يجهل كلمة الإسلام من وراء الحجاب وفي الصيانة وحفظ العرض.

أما أسلوب المؤلف فقد أشرنا من قبل إلى أن من ميزات الكتاب سهولة أسلوبه وتبسيطه للآراء، على أن الملاحَظ أن المؤلف قد أسهب في بعض المواضع إسهاباً يقطع حبل التفكير على القارئ المسترسل ويدعو إلى الملل، لما فيه من تكرار وإعادة، هي أقرب إلى أسلوب الكتب المدرسية.

ومن الملاحظات الأخرى على بحث المؤلف أنه وقف بتاريخ الفتوة العربية عند القرن الخامس، أي عند انحلال الزعامة العربية في كيان الدول الإسلامية، ثم وجه دراسته بعد ذلك على أسلوب الكثيرين من الكتاب والمؤرخين، شطر الخليط المتحلل، بينما كنا نود أن يستمر في تتبعه لتاريخ الفتوة ونماذجها في حياة أبنائها الأصليين التي هي امتداد للحياة العربية الصحيحة في الأخلاق والعادات، ولو أنه فعل لأخرج لنا سلسلة تُكمَل بها حلقات التاريخ العربي المفقودة في هذا العصر. على أن تلك المآخذ الطفيفة لاتُنقِص بالطبع شيئا من قيمة الكتاب، وحسْبُ المؤلف أن يحقق عملاً قومياً لم يتيسر للكثيرين غيره من دعاة القومية بلغة الأقوال والادعاءات المجردة عن العمل.

صوت البحرين - يونيو ١٩٥٢

مملكة النفس..

لكل إنسان في هذا الوجود مملكتان تتنازعان توجيهه، وتتشاطران تسيير دفته في معترك الحياة الصاخب وبين أمواجها المتلاطمة.

فالمملكة الأولى هي ذلك المحيط الخارجي الذي يكتنف المرء فيتقاذفه بين مده وجزره ويتناوب عليه بخيره وشره. وأما الأخرى فهي هذه النفس التي يخفق بها ضمير الإنسان وما تحمله بين طياتها من معاني الحياة النابضة بالإيمان، الزاخرة بالمثل العالية والأخلاق الكريمة.

وإذا كان مما يسعى إليه كل فرد أن يوفق لبلوغ غايته وتأدية رسالته في هذه الحياة، فإن من أولى مستلزمات هذا التوفيق أن تكون كافة تصرفاته الخارجية، صادرة عن إيماء سليم من فطرته، وخاضعة لتوجيه سديد من رأيه وتدبيره. وهكذا تكون السيطرة الفعلية لمملكة النفس، فهي التي تملي عليه تصرفاته الخارجية وتحدد له موقفه من شئون مجتمعه وأمور معاشه.

ولمملكة النفس هذه عرش لاتعْدِله في سموه ورفعته تلك العروش الزائفة التي أقامها البشر فيما بينهم على أكتاف بعضهم البعض رمزاً للسيادة والسلطان،

أو على أكداس الذهب والفضة عنواناً للترف والثراء، أو في ساحات المعارك والحرب شعاراً للغلبة والانتصار. فهو عرش يستقر - في نفس الإنسان - هادئاً بين حنايا الضلوع، لاتمتد إليه الأيدي ولاتنال منه الخُطُوب. ويظل كذلك - في الضمائر الحرة الأبية - حتى يقضي الله لهذه النفس مصيرها المحتوم وأجلها المعلوم.

إنه ليس أيسر على أي إنسان في هذه الحياة إذا ما تسلح بشيء من القوة المادية أن يسطو على إنسان آخر من جنسه فيبتزه مُلكَه أو ينتزع منه ملبسه وقوته. ولكنه لن يستطيع بحال من الأحوال ن يمد إلى تلك المملكة العجيبة المحصنة - مملكة النفس - لينتزع منها بالقوة الشعور بكراهيته والتصميم على الانتقام منه واسترداد ما اغتصبه في أول فرصة سانحة. ولولا ذلك لأَمِنَ كل غاصب مغبة فعلته، واطمأن كل ظالم إلى عاقبة ظلمه وشناعة جرمة.

تلك هي حال النفوس على سجيتها الأولى وفطرتها النقية يزكو بها عنصر الكرامة ويسمو بها شرف الأخلاق.

ولكننا - والحياة زاخرة بالعجائب - لاتزال نجد من أشباه البشر أناساً يسلبهم القوى برضاهم، ويبتزهم على مسمعهم ومرآهم. بل إننا مازلنا نشهد في كافة المجتمعات حولنا جيوشاً جرارة من المسلمين تضحك في آزفة هلاكها وتختال مرحة حالمة على أشلائها وبقايا حطامها الآدمي. وتلك لعَمري هي الكارثة وذلك هو الغزو الساحق المدمر. الغزو الذي ينفذ إلى ضمير الإنسان فيستقر منه على موضع النزاهة ويستشري في دمه وأوصاله على حساب الكرامة والأخلاق. عندئذ فقط ينقطع الأمل، اللهم إلا أن يقيض الله لهذه النفس من جديد من يزيل عنها أثر ذلك الخدر الذي استسلمت لمفعوله وخمار

الإيحاء المضلل الذي استرسلت في غمرته لاهية ساهية.

ونحن لو فكرنا ملياً في وسائل ذلك الغزو، وللطرق التي تم بها، لاكتشفنا من أمرها عجباً، رغم عنصر البداهة وبساطة التعليل.

فيجيء استغلال نفوذ المرأة وسلطان المال في طليعة الوسائل التي يلجأ إليها الغزاة لاقتحام مملكة النفس وتحطيم قيمتها ومعنوياتها. وحينما يتم تخدير الشعوب على أنغام الشهوات تتيسر استمالة النفوس الصعبة، ويسهل القضاء على عناصر المقاومة فيها. ونتلفت من حولنا فنجد - ويا لهول ما نجد - عدداً لايحصى ممن يروج لهذا الاحتلال الناعم، ويمَكِّن له باسم الفن أو بغيره من المسميات، وقد التفت حوله جيوش جرارة من المائعين المتحللين تلتهم بنهم عجيب ما يلقيه أولئك الصُّنَّاع من أدب تافه ونتاج رخيص.

وثمة نوع آخر من أسلحة الاستعمار يستطيع به الغزاة محاصرة الوعي الثقافي والقضاء عليه. وبهذا النوع من الاستعمار الثقافي تتيسر للأجنبي السيطرة على توجيه الأفكار والمثل العليا، وتسييرها وفق خطط مرسومة وبرامج معينة تزعزع الثقة من النفوس وتطبعها على الاستسلام.

ثم ما تزال مدارس الاستعمار تُخَرِّج في كل آونة فوجاً جديداً ممن يتنكر لدينه، وأمته، ووطنه، ومثله وأخلاقه، حتى يمتلئ بهم المجتمع، يحملون معهم أني ساروا أدب الاستعمار وثقافته.

وهكذا قُدِّر لمجتمعاتنا أن تألف مناظر الجموع الزاخرة من طلائع النشء أو متوسطي الثقافة وهي خاشعة إلى صنم من أصنام الفكر المدسوس أو تطوف حول وثن من أوثان الأدب المسموم، ومن وراء كل هؤلاء قلة تلتمس الفكر القويم

والأدب الصميم، فلاتكاد تجد من أثرهما شيئاً. على أنه ليس مما يهم الاستعمار كثيراً أن يتم للمجتمع تناول تلك الجرعة الثقافية المسمومة، عن طريق الدعاية السافرة، أو الإيعاز الكامن المستتر، طالما كان الجميع يؤدون إلى غرض واحد. ولقد استُغِل التبشير إلى الدين نفسه في هذا السبيل، ولاتزال تقوم اليوم في كافة أرجاء المجتمع العربي عشرات من المؤسسات ومئات من الأقلام «المرموقة» تمكن لهذا الغزو تحت ستار من «البرامج الثقافية»، أو الأدب الإنساني، و الدعوة العالمية، أو ما شاء لهم المستغلون من أسماء وعناوين.

لست أحصي هنا وسائل الغزو النفسي وطرق التضليل. وحسبي أنني أشرت إلى مصدرين كبيرين في الأخلاق والثقافة تؤتي من قبلهما النفوس، فيسلس قيادها وتلين قناتها ويصبح من جراء ذلك المرء وهو يعاني من قرارة نفسه استعماراً معنوياً يأخذ عليه جِماع عقله، ويسد عليه منافذ الإحساس ويقظة الضمير، وبمثل ذلك يصير الإنسان السوي آلة مسخرة وبشراً ممسوخاً.

صوت البحرين ـ مارس وأبريل ١٩٥٣

الإسلام قول وعمل

حينما أخذت القلم لأكتب في هذه المناسبة، بدأت اتفحص جوانب «المشكلة الإسلامية» التي تثيرها في هذا العصر أقلام الكُتَّاب ويتفنن في إبرازها الدعاة الإسلاميون، علني أجد فيها منفذاً للقول أو أعثر بين ركامها على مادة تصلح لإرسال الحديث على النحو المألوف في هذه الاجتماعات التي نحتفل فيها بذكرى إسلامية جليلة. وكان مما أثار انتباهي بصورة خاصة، وأنا اتطلع عن كثب إلى ذلك الركام من الأقوال والأحاديث التي تدور حول قضايا الإسلام في السياسة والحكم والاجتماع والعلم، ما لاحظته من أن هذه المشكلة الإسلامية التي تضَخَّم بها رأس المجتمع الإسلامي منذ أن فقد سيطرته في العالم، هذه المشكلة لا وجود لها على الإطلاق.

وكنت كلما أردت أن أدير القول حول ناحية من نواحي الدين الإسلامي الحنيف وجدتُني أنتقل بصورة آلية للحديث عن المسلمين أنفسهم، في موقفهم من الإسلام ووعيهم لمبادئه وتطبيقهم لنصوصه وأحكامه. وهذه حقيقة واضحة بسيطة لولا أن جمهور المسلمين قد تجاهلوها أو درجوا على تجاهلها، فوصفوا الإسلام بأدواء أنفسهم، وأحاطوه بمخازي أطماعهم، وطمسوا معالمه

في حياتهم، ثم تنادَوا فزعين يتوهمون أن في الإسلام «مشكلة» تعوقه عن السير، أو علة تقف به دون التطور. وكأنهم في تظاهرهم هذا بالإشفاق على مستقبل الإسلام والخوف عليه من التخلف عن ركب الحضارة والعلم، يجهلون أن حقائق الإسلام الثابتة لايمكن أن تتغير كما لايمكن لأية حقيقة ثابتة أو سنة مُحكمة في هذا الكون أن تتبدل أو تتغير، وأن أحكامه وقوانينه ومبادئه وتشريعاته لايمكن أن تخرج بحال من الأحوال عن مجال الحكمة الإلهية الثابتة في تنظيمها، لتساير رغبات البشر إذا كانت تلك الرغبات خارجة عن نطاقها المشروع في دين الله، أو تماشي تيار حضارة وعلم يتحدى كل منهما حكم الإسلام أو ينافي شريعة القرآن. نعم، يفهم الإسلام أن تتحرر النفوس المريضة من ربقة الجهل وتتجرد العقول من خزعبلات الباطل فتجيل النظر بالعين المبصرة الواعية في آيات الله البينات تستخلص منها الحكمة وتستمد منها النور والإيمان. وهكذا يحتم الإسلام أن تكون جميع التشريعات مستمدة من روحه، فليس من الإسلام في شيء، أن يدخل الإسلامَ شيءٌ من باطل العصر، أو تساور أحكامه نزوة من رغبات النفس المريضة. وبالمثل فإن الإسلام لايسمح أن يؤخذ تجزئة أو أقساطاً، فهو نظام يشمل الحياة الإنسانية بجميع مرافقها، فيقيمها على دعائم من الإيمان الراسخ ويسيرها وفق نظام شامل دقيق.

قلت في أول حديثي أن المشكلة هي مشكلة المسلمين لا مشكلة الإسلام، وأود أن أضيف أيضاً أن مشاكل الحضارة ومخازي الحياة السائدة هي ليست من مشاكل الإسلام ولا من قضاياه. والذين يحاولون أن يحَمِّلوا الإسلام تهمة العجز عن معالجة مشاكل المدنية وقضايا الاجتماع وغيرها كما هي منتشرة

اليوم، عليهم أن يثبتوا أولاً إذا كان شيء من هذه المشاكل التي يجاهدونها ناشئاً عن تطبيق نظام الإسلام الصحيح، حتى يصبح مسئولاً عنها مطالباً باقناع الناس حول وجهة نظره فيها، بعد أن انفضوا عنه إلى طواغيتهم فارتضوا غيره حكماً واتخذوا سواه بديلاً. إنهم يحبسون الإسلام في زنزانة ضيقة من معقولاتهم لاتتجاوز بضعة أركان هي من الدين بعضه لا كله، ثم يضَيِّقون عليه الخناق في دائرة سلبية من حياتهم لاتتجاوز عدة طقوس أو مجموعة مراسيم يؤدونها مكرهين ويأتونها متثاقلين. أو هل ينتظر هؤلاء العاجزون المقعدون من الإسلام وهو الحبيس بين جدرانهم أن يحقق لهم المعجزة، فيمهد لهم نعيم الحياة أو يستخلفهم في الأرض أو يُصَرِّفهم في شئونها؟

سادتي:

لقد بات من الحقائق الواضحة أن سعي المسلمين الإيجابي نحو بناء مجتمع إسلامي سليم أمر لا مفر منه، ولابد من تحقيقه إذا ما أرادوا الحياة أو طمعوا في نيل العزة والكرامة. فما هو هذا السعي يا ترى وكيف يكون؟

إن الفئة الغالبة من الناس لاتزال تتصور أن حال المسلمين بخير مادام فيهم من يدعو إلى التمسك بالإسلام ويتمنى النصر للمسلمين بعد كل صلاة أو في شتى المناسبات السانحة، وهذا هو مصدر الخطأ الأكبر في حياتنا. ذلك لأن كثيراً من هؤلاء يحسبون أنهم يحسنون صنعاً بتزيين الخير للناس وهم يبتعدون عنه، وتحبيب الإيمان إلى القلوب مع خلوهم منه، ثم هم يصبحون بعد ذلك أسوة سيئة لغيرهم فيستسلم المجتمع لداء النفاق وتستنيم الجماهير لخدر الأمنيات وإغفاءة الذكريات.

لذلك، لا أبالغ إذا قلت إن السعي الإيجابي يجب أن يبدأ من هنا.. من ضمير الفرد المسلم أولاً، وإن المعركة هي معركة النفس قبل شيء، وإن كل تقدم يبدو بعيد الاحتمال، ما لم تظهر في المجتمع الإسلامي تلك الطائفة من الدعاة الذين يُحسِنون فهم الإسلام قولاً وعملاً، ويضربون لغيرهم المثل الصادق في صلابة الإيمان والتفاني في العقيدة، والتضحية من أجل الواجب ابتغاء مرضاة الله، دون التماس أجر أو انتظار كسب. والله عز وجل يقول ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. نريد رجالاً كتلك البقية الصالحة لتي وصفها الخليفة عمر بن عبدالعزيز بقوله: «ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظلمتها ولم يشايعوا أهلها على شبهتها، مصابيح النور في أفواههم تزهو، وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا نهج السبيل وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم وبهم يُصلِح الله البلاد ويدفع عن العباد».

هكذا بدأ الإسلام وبدأت قبله جميع الأديان: آحاداً عظاماً وأفراداً كراماً، أقاموا نفوسهم على النهج القويم وربطوا إبراراً على قلوبهم ثم جابهوا الباطل فهزموه بقوة إيمانهم، وطهروا الأرض من رجس الأوثان ودولة البهتان، ونحن اليوم نستقصي جوانب حياتنا فلانجد فيها ما يدل على تمكسنا بحقيقة الإسلام قولاً وعملاً، أو اقتدائنا بسيرة رجالاته المؤمنين الزاخرة بالبطولة والمليئة بالتضحيات، ولكننا مع كل هذا التخلف المريع في مضمار الحياة الحرة الكريمة لانزال نتشبث بالمظاهر، وقد استعضنا عن اتباع سبيل الصالحين قبلنا، بتعداد مآثرهم والترحم على سيرتهم كلما حانت مناسبة للقول أو سنح مجال للخطابة، حتى لَيتصور أحدنا وهو في نشوة من ذكرى الماضي أنه لايزال

يجري في نفس الميدان الذي جرى فيه مَن كان قبله، وما هي إلا لحظات معدودات حتى ينتهي ميدان الخطابة لينكفئ كل فرد خفيف الظل سريع الحركة إلى حيث يأخذ موضعه من عجلة المجتمع الدائرة ويتوارى بعيداً عن الأنظار. إن سيرة الرسول الكريم التي يجب أن تظل شاخصة أمام كل مسلم طيلة أوقاته، لاتُذكَر عندنا إلا بالمناسبة في معراج أو مولد أو عيد، أما في سائر أيامنا وفي غمرة حياتنا فإننا نضع سيرة الرسول على الرف، أو نفرد لها ركناً بعيداً عن نطاق تفكيرنا ودائرة أعمالنا.

في مفهوم البرامج الإصلاحية الهزيلة، وفي عرف المجاملات التي حجبت عن أعيننا صراحة الحق، إننا نؤدي واجباً كبيراً ونقدم للإسلام خدمة جُلَّى بمجرد تنظيم الاحتفالات بالمناسبات الإسلامية، أما في حكم الحق والواقع فاسمحوا لي أيها السادة أن أقول إننا لانعمل شيئاً، وما إقامة الاحتفالات على هذا النحو الرتيب وبهذا الشكل الباهت إلا مظهر آخر من مظاهر الفراغ الذي نحسه والحيرة التي نتقلب فيها. ألا فلنسأل أنفسنا بعد هذه السنوات الطويلة عن رصيدنا من الإصلاح الذي ننشده والغاية التي نسعى إليها.

لا أخالني بحاجة إلى أن أجيب أن مجتمعنا لايزال يتردى من سيء إلى أسوأ بل أخشى أن أقول إن عوامل النكسة الأولى في تاريخنا المظلم لَتوشك اليوم أن تكتمل أسبابها لترجع بنا قروناً إلى الوراء، ولايعلم إلا الله أي مصير تعِس سوف يكون بانتظارنا هناك.

إن بوسع كل منا، بل إن بوسعنا جميعاً أن نعمل كثيراً لتدارك الحال ودرء الخطر، إذا ما أردنا لأنفسنا أن نحيا كراماً وأن ننال العزة والسيادة. وعندما يعقد كل منا النية الصادقة على العمل ويتفانى كل فرد في إنكار الذات،

متوخياً مصلحة المجموع، وحين تزدهر في مجتمعنا روح الأخوة وتأخذ المشاريع الاجتماعية النافعة سبيلها إلى التحقيق، حينئذ فقط يكون لهذه الاجتماعات أثرها القيم في إيقاظ الوعي الشامل، وإدارة الرأي الصالح وتحقيق العمل المثمر.

صوت البحرين - يوليو ١٩٥٣

ثلاثة شهور في لبنان «١»

لبنان بلد المتعة والجمال، مهوى الأفئدة ومنتجع الرواد، له في خيال كل مصطاف معنى شعري جميل، تنسج خيوطه الذهبية أعصاب مرهقة تنشد الراحة والهدوء، وأجسام مكدودة تلتمس السكينة والاستجمام.

وتبدأ أولى مواسم الاصطياف في لبنان منذ أوائل شهر تموز من كل عام وتغلق على وجه التقريب في أواخر تشرين الأول، ثم لايكاد ينتهي موسم الاصطياف حتى يبدأ موسم الإشتاء، حيث يستقبل لبنان فوجاً جديداً من الزوار والسائحين يؤثِرون على الصيف الشتاء، فيتتبَّعون مساقط الجليد من فوق رؤوس الجبال وعلى السفوح المنحدرة ليتخذوا منها مسرحاً للتزحلق وملهاة للفراغ ومدعاة للنشاط والرياضة. كذلك لاتكاد تقفل مشاتي لبنان حتى تنفتح مصايفه وهكذا دوالَيك.

المدن والمصائف:

وطالب الاصطياف، قبل سفره للمرة الأولى، لابد وأن يقضي فترة من الزمن وهو يسرح في نشوة من الحلم الجميل بالنعيم الذي يوشك أن يقبل

عليه. وبقدر ما يكون متعب الفكر من جراء الأعمال الرتيبة المنهكة، والمشاغل اليومية المملة، مثقل الفؤاد بالمشاكل والآلام النفسية، بقدر كل ذلك يكون تصوره «لحياة النعيم» التي تنتظره وما تزخر به من متعة للنفس الموحشة، ونشاط للجسم المنهك، واستجمام للفكر المكدود. أما التصورات الأولى والتخيلات الغريبة فما أكثرها في ذهن المصطاف.

لقد كنت قبل أن أسافر إلى لبنان في المرة الأولى، دائم التفكير في تلك المصايف التي كان يقال أنها مبنية على رؤوس الجبال أو فوق سفوحها ومنحدراتها. وكنت أفكر فيما إذا سيكون نصيبي منها - على مثل ما يصور الخيال - بيت معلق بين السماء والأرض تنفرج من تحته فوهة لواد سحيق عميق الغور تتدفق في قعره الأنهار الجارية مسرعة، أو ترتمي في أحضانه المياه شلالات عاتية مزبدة. ولطالما كنت أفكر في كيفية الوصول إلى مثل هذا المسكن الذي يوشك أن يختبىء وراء قطع الصخور الرابضة، أو يغيب بين غابات الأشجار المتراصة.. ولعل ما كان يدعوني للتعجب أكثر فأكثر آنذاك ما تردد على مسمعي من أنه من الجائز بل مما هو كائن بالفعل، أن في رؤوس تلك الجبال مدنا آهلة بالسكان لاينقصها من مظاهر المدن الحديثة المنظمة شيء في مبانيها وشوارعها وفنادقها وملاهيها ومؤسساتها وأنديتها إلى كثير من الأوصاف الشيقة التي تطرب لها أذن المسافر الجديد وما تنفك تطلب المزيد.

أما اليوم، فقد أصبحت ـ بعد أن تكررت زيارتي للبنان ـ أكثر علماً من ذي قبل بالمصايف وحياة الجبال، وقد زال ذلك الغموض الذي يكتنف تصوراتي الغريبة الأولى. لقد أيقنت أن يد الإنسان العاملة المبدعة، كثيراً ما تعمل في

الجبال الشاهقة عملها في الوديان الغائرة والسهول الفسيحة. فتستثير كوامن الخيرات في التربة الصالحة، وتستغل مظاهر الجمال في الطبيعة الفاتنة ثم تذلل الطريق وتقيم السدود وتنشىء المصايف والمتنزهات، ولكنها قليلاً ما تدرك من معنى هذا الخير العميم سر سعادتها، أو تستخلص من ذلك الوجود المترف أسباب غبطتها ودواعي اطمئنانها. ولقد استغربت، دونما داع صحيح للغرابة، ما رأيت من أن سكان الجبال الناعمين بالجو اللطيف والأرض اليانعة والجمال الطبيعي الفاتن، هم وسكان المدن الضيقة ذات الحرارة اللاهبة والجو الخانق، سواء من حيث راحة الضمير واطمئنان النفس. إن المشاكل والمضايقات التي يفر منها معظم المصطافين كثيراً ما تتعقبهم هناك حيث يصطافون. بل إنها لَتسبقهم أحياناً إلى حيث يقصدون فتستقبلهم في عقر دارهم وجهاً لوجه كالحة كالعتمة سوداء كالظلمة. أما نعمة المصائف من حيث كونها ملجأ من الحر اللاهب ومصدراً للراحة والاستجمام وسائر أنصاف المتعة البريئة الوادعة فإنها كثيراً ما تنقلب بتصرفات سكان المدن إلى جحيم من الضوضاء الصاخبة والمزعجات الضاربة أطنابها في كل حدب وصوب.

فالناس هناك - رجالاً ونساءً - في تكدس غريب وتزاحم عجيب على جوانب الأرصفة الممتدة، أو عند مدخل الملاهي وباحات المراقص وحانات الشراب وموائد القمار، أو في المقاهي والمطاعم العامة. وقد حل محل الهدوء ضجيج مزعج هو خليط متنافر من الضوضاء المنبعثة من حركة السيارات الدائمة وأجهزتها المنبهة، وصراخ المذياع الذي لاينقطع، وصخب الموسيقى العنيفة وأصوات الباعة المتجولين وأصحاب المصالح الأخرى والمستغلين، مما يجعلك تتساءل تُرى ما الذي يميز هذه المصايف

عن بقية المدن اللبنانية الصاخبة!

ولقد ألف معظم الناس هذا المفهوم المقلوب للاصطياف والمفاهيم الأخرى المنحرفة التي ما تزال تُسَيِّر شئون حياتهم وتنظم أمور معيشتهم في جو من الفوضى الشاملة، والتحلل الخلقي، والتفسخ الاجتماعي.

لقد قُدِّر لي أن أعيش بداخل تلك المصايف المزدحمة فترة ليست بالقصيرة أثناء زيارتي الأولى، كما تسنى لي هذه المرة الأخيرة أن أقضي معظم أيامي في إحدى الضِّيَع البسيطة المتواضعة على مقربة من «عالِيّه» لكن في نجوة من صخبها وضجيجها. وقد حمدت الظروف التي أتاحت لي أن أتذوق طعماً جديداً للحياة الطبيعية الهادئة يفتقر إليه رواد المصايف المزدحمة الصاخبة.

المصايف الهادئة:

لقد كانت أولى مظاهر الارتياح التي شعرت بها هناك، أنْ تضاءلت من حياتي اليومية تلك الفترات البليدة الثقيلة التي تمر على معظم المصطافين عادة نتيجة للشعور بنوع من الفراغ والتبطُّل لاتجدي معه أساليب التسلية أو فنون قتل الوقت. إنه السأم الناشئ من الخمول المفاجئ الذي يهيمن على المصائف الصاخبة حالما يتم استنزاف آخر الحيويات التي تخمد شيئاً فشيئاً في غمار الحياة الليلية الطويلة المرهقة. إن النشاط العام في تلك المصائف يتركز بصورة شاذة وغير طبيعية، في فترات معينة تبدأ حين يقبل المساء وتنتهي في ساعة متأخرة من الليل. وقبيل الفجر من كل يوم يأتي دور الأعصاب المرهقة والأجسام المنحلة والجفون المثقلة ليأخذ كل منها نصيباً من الراحة لابد منه.

وهكذا وبمثل هذا الحماس العجيب! يستقبل أكثر أولئك المصطافين ولادةَ كل يوم جديد.

أما الذين لم يتعودوا السهر الطويل فإن عليهم أن يحملوا أنفسهم على تجاهل معظم الفترة والنهارية في يومهم ريثما يُقبِل المساء وتنطلق النفوس المحبوسة من عقالها.

لم تكن في الضيعة الصغيرة إذن «أزمة» لقتل الوقت على النحو الذي تتطلبه الحياة في المصائف الكبيرة الصاخبة، فالحياة هنا طبيعية للغاية. إن النشاط يدب في القرية رويداً رويداً منذ أن يبزغ الفجر لكي يأخذ مجراه الاعتيادي طيلة أوقات النهار. وحينما يُقبِل الليل فيسبغ على الكون أدق معاني الروعة والجلال وبين أحضان الطبيعة الحانية يصبح للراحة طعمها وللنوم لذته. أما الحياة الليلية الصاخبة فهي في عرف القرية شذوذ مفرط عن سنة الطبيعة كما أنها ليست في الواقع إلا أعراضاً مَرَضية لحياة التحلل والترف في المجتمعات الحديثة.

شيء آخر من جملة أشياء أخرى كثيرة يتيحها الاصطياف في الضِّيَع المتواضعة والقرى الصغيرة المتناثرة هنا وهناك على سفوح الجبال وبين غابات الصنوبر أو في أحضان المزارع وبساتين الفاكهة، ذلك هو الاندماج بالشعب والتعرف على حياته بأفراحها وأتراحها وحسناتها ومساوئها.

وكما هو المعروف أن عند أهل القرى وجلهم من الفلاحين البسطاء ميلاً فطرياً للتعرف على الزائر الغريب والتعلق بالمصطاف الوافد. وهذه الميزة تظهر بجلاء في كثير من قرى لبنان. وهم يسمون المستأجر عندهم «بالجار»

دلالة على شعورهم الطيب نحوه. فإذا كان المصطاف من ذوي الميول الشعبية، فإنه سيجد ولاشك لذة كبرى في التحدث إلى أفراد هذا المجتمع الصغير الذي يحيطه ومجالاً واسعاً لدراسة شئون حياتهم ومشاكلهم العامة. وقد تنكشف من جراء ذلك مساوئ كثيرة لكنها في الغالب ليست إلا جزءاً من مشاكل المجتمع الكبير ومساوئه التي يصيب الشعب منها عادة العبء الأفدح والنصيب الأوفر.

الحياة في الضيعة:

إن الحياة هنا لذيذة وممتعة، شريطة أن يكون عند المرء استعداد للتجاوب مع المجتمع وميل للتعرف به والاندماج فيه. فأنت مثلاً لن ترتاح حتماً إذا أردت أن يكون طعامك هو نفسه الذي تعودت عليه في بلادك النائية. وهب أنك ممن يتيسر لهم اصطحاب «طباخ خاص» من بلدك فإن شعورك بالإحراج سيزداد فيما لو دعيت لتناول طعام عند أحد جيرانك أو أصدقائك. ثم إن تحضير المواد اللازمة للطبخات المحلية عندنا والتي تمتاز بكثرة الرز والدسم وأنواع البهارات، كثيراً ما ترتطم هناك بصعوبات عديدة وقد تسبب مضايقات جمة. إن مثل هذه الشروط لو تسنى لك أن تفرضها على جيرانك ومضيفيك ربما تؤدي إلى اعتبارك في عداد الضيوف الثقلاء وستضطرك حتماً للاعتزال بنفسك.

لم أكن لأفهم الحياة بمثل هذا المقياس الضيق. فقد أبحت لنفسي منذ أن وصلت أن تتعود على استساغة المألوف من المآكل هناك ولو على سبيل التجربة والتنويع. وهكذا بين استنكار الأهل وإعجاب أهل الضيعة كنت آكل الخبز «المزعتر» و«الكبة النية» والزيت والزيتون و«الحمص بطحينة»، إلى غير ذلك

من أنواع المآكل التي يعافها أهل هذه الأطراف ويتقزز معظمهم من أكلها.

إلا إنني والحق يقال، لم أستسغ مطلقاً أكل اللحم النيء بالسهولة التي رأيتها عند اللبنانيين. إن من المناظر المألوفة جداً أن يأتي الإنسان في الصباح الباكر إلى بائع اللحم ثم يتخير بكل هدوء المواضع التي تعجبه من «الذبيحة» المسلوخة المعلقة، وبعد أن يقطعها يبدأ في غمس طرفها في قليل من الملح ثم يلوكها بين أسنانه بنفس البساطة التي نأكل بها نحن قطعة من «الشوكولاته» أو الحلوى.

واللبنانيون شديدو التعلق بأنواع الطعام التي لديهم لدرجة بالغة. ولكل أكلة عندهم، حتى لو كانت تافهة، ميزات لايحصيها إلا الله والراسخون في فنون أكل اللحوم النية! فالزعتر لاتجهل فضلَه الأطباء، والزيت بلسم لكل الأمراض، والزيتون مذكور في القرآن وسائر الكتب المقدسة، واللحم النيء أساس الصحة وهو - ما لايخفى - سهل الهضم! والثوم قل فيه ما تشاء وستكون مقصراً في حقه. أما الضفادع و«البزاق» «وهو يشبه لحم المحّار لكنه برّي» فهما عند المسيحيين من مآكل الطبقة الراقية. والعصافير خصوصاً إذا كانت عصافير التين لها سوق رائجة في لبنان، وصيد العصافير مهنة متعارف عليها هناك «لا أدري بالضبط إذا كان لها نقابة أم لا» وفضل هذه المهنة لاينكَر في تشغيل عدد لايستهان به من «الأيدي العاطلة» بين سكان الجبال الذين يعيشون من وراء صيدها وعرضها للبيع حية أو مسلوخة جاهزة. ولعل من الطريف أنني وجدت من بين الصيادين المسلمين من لايتساهلون مطلقاً في التقيد بالطريقة الإسلامية أثناء «ذبح هذه العصافير».

وكان بعضهم يحاول أن يطمئنني من هذه الناحية - بمنتهى الجد - وهو

يشجعني على شراء عصافيره.

والشرب بدوره - شرب الماء - له أسلوب خاص عند اللبنانيين. والغريب الذي لايتقن فن الشرب من الكوز مباشرة «على نحو ما يفعله الهنود عندنا» كثيراً ما يتعرض للمضايقات أو يعرض من معه إليها. وأنا نفسي أشعر بالإحراج كلما اضطررت لطلب الماء فجاءني يتيه في كوز من الفخار أو الزجاج. وكان يعتريني شيء من الخجل في كل مرة أسمع صاحبي - وكان ذا هيبة وظرف - ينهر الساعي بالماء، قائلاً: «هات كبايه. إخوناً من البحرين، وما بيعرف يشرب مثلنا من الإبريق». على أنه من الممكن على الراغب المجتهد تعَلُّم شرب الماء علي الطريقة اللبنانية بسهولة إذا ما وطن نفسه على تحمل سخرية الحاضرين كلما أخطأ في تجربة من التجارب وأنا أنصح مَن يرغب في تعلمها أن يبدأ أول ما يبدأ في الحمام، فهذه أنجح الطرق على ما أظن وأقلها خطراً.

عيون الصحة:

وتحضرني بمناسبة الشرب، ظاهرة وجدتها في معظم جهات لبنان. تلك هي الإشادة بميزات الينابيع الجبلية والدعاية لها.

من المعروف أن الينابيع الجبلية هي المصدر الرئيسي لحاجات السكان، سواء للاستهلاك أو الزراعة. ولكن في بلد كلبنان لايجب الوقوف عند هذا الحد من استغلال الأمور. فإذا كان مجموع المياه مثلاً لايمكن أن يؤلف شلالاً لتوليد قوة كهربائية «وسلالات المياه هي عادة المصادر الرئيسية للقوى الكهربائية» فلا أقل من أن يكون كل ينبوع، مهما كان عادياً، نواة لمتنزه جميل،

أو مقهى بديع يجتذب إليه الرواد والمعجبين. ومن هنا بدأ التنافس بين كل مصيف وآخر حول الاستفادة من هذه الينابيع والدعاية لها وتشجيع الناس على زيارتها ولو كانت في أقصى الأرض. واجتذاب الناس إلى هذه الينابيع يتم بأساليب مختلفة من الإغراء، ولكن أشد تلك الأساليب رواجاً وأكثرها اجتذاباً للجمهور، هي التي تتسم بطابع الدعاية الصحية. لم أكن لأعلم - أثناء رغبتي الملحة الأولى لارتياد عيون الصحة في لبنان - إن ٩٠٪ على الأقل من ينابيع الجبال هي مصادر طبيعية للصحة والنشاط، وأن في لبنان من هذه العيون الصحية ما لو تقاسمه جميع المرضى في القطر اللبناني لانتابت كلا منهم أكثر من واحدة من هذه العيون الصحية الشافية للأمراض، المدرة للبول، والمفتتة حصوات الكلى.

لقد قدر لي أن ارتاد أشهر تلك العيون الصحية مرات عديدة، تأثراً بالدعاية الواسعة لها، وكانت الانطباعات التي تخلفها في ذهني كل زيارة مؤثرة ومضحكة في آن واحد. لم أكن أعرف قبل زيارتي لتلك الينابيع، أن معدة أي إنسان، تستطيع مهما بلغت من الرحابة أن تسع من الماء بضع عشرات من الغالونات - دون أن تهدد بالانفجار على الأقل - إلا حينما حظيت بمشهد جماعات المستشفين بتلك العيون الصحية المعدنية وهم يعبُّون الماء عَبّاً بصورة جنونية مدهشة. إن هؤلاء الرواد المستشفين لَيمثلون في هيئتهم المتوترة بفعل التهالك الشديد على تفريغ القنينة من الماء تلو الأخرى في أجوافهم المتشنطة ثم إقبالهم بعد ذلك بصورة سريعة وآلية، لملء أقل فراغ يحسونه كلما خلا شيء من جوفهم. إن هؤلاء لَيمثلون أبشع صور الامتلاء والتضخم، مما قد يحبب إلى المرء الصيام عن الماء عدة أيام، وربما عدة

أسابيع تخلُّصاً من ملاحقة أشباح هذه الكائنات المليئة المخيفة، التي يطيب لها أن تقضي الساعات الطوال بجانب تلك الينابيع تلتهم كل زائر جديد، بنظرات تعبر - لا شعورياً - عن تكالب وحرص، وكأنها تخاف على مياه الصحة من أن تنضب. أوَلا ترى معي - بعد ذلك - أن عيون الصحة هذه كثيراً ما تصبح نتيجة التصرفات الجاهلة والدعاية المسرفة رزءاً على الصحة، وجناية على سلامتها.

صوت البحرين - يناير ١٩٥٤

ثلاثة شهور في لبنان «٢»

في المستشفى والحديث عن عيون الصحة والاستشفاء بها يجر بدوره إلى موضوع المصحات والمستشفيات. فكثيراً ما يكون القادم إلى لبنان في حاجة إلى علاج طبي أو عناية صحية، عندئذ يتصاءل التفكير في اللهو والمتعة لتحل محله الرغبة الملحة في العلاج، ومن ثم تمر في ذهن المريض أخيلة أخرى لاتقل عن أخيلة المصطاف الجديد، تحمل في طياتها صوراً مختلفة تأتت عن طريق الوصف المسموع للمعاهد الطبية الذائعة الصيت في حذقها بتشخيص الأمراض وخبراتها في تحليل أعراضها وتمييز أنواعها، وما تستعين به في ذلك من المعدات والأجهزة المستحدثة التي لاتنفك تؤدي عملها بدقة وانتظام في جو من الهدوء داخل حجرات مقفلة النوافذ حالكة الظلمة إلا من الإشعاعات الكهربائية المنظورة وغير المنظورة التي لاتكاد تومض إلا بمقدار، توفيراً للنفقات الباهظة التي تستهلكها تلك الأشعة السحرية الثمينة. وهناك بحذاء هذه المعاهد الطبية أو في معزل عنها تنهض مصحات ومستشفيات مضيئة الجنبات واسعة فسيحة الردهات تسر القلب وتشرح الصدر، تنتقل بين أرجائها ملائكة الرحمة من بني الإنسان ربما كانوا رجالاً من أودع خلق الله

نفساً وأرقّهم شعوراً مزودين بالحذق الطبي والخبرة العملية في وصف الدواء أو شق الأحشاء، وتطبيب الأجسام أو جبر العظام، وربما كانوا نساءً غاية كل منهن رعاية المريض والسهر على راحته، فلا تنفك الواحدة منهن تأسو جراحه وتعني به وتتعهده في أكله وشربه، ونومه ويقظته، حتى يُكتَب له الشفاء أو يخرج من عالم الأحياء. وإينما قلَّبت نظرك في أرجاء هذه المصحات أو تلك المستشفيات فأنت واجد البياض يجلل كل شيء رمزاً للسلام الدائم والأمن المقيم، فأما النظافة فهي واجبة، وأما التعقيم فإجباري، والحديث هناك لا يكون إلا بالهمس، وكثيراً ما أدت الإشارة المختصرة واللمحة الدالة عن النطق أو الكلام إذا كان فيهما ما يقلق المريض أو يُفسِد عليه الجو.

ثم لاتلبث أنسجة الخيال هذه أن تتماسك في ذهن المريض بتكامل الصور الوصفية التي ملأت ذهنه، لتقدم الطب في لبنان حتى تتبلور على الشكل الذي تهواه نفسه، والوضع الذي يطمئن إليه ضميره. ومن ثم يتوكل صاحبنا على الله، وإذا به بعد أيام قليلة يجد نفسه ضيفاً على أحد تلك المستشفيات المحشورة حشراً في مسالك بيروت الضيقة، تحيط بها من كل جانب مجموعة من المزعجات لا عد لها ولا حصر. أما ما يصادفه المريض في داخل المستشفى نفسه فحري بأن يمحو من ذهنه على الأقل مجموعة كبيرة من تلك الصور الخيالية التي تراءت له وغررت به.

ولايكاد المريض يمضي أيامه الأولى وهو لمَّا يجتز بعد أولى أدوار الفحص والتشخيص لِما يشكو من أوصاب حتى يشعر وكأن جهازاً مخيفاً من الجشع قد بدأ يطّبِق عليه ويأخذ بخناقه. وأنه ليخال من فرط ما يعانيه من تكالب ذوي الأطماع عليه، أن في كل من حجرات الفحص ومختبرات التحليل، أو عند

معامل الأدوية وأصحاب الصيدليات، بل وفي كل مكان آخذ يتصل بدائرة علاجه من قريب أو بعيد، يتصور أن أجراساً خفية قد بدأت تدق لكل هؤلاء مؤذنة بوقوع صيد جديد في شرك الأطماع وحبائل المناورات التجارية.

لا أريد هنا أن أقلل من شأن الطبابة أو تقدمها في لبنان، فليس من ينكر وجود الاستعداد الفني والخبرة العلمية، ولكن أين هو الضمير الحي الذي يحسن التصرف بكل ذلك في حدود المصلحة العامة. ولكننا لكي ننصف الأطباء، يجب أن نعترف بأن الجشع داء اجتماعي يعم طبقات المجتمع على اختلافها قبل أن يكون قاصراً على الأطباء وحدهم، وأن الرسالة التي تتكّر لها الأطباء قد سقطت هي بدورها من قاموس المجتمع بما فيه طبقة التاجر والموظف والمدرس والمحامي وغيرهم وغيرهم. وإذن فالمسئولية عامة وإنم تتركز الأضواء عادة حول طبقة الأطباء بالذات، نظراً لأنها أشد تلك الطبقات مساساً بمصالح المجتمع ومن أكثرها قدرة على التحكم في مصائره. كذلك فإن الضمير الاجتماعي الحي لايمكن أن يسود المجتمع إذا كانت الأوضاع الاجتماعية نفسها فاسدة، وطالما كان مقدار الثراء هو الذي يحدد قيمة الفرد في المجتمع، فسيظل سعي الناس لانتهاز فرص الكسب من كافة السبل الممكنة أمراً لا اعتراض عليه في منطق هذا العصر المادي. وإذا كانت المساومة التجارية هي الطابع السائد دائماً في المجتمع الاستغلالي الذي تتحلل فيه الروابط الاجتماعية، فإنه ليس كلبنان بلد تقوم أموره على المساومة في كل شيء، لا فرق في ذلك بين من يريد أن يحتل مقعداً بسيطاً في سيارة التاكسي أو يتسنم كرسياً في الحكم.

ولكن بعض المساومات وخصوصاً في مجال الطب كثيراً ما تكون على درجة

من الدناءة لاتقبلها النفس بحال من الأحوال. تصر إن رجلاً قد تهشم ذراعه في حادث اصطدام مروع، فيؤخذ إلى الطبيب، ثم تصور أن هذا المريض يبقى على هذه الحال يومين موضوعاً لمساومات تجارية رخيصة حول نفقات العلاج، وأن خدم المستشفى يأتون إليه بعد ذلك «بالنقالة» لأخذه إلى حجرة العمليات فلا يكون من الطبيب المختص إلا أن ينهر الخدم ويأمرهم بالتوقف حالاً. لماذا؟ الجواب: لأن المصاب لم يقدم بعد كفيلاً بتسديد نفقات العملية أو لم يدفعها مقدماً. أرجو أن لاتنوء أعصابك لسماع هذه القصة، فقد شهدت فصولها بنفسي رأي العين، وزاد من وقعها لدي أن الطبيب المساوِم كان من ذوي الشهرة والصيت سواء في عالم الطب الناجح أو مجال الثراء الفاحش. وفي ردهات المستشفى سمعت من الفقراء شكاوى هي أقرب إلى الخيال وما أكثر ما تسمع من هؤلاء من يقسم أن شفاءه أو شفاء أحد المقربين إليه قد كلّفه أن يبيع أثاث بيته - على علم من الطبيب - ليسددها ثمناً لأجرة العلاج الفاحشة. وبالرغم من أن السماح لبعض المرضى بمغادرة الفراش قبل إتمام المعالجة يعتبر في كثير من الحالات جريمة إنسانية، فقد حدث لصديق أن طُلِب منه في أحد تلك المستشفيات أن يغادر المستشفى لأن المبلغ الذي دفعه قد انتهى، وكاد أن يقع في كارثة لولا أن فتح الله عليه بما يستطيع به تخطي أهم مراحل العلاج. أما في مصحات الجبال فإن العادة التي درج عليها القائمون بأمرها هناك أن لايقدَّم علاج للمريض إلا بعد قبض ثمنه، وليس للضرورة أحكام عند هؤلاء، فعلى المريض - وهو العاجز المُقعد - أن يدبر حالاً ما يطلب منه من مصاريف باهظة وإلا انقطع عنه العلاج وصار له أن يختار المصير التعس الذي ينتظره.

وكما أن الغالبية الكبرى من مستشفيات لبنان هي ملك لأفراد يوجهونها كما

يشاؤون دون تمَسُّك بالتزامات خاصة وضمانات معينة لصيانة مصالح المرضى الذين تضمهم، فإن عدداً لايستهان به من تلك المستشفيات غالباً ما يكون ملحقاً بأحد المعاهد التبشيرية أو بمؤسسات ذات صبغة معينة، حتى أصبح من بينها ما هو ملحق ببعثة إفرنسية وطابعه إفرنسي في كل شيء، أو تابع لمؤسسات أمريكية ذات توجيه أمريكي خالص، أو مرتبط بأي معهد أجنبي آخر يزكم الأنوف بروائحه الاستعمارية البغيضة.

وخدمة المريض تتفاوت في كل مستشفى عنه في الآخر، وهي في المستشفى الواحد تختلف حسب قدرة المريض المالية، التي تحدد له نوع الخدمة وربما نوع العناية الطبية أيضاً. ولكن الصفة العامة التي لاحظتها في أكثر المستشفيات تقريباً هي اختيار الممرضات من صغيرات السن اللواتي تحوج أكثرهن الخبرة في وعي رسالة التمريض والمران في تطبيق أصوله. وتسأل عن السبب في عدم قصْر التمريض على ذوات الخبرة من كبيرات السن، فيقال إنه قلة الرواتب التي تُجرى لصغار الممرضات. ولكن ذلك ليس هو السبب الوحيد على ما يبدو إذ إن الموضوع لايخلو من نظرة تجارية تشبه إلى حد بعيد نظرة معارض الأزياء أو تجار الكماليات في اختيار المستخدِمات بغية التفوق على منافسيها في اجتذاب الزبائن.

ومهما يكن من أمر، فإن على المريض في كثير من الأحوال، خصوصاً إذا كان ضعيف الحال، أن يتحمل حماقات صبيانية تصدر عن فتيات محدودات الأفق لاينظرن إلى خدمة المريض إلا من قبيل السخرة المملة والعبء المضايق الذي ينتظرن التخلص منه بفارغ الصبر حالما ينتهي الدوام، ومن الذي يلومهن على هذا الشعور، أوَليس المستشفى وحده المسئول عن جهل مستخدَميه.

ثم إن وجود المستشفيات على خطوط الترام ظاهرة منتشرة في بيروت، وإذا كان الترام هو دائماً الرمز المجسِّم للضوضاء المزعجة، فإن المريض يجب أن تكون لديه أعصاب من الفولاذ قبل أن يستطيع تحمل ضجة الترام وصخب الشوارع المكتظة بالمارة والعربات والقاطرات، فكيف إذا ما اقترن كل ذلك بأوصاب الداء وآلام المرض.

لتلك الأسباب ولغيرها أصبحت نظرة الناس للمستشفي والطبيب وما يتصل بهما، تقترن بالتذمر، حتى أصبح الاستغناء عن مراجعة الطبيب في الحالات العادية أمراً مستحسناً جداً، كذلك فإن الطب القديم لايزال يلاقي رواجاً حسناً، فالمجبر القديم لايزال في عمل متواصل بالرغم من توفر الأطباء الحاذقين في طب العظام. ولكن مع كل ذلك، فإنه لم يخطر ببالي أن أعمال الشعوذة والدجل يمكن أن تجد لها مجالاً في لبنان البلد المتنور، حتي فوجئت في أمسيات أحد الأيام، وكنت راجعاً من بيروت في مصيفنا في الضيعة بالنبأ الطريف التالي: لقد جاءت إلى الضيعة صباح ذلك اليوم إحدى عجائز الغجريات تلف رأسها بعمامة رجوانية، ويطق من حولها مسباح غليظ كرقبة الأفعى، وادعت أنها «بصَّارة» بعلم الغيب قادرة على شفاء الأمراض، فتهافت الناس عليها رجالاً ونساءً، واستطاعت أن تستحصل في ذلك اليوم وفي ظرف سويعات فقط مبلغاً كبيراً لم أصدقه لأول وهلة، ثم تركوها تذهب مصطحبة كمية لابأس بها من الأطعمة والمئونة، بعد أن حصلوا منها على «وعد» بالعودة في اليوم التالي لشفاء عاهاتهم، ولكنها لم تف بالوعد فلم ترجع. وبعد أسابيع قليلة من هذه الحادثة ترامى إلى سمع القرية أن طبيباً روحانياً حقق المعجزات في شفاء الأمراض وأنه يقيم في دمشق، فانطلقَتْ على التو من الضيعة قافلة

من السيارات كل من فيها يحمل معه جرثومة مرض مزمن يتطلع إلى الشفاء منه، ثم عادت الحملة تجرر من ورائها بقية آمال خائبة.

اللهجة اللبنانية:

يواجه القادم إلى لبنان صعوبة كبرى - في بادىء الأمر - في فهم اللهجة اللبنانية الدارجة، وإذا كان صاحبنا من العراق بصورة خاصة فإن كل تفاهم كثيراً ما ينقلب إلى سوء تفاهم على طول الخط. كنت أحاول دائماً التغلب على هذه الصعوبة، على أن طمعي لم يكن بالطبع إلى الدرجة التي انتظر فيها إجادة الحديث باللبنانية الصرفة ومصطلحاتها، ولكن الذي كنت أرجوه دائماً هو حسن الفهم لِما أسمع. أما الأداء فكان عندي أقل صعوبة نظراً لميلي لاستعمال اللغة العربية كلما وجدت إلى ذلك سبيلا. ومع تعودي في الأخير على سماع اللهجة اللبنانية فإنني لم أستطع مطلقاً استساغة النشاز الناشىء من تلفظ أنواع خاصة من الكلمات، كتلك التي تتعدد فيها القافات مثلاً كلما سمعتها تتردد بسهولة غريبة على ألسُن اللبنانيين. إن كلمة «بقاع» تلفظ على الطريقة اللبنانية في استبدال «القاف» بألف، هكذا: «بآع» وعلى مثل ذلك قس.

إن اللبنانيين - وربما أهل كل بلد آخر - شديدو التعصب للهجتهم الدارجة. على أنني تمشياً مع رأيي في رفع مستوى اللهجات المحلية الدارجة في أرجاء الوطن العربي وتقريبها من اللغة العربية، لم أكن أبداً لأجعل من هذا الموضوع مثاراً للنقاش أو مدعاة لتفضيل لهجة بلد على آخر كما هو المتعارف عليه دوماً، وكنت حينما أسمع صاحبي اللبناني يتحمس في الإشادة بحسن اللهجة اللبنانية وأنها أقرب من غيرها إلى لغة القرآن والعربية الفصحى، كنت كثيراً ما أُنهي الحديث بقولي مؤمِّناً على كلامه: إن كلمة «شوب» التي تتردد كثيراً على ألسُن

اللبنانيين هي بدورها قرآنية فقد ردت في قوله تعالى: ﴿ثم إن لهم عليها لَشَوْباً من حميم﴾»!

ويعتبر الشعر الزجلي بمثابة السجل للغة العامية، وانتشار الشعر الزجلي في لبنان وتعلق أفراد المجتمع به أمر واضح وملموس عند مختلف الطبقات بمن فيهم المثقفون والمتأدبون، بل لقد دفع التشجيع الذي يلاقيه شعر الزجل عند المتعلمين، أحد الأدباء المشهورين لتحضير مقالات متسلسلة تعني بدراسة الشعر الزجلي ابتداء من أصوله السريانية الأولى في أديرة الرهبان! وقد كنا نعتقد أن قيمة هذا الشعر بالنسبة للأدب العربي ستظل حيث هي من أصولها السريانية، لولا أن الكاتب عاد فتخَبَّط وهو في نشوة من الحماس بادعاء نسبة هذا الزجل للشعر العربي. ومهما يكن من أمر فقد حمدنا الله أن الكاتب المذكور لم يتورط بالرغم من مسحة «الأصالة» التي حاول إضفاءها على الشعر الزجلي العامي، فيما تورط فيه الدعاة لاستعمال اللهجة العامة، وحسبنا منه اعترافه بأن الأدب الزجلي أو العامي لايمكن أن يصلح للتصدير إلى دنيا العرب، وعذوبته في أن يبقى محلياً صِرفاً.

لقد كان من الصدف أن أجد من بين أهالي الضيعة التي سكنتها شاعراً زجلياً مشهوراً «ووجود أمثال هؤلاء الشعراء في ضيعة ما يعد في لبنان بركة على أهل تلك الضيعة، فالشهرة هناك وسيلة للنفوذ عند الجهات العليا وهي بذلك سلم للوساطات ولقضاء الحاجات وتفريج الملمات»، وقد تسنى لي أن أحضر بعض تلك الحفلات الزجلية الشعبية، وكان الزجل الذي سمعته هو من النوع الارتجالي الذي تلقى فيه الأشعار إلقاء على البديهة ويتخذ صورة حوار أو مساجلة شعرية بين طرفين، ثم يتطور في النهاية إلى مفاخرات حامية ومناظرات دامية. لقد بدا لي أن

روعة المناظرات الزجلية ترتبط أشد الارتباط بالجو الذي تلقى فيه وما تثيره عند الحاضرين من استفزاز عاطفي وتحمس شديد يبلغ ذورته حالما ينتهي أحد الطرفين من ارتجال القول دفاعاً أو هجوماً ويأتي دور خصمه للجواب، عندئذ تشرئب الأعناق وتنفتح الآذان وتحدق الأنظار ثم تعلو ضربات الدفوف وتزداد دقاتها سرعة وكأنها متحمسة بدورها لسماع الجواب.

قلت لأحد رفقائي وقد سألني عن رأيي في هذه الحفلات الزجلية، إن من الخير أنْ يُستغَل إقبال اللبنانيين على سماع الزَّجَل في نواحٍ أكثر فائدة للمجتمع وأحرى بتنوير الأفكار، فذلك أجدى من التعلق بمواضيع شخصية تؤدي غالباً إلى إثارة الحزازات وإنْ كانت تأتي عادة تحت ستار من المرح والفكاهة.

أما الشيء الذي لم أستسغه مطلقاً فهو مجاهرة أولئك الشعراء «الأفذاذ» باستلهام بنت الحان وربيبة الدِّنان فيما ينظمون من زجليات وذلك على مرأى من الناس. إنه ليس أقتلَ لعناصر الخير في النفوس من أن تتقبل المرح على حساب الاستقامة الخلقية، أو أن تستمد غذاءها الروحي من أفواه السكارى والمعربدين.

الجامع محط الآمال:

إن من أهم الملاحظات التي يواجهها القادم إلى الضيعة هي أنها من الضيع القلائل التي تضم غالبية من المسلمين. قلت في نفسي لابد إذن أنْ يكون للجامع شأن في هذه الضيعة الإسلامية كما أن للكنائس شأنها في القرى المسيحية الكثيرة.

كنت كثيراً ما أستيقظ مبكراً في الصباح لا على صوت المؤذن، كما هو المفروض، ولكن من جراء سيارة الباص المكلفة بنقل ذوي الأعمال في الصباح الباكر، أما سبب ذلك فهو أن موقع بيتنا من الجامع كان على درجة من البعد لاتسمح بوصول صوت المؤذن، ولكن ذلك ليس هو السبب الوحيد فقد وجدت أن لنشاط المؤذن - وهو نفسه شيخ الجامع - دخلاً في الموضوع. ولشرح ذلك لابد من أن نشير إلى أن الجامع المذكور لم يكتمل بناؤه نظراً لنفاد المادة التي أمكن استحصالها من المتبرعين لهذا الغرض الخيري، ثم إن انصراف معظم أفراد الضيعة - والشباب بصورة خاصة - عن تأدية الفروض الدينية وتهاونهم في المحافظة عليها هو من دواعي الهجران الذي يشكو منه الجامع ويتبرم به الشيخ الذي بدأ يفقد حماسه السابق. ولايقتصر الإهمال على الشباب وحدهم، فإن الكثير من الآباء أيضاً يشاركون الشباب هذه الظاهرة المؤسفة . ولا أزال إلى الآن أشعر ذات الشعور الأول بالغرابة كلما تذكرت منظر ذلك الكبير الذي جاوز الخمسين وربما الستين من العمر وهو يحاول للمرة الأولى في حياته أن يتعلم مبادئ الوضوء والصلاة، وأخشى أن تكون تلك المرة هي الأولى والأخيرة في حياة ذلك القروي الساذج، فقد فهمت في اليوم الثاني أنه لم يعاود المحاولة، الأمر الذي أدى إلى نشوب نقاش بيني وبين شيخ الجامع، وكان الموضوع هو هل من الواجب إحاطة أمثال هؤلاء بتفاصيل العبادات المستحبة منها والواجبة دفعة واحدة أم أن الحكمة تقضي تلقينهم إياها بصورة مختصرة وبسيطة في حدود الواجبات أول الأمر، وكان ذلك ظناً مني أن التزام المشايخ واهتمامهم الكبير بتعليم المستحبات والاسهاب في تحفيظ الأدعية والأوراد الطويلة هو ما يعقد الأمور ويؤدي إلى تنفير الراغبين، على أنني مع

ذلك أدركت في الأخير مدى الصعوبة التي يواجهها الشيخ في حمل أهل الضيعة على تشجيع الجامع وتأدية الصلاة فيه.

على أن الجامع مع كل ذلك الهجران بالنسبة إلى تأدية العبادات كان يحتل أهمية كبرى ومكانة محترمة عند جميع أفراد الضيعة على السواء. فهو أولاً الأثر الذي يزوره الوافدون والمصطافون، كما أنه لايزال المشروع الذي يعلق عليه أهل الضيعة كثيراً من آمالهم. لقد تم إلى الآن إنشاء مدرسة للبنات في الطابق السفلي والمحاولة جارية في إنشاء مدرسة أخرى للبنين، وهو بعد أن يكتمل بناؤه سوف يصبح آصرة من أواصر الوحدة بين أفراد الضيعة وموضعاً للتشاور في شئونهم المهمة، هذا بالإضافة إلى غايته الأولى كمسجد للعبادة. وحتي الأطفال فقد كان للجامع، الذي لم يكتمل بعد، مكانته وقداسته في نفوسهم. ألا ترى «فاروق» الصغير وهو مثال الأطفال الآخرين في البراءة والسذاجة، إنه لايجد من الأقسام الغليظة التي يدفع بها عن نفسه غضب أهله وجيرانه لما يرتكب من أخطاء، غير هذا القسم: «وحياة الجامع، وحياة تراب قبر خيي..» وهكذا يحتل الجامع منزلة كبيرة عند الكبار والصغار على السواء.

على أنني كنت أسائل نفسي دائماً: ترى ما حاجة هذه الضيعة الصغيرة إلى جامع كبير ضخم كهذا مع قلة الإقبال عليه، ولكن الأيام القادمة كانت كفيلة بالجواب. إنني لا أزال إلى الآن أتذكر تلك الكلمات التي سمعتها من أحد الشباب هناك، والتي تنطوي على فحوى الجواب الذي تمخضت عنه الأيام المقبلة، كان ذلك الشاب يتكلم بصوت ملؤه الحماس والتأثر معاً، مجيباً على الشكوى من سلوك الشباب الديني ما فحواه:

«إن لومكم هذا قد يكون في محله لو أن ضيعتنا كانت من قرى الجنوب ذات الطابع الإسلامي الخالص، أما هنا فإن الوضع يختلف تماماً. تصوروا أننا هنا نصحو وننام على أجراس الكنائس التي تشرف علينا وتحيط بنا من كل مكان، وأننا في وضعنا هذا أشبه بالجزيرة الصغيرة العائمة في خضم واسع تكاد أمواجه أن تبتلعها في كل لحظة. إن المحيط الذي نعيش فيه يجبرنا على أن نتغاضى عن أشياء كثيرة لايرضاها الضمير الديني. فمثلاً نحن كي نعلم أبناءنا وبناتنا مضطرون لإرسالهم إلى الأديرة القريبة، فما الذي تنتظره من هؤلاء الأحداث وهم يتلقون أولى توجيهاتهم من الدير. وقد تسأل عن السبب الذي يدفعنا إلى ارتقاء هذا المركب الصعب، والجواب هو أولاً عدم توفر المدارس الحكومية مما يضاعف مشقة التعليم على طبقات الشعب الفقيرة وفي طليعتهم نحن، وثانياً اعتماد طريق النجاح في اقتحام معترك الحياة على اتقان اللغة الأجنبية وهو نقص تقع مسئوليته على الأوضاع الاجتماعية السائدة والسياسات الإدارية المتعاقبة، وبما أنه ليس لدينا من العاهد الإسلامية العدد الكافي لسد هذا النقص في تعلم اللغة الأجنبية فليس أمامنا، لضمان مستقبل أولئك الأبناء غير إدخالهم في مدارس الأديرة أو الكليات الأجنبية».

إن فئة على مثل قلتنا حَرية بأن تتحلل وأن تفقد حق طابعها الإسلامي المميز، ولكننا على العكس من ذلك نحمد الله أننا لانزال نشعر بهذه الروح الإسلامية الوثَّابة بين جوانحنا، والتي نعتز بها ونجتهد في تنشئة أبنائنا عليها رغم عنت الظروف. لقد ناضلنا ونحن القلة بعزيمتنا غزوات الدروز ونفوذ الإقطاعيين، وإنه لمن دواعي الفخر أن نستطيع المحافظة على طابعنا الإسلامي رغم ذلك الصداع الشديد بيننا وبين المؤثرات المحيطة بنا من كل جانب.

والحق أن المرء لَيلمس هنا رجولة وحيوية، واعتزازاً، وذلك كله هو ما تسعى إليه كل طائفة في لبنان لحفظ كيانها وصيانة «استقلالها»، في ظل التنظيم الطائفي الذي يسيطر على لبنان من أدناه إلى أقصاه. منذ سنين قليلة خلت كان أهل الضيعة فلاحين ومستأجرين عند فئات الإقطاعيين، وبالرغم من أن جزءاً لايستهان به من أراضيهم اليوم لايزال ملكاً للدير، فإن هؤلاء الفلاحين بالأمس استطاعوا أن يمتلكوا اليوم القسم الأعظم من تلك الأراضي بكدهم المتواصل، وكانوا يشترون الأرض التي يعملون فيها من كسبهم الخاص كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ذلك هو سر الجامع الكبير، إنه حقاً محط الآمال ورمز الجهاد الطائفي المتواصل في موطن الطوائف وبلد الأقليات.. لبنان.

صوت البحرين ـ فبراير ١٩٥٤

ثلاثة شهور في لبنان «٣»

المجتمع اللبناني:

في لبنان لايستطيع أي إنسان - مهمات كان محباً للعزلة - أن يكون بمعزل عن مشاكل المجتمع وقضاياه العامة. ففي هذا البلد الصغير بمساحته الكبير بنَزَعَاتِه وأهوائه، تعيش المذاهب جنباً إلى جنب ويتزاحم الطوائف والإقليات في ميدان للسيطرة والنفوذ وتتنافس الأحزاب والمنظمات السياسية على كراسي الرئاسة والحكم. ومن وراء الأنصاب البارزة التي تحدد الاتجاهات وترسم الأهداف يتصارع المجتمع في مرافق الأعمال ومكاتب التوظيف وسائر مجالات التنافس في ميدان الحياة الواسع.

إن مصالح الطوائف والأحزاب ورغبات الأفراد والجماعات تتشابك هنا في لبنان على نحو عجيب من التنظيم العفوي الاتجاهات المتناقضة والتوفيق الارتجالي بين وجهات النظر المتعددة. أن القوى المخزونة والطاقات المتجمعة لتنطلق بحرارة وعنف في هذا الجو المضطرب وكأنها مغمَضة العينين تقتلع كل ما يصادفها في الطريق دون أن تعيَ سوى دوافعها الرئيسية أو تستكين لغير توجيهها الخاص.

لذلك فإن إنساناً من غير لبنان لَيجد نفسه عاجزاً منذ اللحظة الأولى أن يتتبع

بدقة رأس الخيط الذي تتفرع منه أمهات المسائل الكبرى في المجتمع، فلابد له قبل أن تتسنى له معرفة شيء من هذا القبيل أن يكون ذا إلمام واسع بأحوال البلاد، ومصالح الفئات والطوائف، وأجهزة الحكم، وتيارات المجتمع الخفية، التي ينبعث معظمها من مصادر شتى، منها ما هو غامض موغل في القِدم ومنها ما هو وليد التطورات والأحداث الأخيرة، ولابد له أيضاً من أن يكون ذا فراسة صادقة في استكشاف المحاور النفسية القلقة التي ولدتها ظروف اجتماعية متباينة كالتي توجد في لبنان.

وإذا كنت على يقين من أن القارئ الكريم لاينتظر مني بالطبع أن أضع يده على أسرار الاجتماع أو خفايا السياسة أو تيارات الثقافة وغيرها من الأبحاث التي تخرج بطبيعتها على نطاق هذه المذكرات العجلى، فإنني سأقتصر الحديث على النواحي التي سجلت في ذهني انطباعاً خاصاً أو تركت لدي ذكرى معينة.

الطوائف والأقليات:

إن أول ما يلفت نظر القادم إلى لبنان ذلك التباين الذي سرعان ما يحسه بين من يختلط بهم من أفراد المجتمع، وهو تباين لايقلل من شأنه اتفاق الغالبية العظمى من الناس في العادات العامة ومظاهر الأخذ بأساليب الحياة الغربية الحديثة، فهو يتناول المعتقدات السائدة ومجموعة التقاليد وأساليب التفكير في الشئون العامة والقضايا الوطنية أو القومية. نحن هنا لانميز بين اللبنانيين خارج بلادهم على اعتبار أنهم عرب تجمعنا وإياهم روابط قومية وتاريخية واجتماعية، وقليلاً ما نعني بالتفاصيل والسؤال حول المعتقد الديني أو الطائفي لكل منهم، ولكن اللبنانيين أنفسهم لايستطيعون تطبيق هذه النظرة فيما بينهم أي في لبنان نفسه. إن التنظيم الطائفي ظاهرة أساسية في تركيب عناصر المجتمع وتوجيه سعيها

المشترك ضمن دوائر طائفية معينة. وفي المجال الرسمي فإن التقسيم الطائفي معترف به، ولايزال من التقاليد المتبعة أن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً ورئيس الوزارة مسلماً سنياً ورئيس المجلس النيابي شيعياً، ثم يطَّرِد التقسيم على مثل هذا القياس في توزيع الوظائف العامة بين مختلف الطوائف الأخرى. لذلك فلعل من المفيد أن نستعرض بإيجاز توزيع الإقليات والطوائف في لبنان مع دراسة مختصرة لميول كل منها:

يدل إحصاء سنة ١٩٤٤ على أن توزيع الأقليات الدينية في كافة أرجاء القطر اللبناني هو كما يلي:

المسلمون (السنة)	٢٣٥,٥٩٥
المسلمون الشيعة	٢٠٩,٣٣٨
الدروز	٧٤,٣١١
مسيحيون موارنة	٣٢٧,٨٤٦
مسيحيون كاثوليك	٦٤,٢٨٠
مسيحيون أرثوذكس	١٠٩,٨٨٣
مسيحيون بروتستانت	١٠,٤٤٠
مسيحيون أرثوذكس أرمن	٩٥,٧٤٩
مسيحيون كاثوليك أرمن	١٠,٠٤٨
مسيحيون كاثوليك سوريون	٤,٩٨٤
مسيحيون أرثوذكس سوريون	٣,٧٥٣
يهـــــود	٥,٦٦٦
أديان مختلفة	١٠,٧٠٨
	١١٢٦,٦٠١

وتوزيع الأقليات بصورة عامة كما يلي:

المسيحيون والدروز في الجبل، السنة في المدن الساحلية، الشيعة في الجنوب والأرمن في بيروت.

ومن الإحصاء المذكور يبدو أن ٥٣ بالمائة من سكان لبنان مسيحيون، و٤٦ بالمائة مسلمون وأن أكبر أقلية واحدة منفردة هم الموارنة ونسبتهم ٢٩ بالمائة من مجموع السكان. على أننا لو سلمنا بصحة الإحصاء رغم المطاعن التي وُجِّهت إليه من وجهة نظر المسلمين الذين يرون لهم ما لايقل عن النصف من مجموع السكان، فإن الفارق في الإحصاء المذكور بين مجموع الطوائف المسلمة والمسيحية يكاد يتركز في عدد المسيحيين الأرمن، وهؤلاء حديثو العهد بالسكنى في لبنان، وأقدم تاريخ لهم فيها لايتجاوز الحرب العظمى أي ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، سوى عدد قليل جداً وُجِدوا قبل هذا التاريخ. وقد سكن هؤلاء الأرمن في أكواخ مؤقتة خارج بيروت وكانت لهم مستعمرة مستقلة في سهل البقاع، ويرجع الفضل الأكبر في إيوائهم وتمهيد سبيل العيش والسكنى لهم للسلطات الأفرنسية التي قيل إنها إنما فعلت ذلك بقصد تغليب العنصر المسيحي على البلاد. ومهما كانت الحال فإن كلا من المسيحيين والمسلمين يعد نفسه العنصر المتغلب، هذا في مجال الجدل، أما في الواقع فقد كانت الطوائف المسيحية إلى سنين ماضية هي الممسكة بالكثير من مقدرات البلاد، سواء منها في السياسة والثقافة أو الاقتصاد. على أن الذي يهمنا من موضوع الطوائف، هذه الظاهرة العجيبة التي جعلت من لبنان ذلك القطر الصغير وهو لايتجاوز في تعداده المليون والمائتي ألف مأوى لأكثر من ١٦ طائفة دينية مختلفة، لكل منها ميولها الخاصة واتجاهاتها وتقاليدها في مختلف الشئون، الأمر الذي أدى

إلى اعتبار لبنان في العرف الدولي الملجأ الأمين للأقليات الدينية في البلاد العربية وشرقي البحر الأبيض المتوسط.

الحياة السياسية:

إن الذي يُقَدَّر له أن يشهد شيئاً من معارك الانتخابات في لبنان يستطيع أن يتبين بوضوح أثر التقسيمات الطائفية في توجيه التيارات السياسية المختلفة. إن مصير المرشح في الانتخابات إنما يقرره شدة تمسك ذلك المرشح بالرباط الطائفي ومدى ما يتمتع به في دائرته من نفوذ مادي ومعنوي. وفي غمار معارك النفوذ هذه تبدو الكفاءات المجردة عديمة القيمة مطلقاً في ضمان نجاح المرشحين. وما أكثر ما ترتفع الشكوى من جمهور المثقفين الواعين في كل مناسبة ضد تسلُّط جماعة الإقطاعيين في مقدرات البلاد وتلاعب ذوي النفوذ في مصير الانتخابات بأساليبهم المختلفة، التي تتراوح بين الاستمالة بالمال أو التهديد بقوة «الزلمة» و«القبضايات».

فإذا ما تركنا المرشحين جانباً ورحنا إلى الجمهور الناخب وجدنا العوامل نفسها تفرض وجودها بشكل مريع، فالأصوات تعرض هنا بالمزاد، والتي لايمكن تحصيلها بالمال يمكن استمالتها بالوعود البراقة. فمرشح هذه القرية يلتزم بالسعي لتبليط الشارع الفلاني أو جر الماء للجهة الفلانية، بل إن سعي أحد المرشحين لتخفيض أجور الكهرباء في منطقة معينة كفيل بأن يُكسِبه شعبية رائعة، وهكذا فإن كسب الأصوات لايكون في أكثر الأوقات رهيناً بما يتمتع به المرشح من كفاءة وما يتصف به من وطنية، أو ما يلتزم به من خدمة للصالح العام كالقضاء على الفساد ومكافحة نفوذ الإقطاعيين ومقاومة المشاريع الاستعمارية في الداخل والخارج، وإنما يكون

بمقدار ما يحقق من مصالح كل طائفة أو جماعة على حدة.

وفي سبيل المساومة على مجموعة الأصوات تميل كل طائفة إلى تكتيل الرأي فيها، بل وحتى الأسر الكبيرة تميل كل منها إلى تكتيل أفرادها لهذا الغرض. ولمعظم العوائل المشهورة رابطة فيما بينها تسمى «جامعة» مهمتها دراسة شئون الأسرة والإنفاق على تأييد المرشحين. وتوزع على أفرادها شارات تحمل شعار الأسرة. ويمكننا أن نعتبر هذه التكتلات ضمن الأسرة الواحدة بمثابة الخلية الصغيرة للحياة الطائفية في لبنان، إنها بمثابة المركز الذي تنداح منه موجات متعاقبة من التكتلات الطائفية تكبر شيئاً فشيئاً حتى تنتظم المجتمع على نحو من النظام الهندسي الدقيق.

والرأي الفردي لا أثر له وكثيراً ما جر صاحبه إلى نتائج وخيمة أهونها إهدار مصالحه وتلاشي شخصيته أو ضياعها في خضم التيارات الحزبية المتضاربة. أذكر مثلاً أنني حينما كنت أرافق إحدى الشخصيات في زيارة لمناطق الجنوب، لاتخلو من غاية في الدعاية الحزبية للانتخابات، وكان هدف صاحبي إحدى القرى الصغيرة هناك. لقد هالني ذلك النشاط الكبير الذي لمسته والحماس الشديد للتصويت في مثل هذه القرية الصغيرة. ولكن الكارثة التي لم يستطع أحد من أفراد القرية أن ينام على ذكراها هي أن أحد الشبان قد رفض إعطاء صوته للمرشح الذي حصل عليه الإجماع. وهنا بدأت أساليب الإقناع ثم الضغط فالتهديد، وفي مجلس ضم رجالات القرية وأعيانها أُبلغ ذلك الشاب المسكين بأن عليه أن يستعد لمقاطعة أهل القرية إياه إذا هو لم يصوت معهم. ومثل هذا الدرس ينتظر كل من تسول له نفسه الانفراد برأيه الخاص.

والرشوات كما قلت سابقاً عامل مهم لنجاح المرشحين، وأنا لا أريد أن أحكم على الوضع من خلال الأقوال المسموعة، لذلك أحيل القارئ على كتاب «قبل وبعد» للصحافي المعروف اسكندر رياشي، ففيه وصف طريف للحياة السياسية في لبنان منذ عهودها الأولى إلى الآن.

الحياة الثقافية:

كثيراً ما وُصِف لبنان بأنه بلد النور والإشعاع الفكري في الشرق، وقد أصبح هذا الوصف سائغاً مألوفاً في مجال الحديث عن النواحي الثقافية في هذا القطر. والواقع أنه إذا كان المقصود من ذلك الدلالة على ما وصلت إليه البلاد من تقدم في محو الأمية وفي مضمار التربية والتعليم أو الأخذ بأساليب الثقافة في عالم الغرب، فإنه يصبح وصفاً عادياً لا غبار عليه، إذ لايُنكَر أن نسبة المتعلمين في لبنان هي أكبر منها في أي بلد آخر من بلدان الشرق قاصية ودانيه. ولكن من التجاوز في رأيي أن يُطلَق هذا الوصف للدلالة على مستوى معين من الثقافة القومية الناضجة التي يتطلع إليها العرب اليوم في كافة أقطارهم.

والسبب في ذلك أن مفهوم التوجيه القومي نفسه ليست له حدود متفق عليها في المجتمع فلكل طائفة سياستها الخاصة إزاءه. فالطوائف المسيحية مثلاً والمارونيون على الخصوص كانوا وما يزالون يتعشَّقون الثقافة المسيحية الغربية ويربون أبناءهم تربية غربية خالصة، وقد قطعوا شوطاً بعيداً في اقتباس عادات الغرب وتقاليده، ثم إن اللغة الأفرنسية هي لغة التخاطب الرئيسية، والثقافة الأفرنسية هي السائدة، وبرامج التعليم تنتهج في معظمها أصولاً غربية خالصة. أما المسلمون فهم أقل اندفاعاً وراء ثقافة الغرب وتقاليده.

وبالرغم من أن لهم معاهدهم التي تعني ببث الروح العربية الإسلامية فإنها لاتزال قليلة العدد وغير كافية، ولايزال التعليم العالي توجهه إرادات لاتقيم وزناً كبيراً للتوجيه الثقافي من وجهة النظر العربية. ومن الواضح أن وجود مثل هذا التناقض في موقف كل طائفة من تيار «التفرنج» الطاغي وتعلق كل منها بثقافة مغايرة بل ومتناقضة في كثير من الأحيان يجعل من العسير تكتل هذه القوى جميعاً تحت راية عربية واحدة، يتحدد فيها معنى ثابت للصفات العربية والقومية في المجتمع. إن لبنان في وضعه هذا يشبه ذلك الجسم الأسطوري برؤوسه المتعددة، فبينما يتجه أحد تلك الرؤوس نحو الغرب يخالجه التحفز للسير في ركابه والمساهمة في ميادين نشاطه المختلفة بنفس الأساليب التي يستعملها، يستدير منه رأس آخر متطلع نحو عالم العرب تواق للمشاركة في حركاته التحررية وجهوده الانبعاثية. على أن من بين تلك رؤوس ما هو مطرق بطبيعته إلى الأرض متمسك بالأشبار القليلة التي يعيش فيها يستوحي منها تقاليد طائفية عتيقة ونعرات إقليمية محدودة، ومنها ما هو حائر لم يستقر نظره بعد على هدف ثابت، لأنه لايزال يُعتبَر دخيلاً على البلاد فاقداً لإحساس التجاوب مع تربتها.

ثم إن النظرة الإقليمية المحلية نفسها ليس لها حدود واضحة في لبنان، ومهما بُذِلت من جهود لخلق وعي وطني سائد بين أبناء هذا البلد الصغير، فيظل اختلاف وجهات النظر في ذلك قائماً بين كل طائفة وأخرى. فمثلاً لقد كان تدخل الدول المسيحية وعلى رأسها فرنسا في شئون لبنان يلاقي تأييداً من جانب المسيحيين بصورة خاصة، باعتبار أنها حامية المسيحية في الشرق، بينما يعتبر هذا التدخل بالنسبة للفئات الأخرى نفوذاً استعمارياً وتدخلاً أجنبياً

بغيضاً. وبالمثل فإن موقف المسلم وحتى المسيحي المتمسك بعروبته تجاه أي تدخل عربي في شئون لبنان لن يتسم بنفس الشعور بالريبة الذي سيسود طوائف أخرى لاتشجع هذا التدخل مطلقاً. هذا بينما يميل قسم آخر من الأقليات الصغيرة إلى المحافظة على الكيانات القائمة كما هي، خوفاً من أن يؤدي أي شكل تنظيمي جديد إلى إخلال التوازن فيما بينها.

ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أن الدعوى العربية قد أخذت تكسب في عهد الاستقلال كثيراً من الأنصار، ولكنها لن يقدر لها النجاح إلا حينما يتسنى للوعي العربي أن يكتسح جذور الإقليمية ونظرتها المحدودة الضيقة.

التعليم:

قلت فيما سبق أن نسبة المتعلمين في لبنان هي أكبر منها في أي بلد شرقي آخر، ولكن ليس معنى هذا أن طلب العلم في لبنان سهل المنال، كلا،ص فربما كان العكس هو الصحيح. إن التعليم الحكومي المجاني يكاد يكون في لبنان اسمياً أو رمزياً فقط، بالإضافة إلى أنه يقتصر تقريباً على التعليم الابتدائي، أما المدارس الكثيرة والمعاهد العديدة المنتشرة في كل بقعة من لبنان فإنها مدارس خاصة أو أهلية. وعلى ذلك فقد أصبح كل لبناني يدرك تماماً أن عليه أن يعلم نفسه بنفسه ومن جيبه الخاص، وهنا يكون التعليم وخصوصاً العالي منه مشكلة كبرى بالنسبة للطبقات الفقيرة.

وإذا قلت إن التعليم في لبنان أهلي فإنني أقصد من ذلك أنه غير حكومي فقط، أما كونه «أهليا» بالمعنى الصحيح فتلك مسألة فيها نظر. فالمعروف أن المعاهد التعليمية والمراكز الثقافية الكبرى في لبنان إنما هي ملك لأفراد أو

تابعة لحكومات أو بعثات تبشيرية أجنبية. وإذا تجاوزنا في إطلاق كلمة «الأهلية» على كل مؤسسة لاتستمد تمويلها المباشر من الخارج، فإن نسبة المدارس الحكومية والأهلية والأجنبية هي كما يلي حسب إحصاء سابق:

مدارس ابتدائية: ١١٧ حكومية ١١٨٠ أهلية ١٥٠ أجنبية = ١٨٦٧ المجموع

المدارس العالية: ٣ حكومية ٤٤ أهلية ٧٥ أجنبية = ١٢٢ المجموع

ومن حيث التوزيع الطائفي فإن العدد الأعظم من المدارس الأهلية والخاصة إنما تديرها الطوائف المسيحية والمارونية بصورة خاصة، أما الغالبية العظمى من المعاهد الأجنبية فهي ملك لبعثات تبشيرية أفرنسية، وتعتبر الجامعة الأمريكية أهم معهد أمريكي في لبنان.

ألا فليتصور كل منا كيف يكون مصير التوجيه الثقافي في البلاد والمعاهد الرئيسية الكبرى التي هي بمثابة المراكز الثقافية المهمة في المجتمع تديرها بعثات أجنبية لا غبار على ميولها الهدامة وأهدافها الاستعمارية. وإذا كان هناك من يزعم أن اتجاهاً قومياً قدر له أن يزدهر في ظل أحد تلك المعاهد كالجامعة الأمريكية في بيروت مثلاً، فإن الجواب كامن في معرفة نوع تلك الحركة وطبيعتها أهي مما تغذيها سياسة المعهد ذاته أم أنها مجرد رد فعل عنيف لسياسة الضغط والتضليل الثقافي التي تنهجها تلك المعاهد.

والمناهج الحكومية لاتتجاوز رسم الخطوط العامة للتعليم، أما مواد التدريس والروح التي تدرس بها وكذلك الجو الذي يسود كل معهد فذلك راجع للمشرفين عليه وحدهم. ثم إنه ليس هناك كتب مقررة، لكل مادة كتاب مؤلف معروف، فحرية تأليف الكتب المدرسية تؤلف فوضى منهجية عجيبة في لبنان،

بل الأصح أنها تؤلف مصدراً مهماً للتكسب والارتزاق، فمن المألوف أن تعمد كل مدرسة لطبع كتب مقررة جديدة لطلابها في أوائل كل عام دراسي، وليس أسهل من أن ينبري أحد من المدرسين أو عدد منهم لأي كتاب مدرسي يتناولونه بالتغيير والتحرير والحذف أو التطويل، ثم يتم طبعه ويجبر كل طالب على شراء نسخة جديدة وإلغاء كتابه السابق. وماذا تكون النتيجة بالنسبة للطلاب الفقراء وآبائهم. هذا ما تستطيع أن تعرفه من الحادثة الآتية التي شهدت فصولها بنفسي:

أبوعارف رب أسرة فقيرة نوعاً ما وله سبعة أولاد، أربعة منهم في المدرسة. في أول يوم من افتتاح العام الدراسي يشيع في البيت جو من الفرح ابتهاجاً بعودة الدراسة. ويزيد سرور الوالد أن أولاده الذين تتفاوت أعمارهم من حيث السن الدراسية سيتسنى لهم أن يتبادلوا كتب بعضهم البعض ولايحتاج إلا واحد منهم وهو الأكبر إلى شراء كتب جديدة. هذا مصدر للتوفير لابد وأن يحسب له حسابه. أما النتيجة فإن الأولاد الأربعة سرعان ما يعودون لذويهم ليخبروهم بأن المدرسة قد ألغت كتبهم السابقة واستبدل بها المعلمون كتباً أخرى عليهم أن يشتروها من السوق. وهنا ينقلب الفرح إلى مأتم، إذ يرى رب الأسرة أن عليه أن ينفق مبلغاً كبيراً لاستبدال الكتب القديمة بكتب جديدة دونما سبب معقول، وهنا يصرخ «أبوعارف» غاضباً يلعن المدارس ومن ابتدعها ثم ينهال على أولاده بالضرب لإسكاتهم. وحينما يعود الهدوء إلى البيت يبدأ التفكير المتواصل لحل المشكلة، وربما فضل الكثير من الآباء الفقراء سحب أبنائهم تخلصاً من مصاريف الدراسة.

المرأة والمجتمع:

يعتبر لبنان البلد الوحيد في شرقنا العربي الذي استطاعت فيه المرأة أن تخطو خطوات بعيدة في ميدان التحرر والمساواة ونيل الحقوق العامة، على حد التعبير السائد. إن المرأة اللبنانية التي استطاعت أن تمزق حجابها بيديها وأن تسير في ترَسُّم خطى المرأة الغربية منذ أوائل هذا القرن قد تسنى لها الآن أن تندمج في المجتمع اندماجاً تاماً وأن تشارك الرجل في مرافق الحياة الاجتماعية المختلفة.

إن دعاة التَّفَرْنُج وهم كثيرون في لبنان كثيراً ما أشادوا بهذه الظاهرة في المجتمع اللبناني، واعتبروها من إحدى نِعَم التقدم الحديث التي يتمتع فيها سكان بلد النور والإشعاع. وفي غمار التحمس الشديد لتأييد الآراء النسوية في المجتمع، يبدو أن السؤال فيما إذا كان اتجاه المرأة في لبنان يتماشى مع التقاليد المرعية للمرأة العربية والمسلمة أو حتى السلوك الديني للمرأة المسيحية نفسها، قد فات أوانه، فهو في عرف الاتجاه السائد سؤال قد انضم إلى مجموعة من الأسئلة الحائرة الأخرى حول موضع القيم الروحية ومكان التعاليم الدينية من حياة المجتمعات القائمة اليوم، وليس من شك في أن مجتمعنا العربي الحاضر لم يكتسب بعد شيئاً من الثقة بنفسه أو الإيمان بقدرة انبعاثية في ذاته، يستطيع معها أن يناقش كل ما يرد إليه من الخارج ويتصرف إزاءه التصرف الذاتي الذي تمليه عليه تلك الثقة أو يرشده إليه ذلك الإيمان. وهكذا يستنيم الناس عندنا على نغمة ما يسمى بـ «تيار المدنية الجارف» وكأن كل ما يجرفه السيل من غثاء الغرب أمر مقدر لا مناص عنه ومصير محتوم ليس عنه من محيد. هذا بينما تقوم في أجزاء شتى من هذا العالم أمثله لشعوب أخرى كانت لسنين

قليلة أقل منا شأناً واستطاعت اليوم أن تستكمل نهضتها دون أن تضطر للتخلي عن شيء من إيمانها الذاتي أو تقاليدها الخالدة.

وأول ما يلفت النظر في المجتمعات التي تحققت فيها فكرة الاختلاط بين الجنسين لمدى بعيد كما هي الحال في لبنان، النتيجة التي يتوصل إليها كل من يحَكِّم عقله في الدعاوي الضخمة التي ينادي بها دعاة الاختلاط وحظها من التطبيق في المجال العملي. فدعوى المساواة مثلاً ترتطم بالحقيقة القائمة في كافة المجتمعات الشرقية التي حاولت أن تزج بالمرأة في نفس الميادين التي يشغلها الرجل. ألا وهي طغيان الجانب النسوي وعدم تحقق المساواة المطلوبة في الأخير.

جُلْ ببصرك مثلاً في إحدى المدن الرئيسية كبيروت حيث توجد للاختلاط سوق رائجة، فستجد أن وجود المرأة عامل مهم في بث كافة أوجه النشاط المسرف على صوره الحاضرة. ولعل أول من يستفيد من وجود المرأة هم تجار الكماليات، وكثرة الحوانيت المتخصصة في تعاطي الأغراض النسوية وبيع الكماليات المختلفة تستدعي الإشفاق على الكيان الاقتصادي برمته.

وفي كل مرة أنزل فيها إلى بيروت كنت أفكر فيما يمكن أن يحدث لو قُدِّر لامرأة المجتمع هذه أن تختفي فجأة. قلت لابد أن حوانيت الكماليات ستقل بنسبة كبيرة جداً. وكذلك فإن عدداً كبيراً من المقاهي والمطاعم التي يتيح لها الاختلاط سوقاً رائجة لتبادل النظرات وتجديد المواعيد ستضطر للتوقف. واختفاء امرأة المجتمع سوف يكون خطره عظيماً في الدرجة الأولى على دور الملاهي والمراقص والمسابح العامة والبلاجات والأندية الليلية، أما في الدرجة الثانية فتصاب مخازن العرض وتجار الأزياء بضرر كبير من جراء اختفاء

المرأة التي يمكن تسخيرها لعرض السلع في أوضاع مغرية من فتنة الجسد.

وأصحاب الصحف والمجلات المصورة والجرائد السيارة.. ما شأنهم أيضاً، أن نكبة كبيرة ستحل بهم ولاريب إذا ما قُدِّر لصور الممثلات والراقصات والمغنيات والفاتنات أن تختفي فجأة من الأغلفة والمحلات البارزة من الصفحات، وستفقد قرائح الكتاب «المخنثين» ومروجي الأخبار النسوية والآراء المائعة مادة دسمة يجدونها اليوم في تتبع أنباء ملكات الجمال وفتيات الصالات وإذاعة ذلك على الناس.

وقد يطلب سائل تعداد الإضرار التي ستنتج من اختفاء المرأة من المجتمعات العامة، والجواب لا شيء مطلقاً، كما أن القيام بأية خدمة اجتماعية لايستدعي مطلقاً إشاعة الاختلاط على هذه الصورة الفاضحة التي يجدها المرء في مدينة كبيروت أو غيرها من المدن التي تحذو حذوها. وأنا هنا أتكلم عن مجتمع مفروض فيه أن يمثل الأخلاق العربية وأن يلتزم التقاليد الدينية. والاستشهاد بما يجري في عالم الغرب في غير محله، فللمجتمع الغربي والبيئة الغربية أحكامهما، كما أن لبيئتنا ولمجتمعنا أحكامهما أيضاً. وبالرغم من اشتغال المرأة في المرافق العامة بأجور زهيدة جداً - كما هي دائماً - مما يضر بمصالح الطبقات العاطلة عن الأعمال وما أكثرها في مجتمعنا، فإنها تستطيع مع ذلك أن تعمل في جو من الحشمة بعيد عن عناصر الاستغلال الشنيعة.

وحرية المرأة هي الأخرى لها في المجال النظري معنى غير المعنى القائم في واقع الحياة. إن الحرية في الكتب تعني أن يتاح للمرأة أن تتعلم وأن تعمل في الميادين التي تتناسب وكفاءاتها التربوية أو العلمية أو العملية. ومهما اختلفت الناس في تحديد الميدان الطبيعي الذي يجب أن تشتغل به المرأة، فإنه لا خلاف

مطلقاً في أن أولى واجبات المرأة أن تتعلم كيف تصير أماً صالحة وربة منزل قبل كل شيء. أما في واقع المجتمع فإن الحرية لاتعني أكثر من أن يُسمَح للمرأة بالاختلاط مع الرجل وغشيان المجتمعات العامة وإشباع الرغبة في اجتذاب الأنظار والحصول على الشهرة الزائفة بمختلف الأساليب، حتى لَتجد من شدة تغلغل الأصابع النسوية في المجتمع أن كل حادثة لابد وأن يكمن وراءها سر يرتبط بوجود المرأة من قريب أو بعيد. ولعل المثل المشهور: «فتش عن المرأة» هو أصدق تعبير عن حقيقة الوضع الذي تعيش فيه مجتمعات الاختلاط كلها بدون استثناء.

حقيقة أخرى نسيت أن أذكرها لما تعنيه كلمة الحرية في واقع المجتمع، إنها «العبودية» بأبشع صورها وأحط صفحاتها. وأي عبودية أشد من أن تُستغَل المرأة وتُستغَل معها كل صفات الأنوثة والإغراء، لترويج السلع على واجهات المعارض، أو جلب الزبائن في المطاعم والمقاهي، أو خلق القوة الشرائية في الجمهور لترويج أدوات الزينة والكماليات، أو السعي لترويج الصحف بإثارة الغرائز الجنسية ونشر صور الفتيات في الأوضاع التي تناسب الغرض المنشود. وفي جميع الإعلانات سواء منها التي تضاء بالنيون أو تلصق على الجدران أو تطبع في الصحف تكون المرأة بمثابة «الطعم» الذي يستميل به المعلنون الجمهور أو يستلفتون به الأنظار بشكل صارخ أدْعى إلى تحطيم الأعصاب بفعل الإيحاء الجنسي المتواصل وإطباق عناصر الإثارة الجنسية من جميع الجهات.

لذلك فقد أصبح للحياة الليلية شأن عظيم في مجتمعات الاختلاط، فهي الفرصة التي يركن إليها المجتمع المكبوت طوال أوقات النهار للتنفيس عن رغباته الدفينة. فلايكاد يأتي المساء حتى تنطلق النفوس المحبوسة من عقالها،

وتتعالى أضواء الأندية الليلية بفنون المتعة لكل من يطلبها. إن الحياة الليلية اللذيذة هذه هي الأتون الذي تتبدد فيه الطاقات وتتطاير في سمائه أشلاء الضحايا في مجتمعات الاختلاط التي لاتدرك من معاني الحياة إلا بمقدار ما يتاح لها من متعة سانحة أو لهو مسرف. ولا أريد هنا أن أكرر ما يسمعه كل إنسان من مخازي الحياة الليلية التي تتبرج لها المدينة مساء كل يوم، ولكني لا أنسى أن أشير إلى أن مبالغ طائلة وإرباحاً هائلة يجنيها لبنان كل عام من وراء ترويج أسواق تلك النخاسة البشرية في ظل الحرية المزعومة.

خاتمة:

وبعدُ، فلعل الوقت قد حان للوقوف في نهاية المطاف من هذه المذكرات، لا لأن مادة الحديث قد نفدت، بل لأننا قد وصلنا معها إلى مواضيع ليست في الواقع مما يخص لبنان وحده، إذا الحالة الاجتماعية في كافة أقطار المجتمع العربي قد لاتقل سوءاً عما هي في لبنان. وفي رأيي أن لبنان ما هو في الواقع إلا النموذج مجسم لقصاري ما يمكن أن يصل إليه أي مجتمع عربي آخر يتمادى في السير وراء ركاب الغرب. إنه سيدور حتماً دورة غربية مماثلة أحرى بأن تعتبر خيبة أمل من وجهة النظر العربية والإسلامية.

صوت البحرين ـ يونيو ١٩٥٤

أوراق برتغالية

القلعة :

كلمنا جاء ذكر لقلعة «البرتغال» في البحرين، تشدني الذكريات والصور إلى زمن الطفولة، فأتذكر كيف كانت هذه القلعة المكان المفضل لدي لقضاء عطلة الأسبوع أو «للتزويغ» من الحصص المدرسية في بعض الأحيان، كما أتذكر ما كان يدور من جدل طفولي حول تسمية القلعة.. فقد كان أقرب إلى خيالنا كأطفال أن تكون قلعة «البرتقال»، مسايرة لتمنيات نفسية تعويضية حول هذه الفاكهة التي لاتُزرع في البحرين.. ربما! أما الذين أصروا على أن اسمها الحقيقي هو «قلعة البحرين» فلم نجد نحن الأطفال في تلك التسمية أية جاذبية تشدنا إليها. وكانت شخصية «أبوداود» تستأثر دائماً بمكان في مخيلتي عند الحديث عن أسرار قلعة البرتغال: كنوزها الدفينة، اللصوص والمجرمون الذين يترددون عليها، الأرواح الشريرة التي تسكنها، والأحجار التي تتداعى تحت وطأة الأقدام المريبة، العقارب والحيات، والشقوق المتعامدة على جوانب الأبراج للتلصص على القادمين ومقاومة الغزاة، والأرض المرتفعة التي تنشق عن منخفض سحيق يلف جدار القلعة مثل نهر جفت عنه المياه. وأخيراً تكتمل

تلك الصور الذهنية بجماليات طريق الذهاب والعودة المكتسية بجنائن النخيل وأشجار الثمار اليانعة.

تذكرت قصة «أبوداود» هذا مرات كثيرة بعد ذلك، كان آخرها في صيف عام ١٩٧٢، حيث كنت مستغرقاً في تأمل صورة تاريخية تمثل درعا حصل عليه القائد البرتغالي أنطون كوريره «دي بهريم»، والكلمة الأخيرة تعنى النسبة إلى البحرين أو «البحارنة» وهو اللقب الذي أنعم به ملك البرتغال على القائد المذكور، اعترافاً بفضله في غزو جزيرة البحرين وهزيمة المدافعين عنها بقيادة «مكرم»، الذي لاحقه القائد البرتغالي حتى الساحل الغربي وقتله ثم احتز رأسه. وهكذا خلدت صورة البطل العربي «مكرم» على درع تاريخي يمسك به القائد البرتغالي والدماء تخضب رأسه ولحيته ثم تتساقط إلى الأرض. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي لو أن «مكرم» هذا نجح في صد الغزاة البرتغاليين لَكان قد حال بينهم وبين احتلال البحرين وبناء القلعة، ولَكان بالتالي قد حال بينهم وبين انتهاب الثروات واختزانها بين جدران القلعة، ولكن البحرين كانت ستفتقد مع ذلك أحد المعالم التاريخية المهمة التي تجتذب إليها السائحين وتثير فضول العلماء والمنقبين، الذين كشفوا لنا أخيراً تحت أنقاض القلعة ومِن حولها سر «دلمون» والحضارات الموغلة في القِدم التي نتباهى بها اليوم.

وساعدني صوت من خلفي هادئ النبرات على أن أنتزع نفسي وأفكاري الشاردة من أشجان الصورة الي كنت أتاملها والماضي الذي كنت استرجع أيامه، ليعود إليَّ إحساسي بالزمان والمكان. كنا آنذاك في دار المخطوطات والوثائق التاريخية في لشبونه، يرافقني الوزير المفوض للبرتغال في القاهرة.

ولم يكن ذلك الصوت سوى صوت المدير العام للدار ينهي إليَّ بنبرات من الأسف أنه لم يوفَّق - رغم ما بذله من جهد - للعثور على الملف الذي يحتوي على المخطط الأصلي لقلعة البرتغال في البحرين. ثم أطلعني على مجلد يضم التصاميم الأصلية لعدد كبير من القلاع البرتغالية في هرمز ومسقط وعلى امتداد الساحل العماني كله. وجاملني مجاملة رقيقة حين وعدني بأن يسعى للحصول على تصاميم قلعة البحرين والاتصال بمرافقي وصديقي الوزير المفوض، حالما يوفَّق في مسعاه. ولكن الوزير المفوض نُقِل من القاهرة إلى الدنمارك، ثم حدث الانقلاب العسكري الأخير، ومررت بالدنمارك في الصيف التالي فقيل لي أنه نقل إلى لشبونه ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

البداية والنهاية:

وقصة زيارتي للبرتغال بدأت أثناء زيارة الوزير المفوض البرتغالي لي في مكتبي بالقاهرة. وحين علِمَ عن عزمي على السفر إلى أوروبا في الصيف، اقترح عليَّ أن أمرَّ على لشبونة للتعرف على معالمها وقضاء بضعة أيام في مصائفها الجنوبية التي لاتزال تحتفظ باسمها العربي «الغارف» أي الغرب كما كان العرب يسمونها من قبل. وهكذا وجدت نفسي في أحد أيام شهر آب الحارة أنزل في مطار لشبونة المزدحم على صغره، فيستقبلني السيد «بوشتوس» مُرَحِّباً ثم يساعدني على حمل الحقائب إلى السيارة. وسرعان ما توقفنا عند فندق «ريتز» أشهر فنادق العاصمة البرتغالية، ومن الأدوار العليا في هذا الفندق المقام على مرتفع من الأرض استطعت - من شرفة الغرفة - أن أطل على لشبونة بمعالمها الرئيسية. فإلى اليسار هناك البحر والميناء القديم حيث أبحر «فاسكو دي غاما» بسفينته ليدور حول رأس الرجاء الصالح ويفتح العالم

على مصراعيه للسيطرة البرتغالية التي امتدت حتى جزيزة هرمز وسواحل الخليج العربي.

والنظر إلى الميناء القديم، لايستقيم إلا من خلال الشوارع التاريخية الضيقة التي تنحدر - كما تنحدر مجاري السيول - إلى الساحة المطلة عى الميناء، تلك الساحة ذات الماضي الحافل. فقد شهدت هذه الساحة أفواج المستكشفين والمغامرين جيلاً بعد جيل. بعضهم يودَّع باحتفال مهيب، ثم يعود أو لا يعود. وبعضهم يركب متن الموج نكرة ثم يرجع «عظيما» تتزاحم من حوله الأوسمة والألقاب. أما تلك الشوارع فهي حافلة بمظاهر الحياة لدى سكان لشبونة بمستلزماتها في الليل والنهار. ففي النهار، الحوانيت والمقاهي والحركة والزحام، وفي الليل تتراقص الأنوار حيث الحانات ومرابع اللهو، وتخفت حيث يهجع المتعَبون. وإذا شئت أن تستمتع بالمنظر ليلاً فما عليك إلا أن تصعد مع الصاعدين البرج القريب، فترى المدينة على امتداد آفاقها يتجاور فيها النور مع الظلام والسكون مع الحركة وتجرى الحياة بالساهرين والنائمين معاً مجراها الرتيب، ثم لايزال إحساس الناس رغم ذلك قائماً على أن الأمس غير اليوم.

وأتلفت من شرفة الفندق يميناً فأجد في الأفق البعيد الميناء الجديد، وهناك ينهض مشروع إصلاح السفن «ليزناف» أحد أكبر مشاريع الأحواض في العالم. وهنا أيضاً يمتد البصر عبر جسر ضيق طويل يصل موقع «الحوض» بالعاصمة ويزدحم فيه السير، فتخاله على البعد، شريطاً طويلاً من النمل المتحرك في خط مستقيم.

بعد ظهر ذلك اليوم بدأ برنامج الزيارة وانتهى في بضعة أيام واصلت بعدها

سفري ولم يكن يدور بخلَدي آنذاك أنني سأعمد مستقبلاً إلى تدوين ملاحظاتي عنها، لولا حديث عابر منذ بضعة شهور بيني وبين أحد الشخصيات البرتغالية، تم هذه المرة في مكتبي في البحرين. لقد جاء المسئول في زيارة عمل عادية، وفهمت منه أنه يشرف على تدريب مواطنين من البحرين على إدارة أعمال فنية في مشروع الحوض الجاف. وسمعته يقول - وهو يشد لي يدي مودعا - «ها قد جئنا من البرتغال أخيراً لتأدية رسالة حضارية في بلدكم الجميل» فأردفت مكملاً: وهكذا سيصبح تصحيح أخطاء الماضي أمراً ممكناً. وانتقل ذهني في نفس اللحظة إلى مناسبة مماثلة. كنت فيها أودّع المسئولة في إدارة المكتبة العامة في لشبونة ذات الثلاثة ملايين كتاب. وكانت قد قدمت لي هدية رمزية إظهاراً لمشاعر الصداقة، عبارة عن بضع لفات من أفلام فيها صور مصغرة لوثائق ومخطوطات، كما أطلعتني على بعضها مما تضمه المكتبة كان من بينها - لسوء الحظ - درع القائد كوريره دى بهريم، فارتبكَت لمنظره وقالت وهي مودعة ما معناه: إن هذا المنظر لفظيع وأرجو أن تنقل اعتذارنا عن ذلك لشعب البحرين الصديق، ولا أدري إنْ كنت وعدتها بحمل هذا الاعتذار، ولكن أرجو الآن أن أكون قد فعلت.

حصون للمعرفة:

من حديث القلاع البرتغالية ننتقل إلى قلاع من نوع آخر، إنها قلاع ثقافية تنتشر في أرجاء «لشبونة» وتحتضن إليها المعرفة والثقافة والفن والتكنولوجيا. يقصدها الباحث وطالب العلم، كما يتردد إليها المواطن العادي لإشباع رغبته في المعرفة والاطلاع. وتتمثل هذه «القلاع الثقافية» في المكتبات العامة، والمراكز الثقافية ومعاهد الدراسات، ومراكز الأبحاث العلمية. وليست المكتبة الوطنية

التي وقفنا عندها فيما سبق إلا واحدة من تلك القلاع الشامخة بأدوارها الاثني عشر، والمتباهية بمحتوياتها من الملايين الثلاثة من الكتب والمخطوطات.

كنا ننصت باهتمام إلى المسئولة وهي تحدثنا عن هذه المكتبة ومحتوياتها، وكانت تمسك بيدها اليمنى نموذجاً من نسخة نادرة لأول قصيدة نظمها شاعر باللغة البرتغالية، بينما تلوِّح بيدها لأخرى ممسكة بعدد من المفاتيح، سرعان ما ناوَلتها أحد المكلفين بنا للطواف بالدار. ثم اجتزنا ممراً ضيقاً بين جدارين سميكين لاينفذ إليهما الضوء، وأنا أتساءل عن سر هذا الممر وتلك المفاتيح، وكان يخيل إليَّ إننا باتجاه دخول قسم الودائع في أحد البنوك بدلاً من التجول في مكتبة عامة.

ولكن مُرافقَنا، ما لبث أن إزال تلك الحيرة من ذهني حينما قال - وهو يعالج الأقفال - إن الدور الأرضي من المكتبة والذي يليه مقفلان أمام الزائرين إلا بإذن خاص وترتيب مسبق، فهما يحتويان على كتب ومخطوطات نادرة. كما أنهما محصنان بوسائل خاصة ضد الحريق والرطوبة والحشرات والغبار، حفاظاً على ما بهما من نفائس. وسألت مرافقنا - ونحن نتجول ببطء شديد بين تلك الصفوف المتراصة من الكتب بعضها مسند إلى الرف وبعضها ممدد - فيما إذا كان هذا القسم يضم كتباً أو مخطوطات باللغة العربية، فرد بالإيجاب وناولني من المخطوطات القريبة كتاباً في الطب باللغة العربية من العهد الأندلسي. وكانت الصفحة التي فتحتها تتحدث - صدفة - عن علاج الأمراض الباطنية وعسر الهضم. وفي قسم آخر وجدتهم يحتفظون بنسخ من جميع الصحف والمجلات التي تصدر باللغة البرتغالية أينما كان مصدرها. ولم اختبر بنفسي مدى السرعة التي يتم فيها استخراج صحيفة ما في تاريخ ما في

تاريخ محدد، ولكني في قاعة المطالعة الأخرى المخصصة للكتب فعلت ذلك. والعملية تتم بصورة تلقائية سريعة، يستلم منك المأمور بطاقة الكتاب المطلوب ويضعها في إحدى الفتحات فتعود البطاقة في أقل من دقيقتين ومعها الكتاب المطلوب. ويضاء زر أحمر على المكتب الذي تجلس إليه ثم ينطفئ النور بعد إعادة الكتاب إلى المأمور. وبينما كنت مندمجاً في عملية الاختبار هذه حانت مني التفاتة إلى الوزير المفوض وهو يتطلع خلسة إلى ساعته، وفهمت من هذه البادرة «الدبلوماسية» أن الوقت قد شارف على الانتهاء.

إن السيد «بوشتوس» دقيق في مراعاة الوقت بدرجة بالغة، ولا أتذكر أنني تواعدت معه على لقاء وحضرت مستعجلاً الموعد بضع دقائق، إلا وجدته جالساً في الصالة يستقبلني بابتسامته المعهودة. وهكذا فعل بعد ظهر ذلك اليوم، وكان أمامنا موعد لزيارة أخرى. وبإشارة منه إلى السائق توقفت السيارة عند شباك للتذاكر، فنزلنا وناولني تذكرة دخول قائلاً: أنا أعلم أنكم معتادون في بلادكم على الراحة بعد وجبة الغذاء، ولدينا من الوقت متسع للتجول في حديقة عامة ذات طابع خاص يتوفر فيها الهدوء والراحة للأعصاب المجهَدة ريثما يحين الوقت لموعد الزيارة القادمة.

ودخلنا الحديقة، وهي أشبه ما تكون بغابة مستأنَسة، تكتنفها الظلال وتتفجر من خلالها جداول المياه، ويتسلل إليها ضوء الشمس من خلال شباك مرفوعة توزعه على المكان بقدر. وبين شدو الطيور، وتعانُق الأغصان والظلال تنتقل بك الخطى إلى عالم سحري جميل. فإذا ما استسلمت أثناءها لحلم، فهو عندئذ حلم يقظة لا منام. ورواد الحديقة معظمهم من الشبان والشابات يتنزهون فيها فرادى وأزواجاً. ولكنك مع ذلك لاتسمع منهم لغواً. ولاتحس

بينهم لهواً ومرحاً كما يفعل الشبان في سنهم، ولاتملك نفسك من التساؤل: فيم يفكر هؤلاء وبم يتهامسون. أفي الحب أم في السياسة أم في مشاغل الحياة؟ وجهت هذا السؤال إلى مرافقي «الدبلوماسي» فلم أجد عنده الجواب الشافي، ولم أتصور أن المناظر المتجددة أمامنا على خط السير سوف تتيح لصاحبي فرصاً كثيرة لتغيير مجرى الحديث، فهاهنا أشجار استوائية نادرة، وهناك أزهار من مختلف بقاع العالم. وتلك الثمار أفريقية وهذه شرقية، ولكل من هذه وتلك حديث لايمل. وقلت في نفسي إن صاحبي يتجنب حديث السياسة وإن في الأمر لَسراً سوف تكشفه الأيام. ومن يسمع أو يشاهد أحداث البرتغال اليوم لايصدق ما كان عليه الحال قبل ذلك.

السيد خمسة بالمائة:

المباني الضخمة تمتاز عادة بمداخلها الأنيقة المتعالية عما حولها من بناء. ودار مؤسسة «كوبلنكيان» الوقفية واحدة من تلك المباني الشامخة في مدينة لشبونة. ومن عاداتي في السفر الوقوف لحظة تأمل أمام هذه المداخل الضخمة والسلالم العريض وأخذ صورة تذكارية. ولكني هذه المرة كنت مشغولاً بشيء آخر، فأمامي خمس دقائق قبل موعد الزيارة لمقابلة رئيس مجلس إدارة المؤسسة، علي أن أستذكر أثناءها - جهد الإمكان - بعض المعلومات التي زودني بها مرافقي عن هذه المؤسسة.

إن قصة المليونير الأرمني كوبلنكيان الملقب بالسيد «خمسة بالمائة» لمشاركته في حقوق امتياز شركة نفط العراق، قصة مشهورة، وقد شاءت الأقدار أن تفاجئ المنية كوبلنكيان هذا وهو في البرتغال. وهكذا وجدت حكومة البرتغال نفسها بعد وفاته، قيِّمة على ممتلكاته وثروته الكبيرة. فشكلت مجلس وصاية

تقي البحارنة

138

صدى الأسبوع

لإدارة تلك الشركة وتنفيذ أحكام الوقفية التي تنص علي استثمار الأموال الموقوفة وإنفاقها في تشجيع الدراسات والأبحاث والمعاهد العلمية وتقديم المنح الدراسية والهبات للسكان من الأرمن، وبلدان الشرق الأوسط. ورغم قرار الحكومة العراقية في السنوات الأخيرة تأميم حصة الخمسة بالمائة العائدة لشركة كوبلنكيان، فان الأموال التي يستثمرها مجلس إدارة الشركة تزداد وفراً عاماً بعد عام. ويبلغ إنفاقها على المنح الدراسية وما شابه سنوياً أكثر من ٦ ملايين جنيه، ولها قدرة على زيادة الإنفاق لتوفُّر الأموال لديها. وكما يقال فإن إمكانياتها المالية تزيد عن إمكانيات مؤسسة «فورد» المشهورة! وفي البرتغال ذاتها تساهم المؤسسة في عدد كبير من المشاريع العلمية ومراكز الأبحاث مثل المختبر القومي لأبحاث الهندسة المدنية، وهو كما يقال ثاني مختبر من نوعه في أوروبا.

أما في خارج البرتغال فمؤسسة كوبلنكيان الوقفية تساهم في إنشاء وبناء المتاحف في بلدان الشرق الأوسط، كما تساهم - والعهدة على الراوي - بمبلغ مليون دولار سنوياً في موازنة منظمة «الأونروا» لصالح اللاجئين الفلسطينيين وفي منظمة اليونسكو. وتقدم منحاً دراسية لعدد من بلدان الشرق الأوسط تربو على أربعة آلاف منحة.

ورئيس مجلس إدارة المؤسسة رجل طاعن في السن نال منه الزمن ما يشتهي فأعجزه عن الحركة وأضعف منه السمع والنظر، ولكنه لم يفقده مع ذلك القدرة على تدبير أمور هذه المؤسسة الوقفية التي كرس حياته من أجلها. قال لي وهو يصافحني بيد مرتعشة ويعالج الكلمات بصوت غير واضح إن هذه المؤسسة مستعدة لبحث إمكانية قبول عدد من طلاب البحرين على نفقتها

للتخصص في أنواع الدراسات والأبحاث العلمية والتدريب في مجالات معينة كالمستشفيات وغيرها. ولم يسعني إلا أن أشكره على هذه اللفتة الكريمة، مستأذنا إياه لزيارة المؤسسة وأقسامها. لقد توفي هذا الرجل بعد ذلك بعام.. ولكن مؤسسة كوبلنكيان الوقفية ستظل قائمة تؤدي دورها بصمت في خدمة المجتمع في البرتغال وخارجها.

وتشغل الدار جزءاً كبيراً من الأرض وحدائق متناهية السعة ففيها الملاعب والمتنزهات ومسارح التمثيل الصيفية، وكل ما يشجع هواة التمثيل والفنون الجميلة. ويضم البناء الضخم - عدا مكاتب الإدارة - المتحف الخاص لكوبلنكيان والذي تعرض فيه أجمل وأثمن أنواع السجاد الإيراني الفاخر واللوحات الفنية والتحف النادرة. كما يضم البناء عدا ذلك مكتبة كبيرة ومسارح شتوية وقاعات للمحاضرات ولمزاولة الأنشطة الأدبية والثقافية والفنية. وفي البناء أيضاً مطاعم ومقاه، وكل ما يحتاج إليه الرواد من وسائل الترفيه والمتعة.

حديث الأوراق:

الأوراق الصفراء المحشورة بين الأدراج وفوق الرفوف أو المستعرضة في الخزائن الزجاجية وكأنها المومياء، هذه الأوراق - رغم صمتها الطويل - يمكنها أن تتكلم لو وجدت إلى ذلك سبيلا. إن دار المخطوطات والوثائق الرسمية في لشبونة، لاتصل إليها عادة أيدي الباحثين، كما أن المكتبات العامة والمعاهد تضم مجموعة كبيرة من الأوراق التي تتحدث عن الخليج في الفترة التي عاصرت الوجود البرتغالي. ولاشك أن دار المخطوطات الهندية في «جواب تحتوي أيضاً على عدد كبير من الوثائق المهمة، وليست تلك الأوراق مقتصرة

كلها على المكاتبات العسكرية وجباية الضرائب وتوفير المؤن والذخائر، فلابد أن عدداً منها يتناول مباشرة أو عرضاً، ما يتصل بالناس - ناس الخليج - وأحوالهم ومجتمعهم من قريب أو بعيد.

لنأخذ مثلاً هذه الورقة الرسمية التي ترجمها لي على عجل، الوزير المفوض والتي تقول: إن سفيراً من البحرين وصل إلى هرمز فاستضافه الحاكم ثم عاد محمَّلاً بالهدايا ومن بينها «خمسة أكياس من الأرز»، ثم علق على ذلك مبتسماً «يبدو أن السفراء كانوا محظوظين في ذلك الزمان». ورسالة أخرى من حاكم هرمز مكتوبة بخط عربي جميل - لعله سرَّبها إلى حكومة البرتغال دون علم من القائد البرتغالي في هرمز - يقول فيها إن القائد البرتغالي قد اختار بيت العائلة الحاكمة ليبني فيه قلعة. ثم يقول إن هذا البيت هو بيت العائلة العتيد وهو تراثهم من آبائهم ولايمكنهم التفريط فيه، لهذا فإنه يعرض بدلاً منه استعمال مسكنه الخاص لبناء القلعة.

أما المؤلفات البرتغالية فتذكر أن البرتغاليين كانت لديهم فكرة جميلة عن البحرين.. جزيرة كبيرة جداً.. فيها ماء كثير وفاكهة ونخل وزرع. وهناك ثلاثة مخطوطات في المكتبة العامة تحدثت عن البحرين:

المخطوطة الأولى: ورد فيها فصل عن البحرين وتحدث عن مساحتها وأهميتها، وأن فيها ثلاثمائة قرية، وهي غنية بالتمر والتين والرمان والخوخ والبساتين المثمرة. وفيها بيوت من حجر، وتجتاحها الأوبئة من سبتمبر إلى فبراير، وهي كثيرة الأسماك، وأهم أنواع السمك وفرة النوع المسمى بـ «الجفرش»، ويستخرج اللؤلؤ في لبحرين وموسميه من شهر

يونيه إلى أكتوبر. وهو أجود أنواع اللؤلؤ حجماً ولمعاناً. ويقدر إنتاج اللؤلؤ والسمك بـ ٥٠٠ ألف «كروشدوش».

والمخطوطة الثانية: جاء فيها أن البحرين هواؤها طيب وفيها أمراض وبحرها فيه صخور خطرة وفيها مياه معدنية، والمياه العذبة غزيرة وفيها قلعتان ومياه حلوة. وإن فيها ستمائة سفينة. وكان لحكام شيراز فيها حامية، وفيها سجن.

كما تتكلم المخطوطة الثالثة عن ملك شيراز وأن أهل البحرين يدفعون ٠٨ ألف «بازاتاس»، وهي عملة هندية، مقابل السماح لهم بصيد السمك «الجوفرا» فقط، وأن عندهم ستمائة سفينة، وهي جزيرة غنية باللؤلؤ. ويدفع أهلها للفرس ضريبة ولكنهم يفضلون ملك هرمز على الفرس ومن الأسماء التي ورد ذكرها اسم «الشيخ بوشاقه والشيخ إسماعيل».

وفي هذه المخطوطات الثلاث التي كتبت حوالي عام ١٧٠٠ ميلادية ذكر للماء «الشريبة» وسمك باسم «جيبو» وإشارة إلى تجارة كانت قائمة بين البحرين والبرتغال في الأقمشة.

إن معهد الدراسات الأفريقية والشرقية في لشبونة يشرف عليه أستاذ متخصص لقيت أبحاثه التاريخية عن الخليج اهتماماً خاصاً من الباحثين إنه الأب البروفيسور «داسيلفا ريجو»، ومنذ ثلاث سنوات تقريباً ألقى في البحرين أحد أساتذة التاريخ من جامعة شيكاغو هو الدكتور «دونالد لاش» محاضرة عن الفترة البرتغالية، وأشار إلى الأب «ريجو» وأهمية أبحاثه عن الوجود البرتغالي في الخليج، كما ذكر في محاضرته أن مصادر برتغالية تشير إلى أن البحرين

كانت تضم أكثر من قلعة برتغالية، ومصنعاً «أو مركزاً تجاريا» وكنيسة. وقد زرت الأب البروفيسور «داسيلفا ريجو» في معهد الدراسات الأفريقية والشرقية، كما قام بزيارتي قبل مغادرتي لشبونة. وكان محور الحديث هو استعداد هذا المعهد لتقديم كل ما يملك من تسهيلات لحصر وترجمة الوثائق المتوفرة في البرتغال عن الخليج وعن البحرين بصفة خاصة، وقد سلمني البروفيسور «ريجو» مشكوراً مذكرة تضم ملخّصاً لأفكاره بهذا الشأن.

وأخيراً، وعلى هذا النحو مضت بنا الجولة في وقفات قصيرة حول الأوراق الصفراء قد لاتفيد البحث العلمي كثيراً، بقدر ما تُشبِع حب الاستطلاع. فالصعوبات التي تعترض الباحث كثيرة. إنها اللغة ودقة المعلومات والربط بين الأحداث. وبالاختصار إنها ستار كثيف يحتاج الكشف عنه إلى المزيد من الصبر وسعة في الإمكانات وتعاون بين جهات عدة.

ولايكتمل الحديث عن معهد الدراسات الأفريقية والشرقية في لشبونة بدون الإشارة إلى الأستاذ «دياس فرنها» فهو بدوره أستاذ في هذا المعهد، أظهر تحسماً كبيراً لترجمة المخطوطات البرتغالية إلى العربية فيما يختص بالخليج، وشوقاً إلى زيارة منطقة الخليج العربي والتعرف عليها.

والأستاذ «فرنها» شاب متخصص في الدراسات الشرقية وزار القاهرة ومكث في الأزهر وتعلم العربية، وهو في قراءتها أقدر منه على نطقها، ومع ذلك فإنه لايتردد كلما سنحت مناسبة لإسماعي بعضاً مما حفظه ولاسيما من كتاب «الأيام» للدكتور طه حسين. سألته مرة عن معني كلمة «القطيفة» وكانت مكتوبة علي محل يقع على طريقنا في الذهاب والإياب فقال إنها تدل على نفس المعنى في العربية، ولابد أن صاحب المحل يبيع الأقمشة، ثم أضاف إن معظم الكلمات

البرتغالية التي تبدأ «بأل» هي عربية الأصل. ومنذ تلك اللحظة وهو يستعرض معي المفردات البرتغالية وأنا أحاول معه إرجاعها إلى أصلها العربي. فالزيتونة «زيتون» والدماسكوس «مشمش» نسبة إلى دمشق، والكستناس «كستناء» واللارنج «البرتغال» والتمرة «التمر» وملها «ملاية - ملفع» ... الخ.

وكثيراً ما تحين فرصة لحديث عام فيتحدث الأستاذ «فرنها» عن عواطف الشعب البرتغالي نحو العرب، ثم يلوم أجهزة الإعلام العربية على تقصيرها في إطلاع الرأي العام في البرتغال على الحقائق المطموسة تحت سيل الدعاية الصهيونية الطاغية، التي تخاطب الشعب البرتغالي بلغته بينما لاتفعل الأمة العربية مثل ذلك رغم توفر الإمكانيات لديها.

كان العرب يسمون الجزء الجنوبي من البرتغال «بالغرب» نسبة إلى مواقعهم في إسبانيا، ولاتزال هذه التسمية قائمة إلى اليوم. وساحل الغرب يقصده أهل البرتغال كما يقصده غيرهم من السائحين يُهرَعون إليه من صخب المدن ويستمتعون فيه بالراحة والاستجمام وممارسة الرياضة. والمعالم التاريخية في «الغرب» معظمها من آثار العرب، حيث يتجلى الطابع العربي في بقايا الحصون والقلاع المشرفة على مفارق الطرق والمطلة على الموانئ الصغيرة في طول الساحل، ويتجلى الطابع العربي أيضاً في أسماء الأماكن والقرى وفي طراز البناء.

لقد بدأ العصر «الذهبي» للبرتغال بمغامرات العديد من المستكشفين الذين مروا عبر ساحل «الغارف» فحملتهم متون الموج المظلم إلى حيث الشهرة والثراء أو المركز والجاه، كما نقلت العديد منهم إلى مصائر مجهولة. وقد بقي للبرتغال - بعد غروب الشمس عن ممتلكاتها - ما يذكرها بذلك التاريخ المثقل

بالأحداث. إنها أغاني «الفادو» الشعبية ذات النبرة الحزينة، والفادو تعني «المصير المجهول».. مصير أولئك الذين حملهم الموج وآخر ذكراهم تلك الأناشيد الحزينة ترددها امرأة يلفها السواد، ربما كانت زوجة أو أماً أو أختاً أو كل هؤلاء مجتمعين. وقد استمعت إلى أغاني «الفادو» المثقلة بالحزن والأسى وأدهشني ما قيل من إنها جاءت مع العرب وإن منشأها عربي.

وتحت ظل شجرة وارفة الظلال فوق ربوة تطل على الشاطئ وألحان «الفادو» تنساب مع النسيم، جلست أتامل المنظر الساحر وتفكيري يشدني إلى ذكريات الأمس القريب في لشبونه، ويمتزج حديث الأوراق الخضراء الهامسة من حولي بمعاني الحياة وسرها العظيم، بحديث الأوراق الصفراء المتعطشة للنور والهواء. ولكن نداء البحر يلح عليَّ بأن أطوي تلك الصفحات لأبدأ اليوم الأول من إجازة الصيف.

صدى الأسبوع ـ العدد ٢٨٢ ـ ١٩٧٥

١ـ ذكريات الجناح الطائر

عندما تفتح الطائرة أبوابها لاستقبال المسافرين، ويشق كل منهم طريقه وسط الزحام إلى المقعد المخصص له، خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة التي تعد بالدقائق أو بالثواني، تتصارع في نفس المسافر مشاعر ونزعات تذكيها الغريزة ويؤججها القلق وعدم الاستقرار، ولاتزول إلا بعد أن يستقر في أحشاء ذلك المقعد الصغير، وتستقر معه حاجاته من حوله وتحت قدميه أو من فوق رأسه. عندئذ ينتاب المسافر شعور من قام بترتيب البيت وتنظيم الأولويات التي تتوارد على ذهنه.

وعندما يربط الحزام من حوله، فإنه يختلس نظرات جانبية نحو الجالسين عن يمينه وعن شماله - وهو يسترجع أنفاسه اللاّهثه - محاولاً أن يقيم علاقة ما، بينه وبين ما يدور حوله من حركة وتموُّج واضطراب. وقد فعلت كل ذلك، لكني لم أدرك أن الشخص الجالس بجانبي على المقعد المجاور غريب الطباع، شاذ التصرف، إلا حينما رفع عقيرته بالغناء بصوت فاضح فتلفت الركاب نحوه مندهشين وارتعشت أطباق الطعام في أيدي المضيفات، ولم ينس أي منهم أن يسترد نظراته الحائرة تجاه هذا المشهد، بالتفاتة سريعة نحوي تحمل معنى الرثاء. والغناء بصوت أجش ضريبة لايتحملها الإنسان، فكيف به إذا جاء بلغة

تقي البحارنة

146 بانوراما

غريبة كالصينية، ونبرات «متحشرجة» ثقيلة على السمع.

وشخصية هذا الصيني الذي ناهز بعمره الستين وطاول بجسمه التنين، أثارت لديَّ الحيرة والفضول، فهو يقرأ دائماً في نفس الصفحة من جريدة مطوية، ثم يكتب شيئاً، وتخاله مستغرقاً في شأنه، حتى تبدو منك بادرة أو تصدر حركة، فيتوقف عمّا هو فيه متلفتاً، ويتخذ وضعاً كأنه في حالة دفاع عن النفس.

لقد أقام من حوله سياجاً وهمياً، وحدوداً مصطنعة، وصرت أتوقع منه هجوماً مضاداً كلما أوشكتُ على القيام بحركة تخرق جانباً من ذلك الحاجز الوهمي، وسرعان ما يسألني بلهجة حازمة: ماذا تريد أن تفعل؟!

ذكرني هذا الجار المتربص بحرية الجالس بجنبه بما قيل في تعريف الحرية بأنها تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين، وتصورت كيف يكون وضع البشر لو تمسك كل واحد منهم بما يعتبره حقاً له، لايحيد عنه قيد شعرة. ثم أدركت ما يفعل التسامح بالناس حين ينزع عنهم ثوب التنمُّر ويقيهم شرّ النزاع فيما لايجدى ويوفر عليهم حدَّة القول وغلظة التصرف وتعب الأعصاب. واجهته مبتسماً وسألته إنْ كان مثلي قاصداً «سنغافورة» فأجاب أنه ذاهب إلى اليابان، لكنه نزل معي من الطائرة ثم اختفى.

— — —

وتكلم مرافق لي في سنغافورة عن المجتمع هناك، فهو خليط من أصول وأجناس وطوائف يغلب عليها الطابع الصيني، فالماليزي، فالهندي، فأقليات صغيرة. ودار الحديث عن أهمية التعايش والانسجام بين كافة الجنسيات

والأديان في المجتمع الواحد، بل يخيل إليّ أن التوازن هو العنصر الأساسي في الاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي، الذي يعيشه المجتمع في سنغافورة. فهم يتمسكون بالنظام القائم كنوع من الأعتراف بالجميل، لأنه في نظرهم النظام الصالح الذي حقق إنجازات واسعة في شتى الميادين.

وإذا تدخلت الدولة في شئون أية طائفة لتحقيق مصلحة عامة، فإن هذا التدخل يكون غالباً من خلال مصلحة تلك الطائفة ذاتها. وقال لي مرافق آخر من المسلمين، إن الدولة حفاظاً منهاعلى حماية المسلمين من اللجوء إلى جمع التبرعات من الخارج لبناء المساجد والمؤسسات الإسلامية، قد فرضت على كل مسلم دولاراً من راتبه شهرياً تضيف إليه من عندها المثل، وإن المسلمين تجاوباً منهم مع هذه الخطوة التنظيمية يفكرون في رفع هذا الرسم إلى الضعف. وتفرض الدولة رسوماً على الدخل الفردي ورسوماً كبيرة على السلع الاستهلاكية والكمالية لاسيما الخاضعة منها للحماية التشجيعية، بينما تعفي باقي السلع - والأطعمة خاصة - من الرسوم.

ويمكن للمتتبع أن يكتشف جوانب كثيرة من ظاهرة المحافظة على التوازن الاجتماعي سواء في الأمور الهامة أو العادية. وأنت إذا أدرت جهاز التلفاز مثلاً ستلاحظ أن البرامج تختتم بثلاث لغات: الصينية والماليزية والهندية، فيما تتلى للمسلمين آيات من القرآن الكريم.

ويلاحظ الزائر قلة الفوارق وانعدام المشاعر العدائية بين السنغافوريين رغم اختلاف أصولهم وأديانهم، ويكتشف بسرعة طغيان المصالح التجارية والمنافع المتبادلة على القضايا السياسية العامة، لَكأن السنغافوري منزوع الهوية منزوع الانتماء. إنه تاجر بيّاع أو مستثمر أو صاحب مهنة، والآخرين

زبائن، والبلد حانوت كبير، والدولة مؤسسة إدارية حازمة وهم مستخدَمون فيها، ولهذا فالدولة يهمها المحافظة على النظام والانسجام ورعاية هؤلاء العاملين فيها والاعتراف بحقوقهم ورغباتهم المشروعة، لكي يواصلوا العمل باطمئنان ولكيلا يهتز النظام من أساسه أو يلتهمه الحوت، إذ إن سنغافورة يجاورها عدد من الدول الكبيرة تفوقها حجماً وقوةً وسكاناً، ولكنها تتخلف عنها بدرجات متفاوتة في ميدان التقدم. ويصوِّت المواطنون كلما جاءت مناسبة للتصويت غالباً بجانب الحزب الحاكم، ويؤيدون مرشحي الحكومة في نقابات العمال والمجالس الأخرى. وينتهي كل شيء هكذا ببساطة وينصرف كل مواطن بعدها إلى عمله، لا مطامح سياسية بعيدة، ولا انتماءات خارجية معوقة للمسيرة، حتى إن الصينيين وهم الكثرة الغالبة يكتفون بالطابع الثقافي والاجتماعي والعلاقات الطيبة مع الجيران، وعلى شاكلتهم يفعل الماليزيون، وهجرتهم مستمرة من ماليزيا المجاورة للعمل أو للإقامة، كما يكتفي الذين هم من أصول هندية والأقليات المسلمة والعربية الأصل وغيرهم بما في أيديهم.

إن مهندس هذا النظام الفريد والساهر عليه هو رئيس الوزراء الوحيد المشهور «لي كوان يو» فهو في سنغافورة قد صار رمزاً وطنياً خالداً، وفي خارجها نموذجاً للكياسة والحكمة وأستاذاً في السياسة الداخلية والدولية، حسب اعتراف زعماء السياسة في العالم. وحينما تقرأ عن اختصاصات مكتب رئيس الوزراء في سنغافورة فأنت تجد أنها تشمل: جهاز مكافحة التلوث، مكتب التحقيقات لمكافحة الفساد الإداري، أمناء مكاتب المقاطعات، ثم إدارة الانتخابات. وتهتم تلك الدوائر والمكاتب بشئون مجلس

الوزراء، والشئون الدينية والعدالة والسلام، ونظام الأسبقيات، والأوسمة، والعلم الوطني ولجان المواطنين الاستشارية، وأخيراً مجلس المنافع العامة. ويباشر الوزراء مهامهم الوزارية الموكلة إليهم. كما يحكم سنغافورة برلمان ديمقراطي ورئيس جمهورية.

— — —

وبعد، فقد كانت تلك الملاحظات هي مما دونته عن سنغافورة في إحدى زياراتي لها منذ ثمانية أعوام تقريباً، كان مبعثها تصرفات ذلك الصيني الذي شنَّف الآذان بالغناء في الطائرة، وهي لاتعني أنني أكتب عادة ملاحظاتي أثناء السفر، كما لاتعني أيضاً أنني سيء الحظ دائماً مع من يجاورني، ففي إحدى المرّات قبل ذلك بخمس سنوات تقريباً وجدت نفسي في المقعد المجاور لسيدة أمريكية أثناء سفري في أمريكا. كانت مديرة مدرسة. لم نتحدث لفترة طويلة لكني كنت أختلس النظر إلى كتاب في التربية عاكفة على قراءته، ولعلها كانت تختلس النظر أيضاً إلى ورقة كنت أُشغِل بها وقتي، ثم وضعت الكتاب الضخم وكأنها ملت كثرة القراءة فأستاذنتها في تصَفُّح الكتاب، ثم قلت: إذا كان حدسي صحيحاً فأنت مدرسة، فقالت نعم، مديرة مدرسة لكني لن احتاج إلى الحدس وأنا أنظر إلى حقيبة يدك، فهي حقيبة تاجر أو رجل أعمال. وظننت أن جوابي بالإيجاب سيعجبها أو يثير فضولها، لكنها هزت رأسها بتعجُّب وقالت إن آخر ما تصورته رجل أعمال يهتم بقراءة كتاب في التربية، وشرحَت فكرتها عن رجال الأعمال فهم يعيشون في عالم ضيق لاتهمهم إلا المادة والمصلحة، لغة الأرقام هي التي يفهمونها، أما شئون الفكر والأدب والثقافة فهي على

الهامش من تفكيرهم، ثم استشهدت بالورقة التي أكتب فيها وقالت لابد أنني أدوِّن فيها تقارير عن الصفقات التجارية، لكني أوضحت لها أنني لست من أمريكا وأن أحكامها لاتنطبق على المحيط الذي عشت فيه، وأن من بين التجار ورجال الأعمال في بلادنا نسبة كبيرة من المهتمين بالثقافة والأدب وشئون الفكر، كانت في يوم من الأيام رائدة اليقظة الأدبية ومسيرة التطور. أما أنا قد كنت منذ برهة مشغولاً بكتابة أبيات من الشعر ليس إلا. وكان ما قلته مفاجأة لم تتوقعها فطلبت مني أن أقرأ عليها ما كتبت. وقرأت أبيات الشعر على مهل - وهي تكتب بالإنجليزية ما حسبتُه بعض الملاحظات، ولما انتهيت لم تسألني عن معناها بل عن اسم قائلها.

فأخبرتها أنها لشاعر مشهور في لبنان هاجر إلى أمريكا اسمه «إيليا أبوماضي» فكتبت اسمه ثم قالت: «سأعيد عليك قراءة الأبيات بلغتكم ثم أعطني العلامة التي أستحقها». ودهشتُ حين سمعتها تقرأ الأبيات كما قلتها بحركات الإعراب ذاتها، وهي:

وطـــن النجـــوم أنـــا هـــنا
حـــدّق أتذكـــر مـــن أنـــا؟
أَلَمَحْـــتَ في الماضـــي البعـــيد
فتـــــىً غريـــــراً أرعـــنا
جـــذلان يمـــرح في حقولـــك
كالنســـيم مـــد ندنـــا

يتسلق الأشجار لا ضجراً
يحس ولا ونى
ويعود بالأغصان يبريها
سيوفاً أو قِنا
ويخوض في وحل الشتاء
مهلهلاً متيمِّنا
لا يتَّقي شر العيون
ولا يخاف الألسنا
ولكم تشيطن كي يدور
القول عنه: تشيطَنا

ثم شرحت لها - ما وسعني الشرح - معاني الأبيات فراحت تكتبها بشغف بالغ وكأنها تستكشف ماضي طفولتها من خلال معاني الشعر الشفافة.

ثم قلت: إنْ كان ذلك منك لإظهار موهبة فأنت أستاذه بحق، وإنْ كانت مجاملة فإنها خير من ألف اعتذار. ثم نزلت وواصلت سفري والأبيات عالقة بذهني ومازالت، أردّدها كلما حانت مني التفاتة إلى عهد الصبا وزمن الطفولة.

— — —

من المؤكد أن جمال الطبيعة في لبنان لايقارَن بالبحرين، ومع ذلك فإن

الطبيعة لم تبخل بجمالها على البحرين، فقد كتب أحد المؤرخين البرتغاليين في القرن السابع عشر عن البحرين، وذكر أنه كان فيها ثلاثمائة قرية وهي غنية بالتمر والتين والرمان والخوخ والينابيع العذبة. كما تكلم آخر عن استخراج اللؤلؤ منذ ذلك الوقت، وأنه كان في البحرين آنذاك ستمائة سفينة. ومعظم هذا الوصف ينطبق على البحرين خلال الثلاثينيات حينما كنت صبياً، ولا أبالغ إذا قلت إنني آنذاك - ومن هم على شاكلتي من الأطفال - كنا نفعل ما فعله الشاعر إيليا أبوماضي في صباه بما في ذلك الخوض في وحل الشتاء. وكانت مدينة «المنامة» التي نشأتُ فيها مرتمية في أحضان هلال خصيب يُسنِدها تجاه البحر من حافتها الجنوبية. بل إن المنامة نفسها كانت تنتشر بين بيوتها جزائر من الواحات والبساتين تعرف «بالدالية» أمثال دالية كانو والمؤيد وبن رجب وذلك بجانب حديقة الحيوان المشهورة «الباغشة».

وبينما كان أهل المنامة المقيمون تجاه الساحل يُهرَعون إلى هذه الدوالي في معظم الأوقات بترحيب من أصحابها، فإن الآخرين كانوا يفزعون إلى الهلال الخصيب من البساتين وعيون المياه بعد انتهاء أعمالهم. وكان حيّنا «الفريق» يعرف باسم «المِشْبِر» نسبة إلى جدول صغير من الماء يصله من القلعة «ماء شبر» أي بعمق شبر واحد كما تذهب التسمية. وكانت تلك البساتين على مرمى حجر تقريباً، فكنت أذهب إليها كلما سنحت الفرصة فرداً أو مع مجموعة من الأولاد. كنّا نلوّح بالعصي ونردد ما كان يردده آنذاك مجموعات البدو «الفداوية» في «العرضة»: علموني «النّفك» وأنا صغير «أي استعمال البندقية».

ولم يكن المارة ولا راكبو الحمير المحمَّلة بمحاصيل المزارع، ولا الفلاحون داخل المزارع نفسها مرتاحين من هذا المشهد، فلم ينظروا إلى الأمر على أنه

مسيرة طفولية ساذجة بل مسيرة شياطين يستحقون التأديب. ويستمر هذا الاختراق الصبياني حتى غايته عند عين «أم الشعوم» مروراً بصخرة «أم حمار» التي تكثر الخرافات عنها، وكان متداوَلاً أنها تنقلب إلى حمارة تطرق الأبواب في الليل وتأخذ الأولاد الشياطين، لذلك كان التوقف عند هذه الصخرة هادئاً أشبه بمراسم أداء السلام والتحية اتقاءً لشرها. ومثل ذلك كان مشوار العودة لكنه يتّسم بالعدوان على ما يسنح من الثمار والمحاصيل لإشباع البطون الصغيرة الجائعة.

مزرعة «العرَيِّض» في طريقنا كثيراً ما كانت تتيح للأطفال أكل الخس والطماطم والرطب دون مقابل، إلا أن صاحبها الكبير منصور العريض كثيراً ما يوبخنا ويحذرنا من الاعتداء على الهنود «البانيان» الذين كانوا يغتسلون عادة من الغدير «الكوكب» القريب منها، كما يؤنب على مرافقة جنائز الموتى منهم المتجهة نحو «المحرقة» والتشنيع عليهم بعبارات مثل «رام رام مَرْكِيا». أما ملاذي المفضل فقد كان بستان «المِدِيْفِع»، كنت أزوره بمفردي دون معارضة الحراس بسبب العلاقة العائلية، وكنت أحياناً أقضي فيه اليوم بكامله مستمتعاً بالمرح واللهو في أحضان الطبيعة الهادئة وبين وشوشات الطير. لقد شب في هذا الميل منذ الصغر حتى أصبحت ولا أزال أتعمد اختيار المصائف الهادئة على ما عداها. وحتى هذا اليوم كثيراً ما ينتابني ذلك السرور الطفولي الغامر في أحلام اليقظة والمنام.

عدد فبراير ١٩٨٧

ـ ٢ ـ أولاد الحارة

وصف الشاعر الجاهلي «امرؤ القيس» في معلقته المشهورة حصانه المشهور بالكرّ والفرّ..

«مِكَــــرٍّ مفـَــرٍّ مقبـلٍ مدبـرٍ معاً

كَجِلْمُودِ صخْرٍ حطَّه السيلُ مِنْ عَلِ»

كما وصف سرعة عدو الحصان في اللحاق بالصيد بقوله:

«فألحقَـــنا بالهاديـات ودونــه

جواحــرها في صــرَّة لــم تُـزَيَّـلِ»

ويتعلم التلامذة ذلك في المدرسة، وقد يصعب على عقولهم الناشئة فهمه وتصوره على حقيقته. أما أنا فلم أجد صعوبة في استيعاب هذا الوصف العجيب وتصوره على الطبيعة. أما السبب فهو: «أبوعبود».

ففي حارتنا حينما يشعر الصبية الصغار فجأة، وهم في غمرة انغماسهم في اللعب، أن الأرض أخذت ترتج بهم، وأن ظلاً لآدمى عملاق يتجه نحوهم من

جهة الغرب ويغلِّفهم بسحابة تحمل معها نذر البرق والرعود، فإنهم يدركون أن موعد التفرق قد حان باقتراب «حرَّة المغرب» أي وقت الأذان.

وينتشر الذعر بين الصبية ويبادر كل منهم بجمع ما تفرق في ميدان اللعب من أدوات ليفرّ من الزقاق الضيق إلى الساحة الواسعة قرب المسجد، ولكن خطوات «أبوعبود» المتسارعة الجريئة تقودها عصا طويلة من الخيزران وهو مغمض العينين، لاتتيح لأغلبهم فرصة للإفلات. وسرعان ما تتحول الساحة الصغيرة إلى ميدان كرٍّ وفرٍّ. وقد يمسك بواحد أو اثنين من الصبية وتتعثر رجلاه ببعضهم فلايكتفي بما توفر له من صيد، بل يمد ذراعة وعصاه الطويلة لتنال من الباقين الذين يصطفون أمامه في الساحة الواسعة للتربص به والتشفي منه.

وكثيراً ما كنت واحداً من الذين لايفرون من أمامه، فيعرفني بمجرد أن يضع كف يده العريضة الجافة على رأسي فينتابني الوجل، ثم يتركني لشأني وكأنه قد اقتنع - وهو بمحاذاة بيتنا - أنني فعلاً لست واحداً منهم.. أي الأشرار الذين يتهكمون عليه ويستثيرونه مستغلين عجزه عن اللحاق بهم، لكونه ضريراً لايرى، رغم أنه يتمتع ببصيرة نافذة ويقوم في حارتنا بدور المُبَلِّغ وناقل الأخبار، والمؤذن أحياناً. فأما من تعثّر بهم فيتركهم لشأنهم مكتفياً بما نالوه من أذى.

وأما المتربصون به وبعصاه الطويلة فإنه يميز كل واحد منهم من صوته ثم ينسبه إلى أبيه ويتوعده بأن يشتكيه عند والده بعد الصلاة في المسجد.

هكذا كان يمر النهار على الصبية الصغار في حارتنا مليئاً بالإثارة مفعماً

بالمفاجآت. إنهم لايفهمون معنى للحياة الهادئة الرتيبة، وإذا افتقدوا عنصر الإثارة لفترة وجيزة، اختلقوها فيما بينهم بالشجار أفراداً أو جماعات. وتتضايق ربات البيوت في الحارة من ضوضاء الصبية، وشجارهم فيلقين على رؤوسهم من أعلى السطوح، وهم غافلون، «الخُمرة» أي خميرة القهوة الفاسدة، أو بقايا الطعام أو ماء قذراً من أي نوع، فلايجد من تتوسخ ملابسه منهم شفاعة عند والديه غير الدموع والتنهدات الحزينة.

ويختلف تصرف ربات البيوت تجاه مرح الصبية وعبثهم من بيت لآخر. فحينما تنحرف الكرة إلى سطح أحد المنازل يتطوع بعضهم لاستعادتها، فإذا وجدوا قبولاً وفتح الباب للدخول أضافوا إلى ذلك مطلباً آخر هو شرب الماء. فإذا ازداد التسامح تباطأت خطوات الصبية في أرجاء المنزل لإشباع الفضول. فتلك هي الفرصة للتعرف على أجواء أخرى في غير بيوتهم ومشاهدة طرائف مما تضمه بيوت الآخرين في الحارة. وتستأثر باهتمامهم غالباً زرائب الغنم والبقر وحظائر الدواجن والحيوانات الأليفة وأبراج الحمام وأقفاص الببغاء وما شابه ذلك. وفي أحيان أخرى تبهرهم الطرائف من المقتنيات والأدوات والمعدات المتصلة بعمل صاحب الدار. ففي بيت «الصيرفي» حجرة مليئة بساعات الجدار، وفي غيره مجموعات من السجاد، وفي بيت ثالث غرفة عروس مزينة جدرانها وسقوفها بالمرايا والمزركشات اللامعة، وفي بيت «زليخ» دُوَر وممرات حافلة بالسيوف الصدئة والأعلام الملونة وبقايا ما يستعمل في المواكب الدينية والمواسم الشعبية.

ويجتمع نساء المنزل وزائراتهن من الجيران عادة في صحن الدار لتنظيف الرز والمساعدة في إعداد الطعام أو تحميص القهوة ودقها، أو عجن الدقيق أو

تحضير الحناء أو أشغال الأبرة. ويشغلن وقتهن حتى أذان الظهر في «السوالف» أي الأخبار والحكايات المسلية أو «المعاياة» أي المماحكة في الجدل في أي أمر، وقد يتطور الجدل تدريجياً مع التعصب للرأي فيصل إلى حد «المعايرة» وهو مزيج من العتاب اللاذع والتشهير. وربما علت الأصوات بعدها وتطاولت الألسن وتوالت حركات الرؤوس والأذرع والعيون بعصبية بالغة حتى يستسلم الأضعف منهن، فتنهمر الدموع وتغسل الأحزان لتعود سيرة الاجتماع كما بدأ، أو ينفضُّ ليُستأنَف في اليوم التالي.

وينتهز الأولاد انشغال النسوة لإشباع الفضول، حتى يتنبه أهل المنزل لوجودهم، على صوت رضيع استفزته الحركة من نومه، أو اهتزاز السقف وسقوط شيء من الغبار، أو دخول السقَّاء أو ما شابه، فيكون مصيرهم الطرد العاجل مقروناً بالإهانة. ولاينجو أواخرهم عادة وهم في مسيرة الهرب، من ضربة على الرأس أو الكتف «بالمخمَّة» وهي المكنسة المصنوعة من عذوق النخيل. والمنازل التي لاتسمح للأولاد بالدخول، لاتمانع عادة في إحضار الماء الذي يعتبر طلباً مشروعاً وتقليداً شائعاً. وكثيراً ما يحسم النزاع حول استرجاع الكرة المفقودة، حين تعود محذوفة من المنزل سليمة أو مبقورة الجوف بالسكين. عندها يندب صاحب الكرة تعاسة حظة معبّراً عن سخطه بحذف المنزل بالحجارة بينما ينصرف الباقون إلى لعبة أخرى مثل «كب كلين» وهي عبارة عن مضرب خشبي وقطعة خشبية صغيرة على المنافس أن يتلقفها قبل أن تسقط إلى الأرض وإلا حسبت عليه غلطة. وكل غلطة تستحق رمية من حامل المضرب تجاه «البر». وكثيراً ما تتجمع تلك الأخطاء حتى يصل اللاعبون إلى البريّة خارج الحارة عند ملتقى البساتين. ويتعين علي الخاسر أن يبدأ بالركض

رجوعاً إلى موقع اللعب من حيث انتهت مسافة الجزاء وعليه أن يحدث صوتاً عالياً حتى إذا انقطع نفسه استحق ضربة جزاء أخرى.

ولكن منظر البر القريب من المقبرة والبساتين الملتفة حوله، كثيراً ما يغرى الصبية بالتوقف لرصد شيء مما يجري هناك أو المشاركة فيه فينصرفون عن لعبتهم مع من يقابلونه هناك من الأولاد إلى «الحَبال» اي صيد الطيور. وعليهم قبل ذلك المساعدة في استخراج «العنجوش» وهو دود الأرض لاستخدامه طعماً في الفخاخ. ويحصلون على دودة الأرض بإدخال رأس خوص النخل في ثقوب الأرض واستخراجها بسرعة ومهارة وتكون الدودة متمسكة بها.

و«المشاوير» التي كانت تشغل صبية الحارة كثيرة ومتنوعة بتنوع الأحداث التي تستجد كل يوم كالأعراس والمآتم، والولادة، والبيوت التي تقام فيها مآدب «عزائم» حيث تنقل فيها أدوات الطعام من قدور وصوانٍ من منزل إلى آخر، كما تنقل في حفلات الأعراس المرايا الكبيرة وأطباق الحلوى على رؤوس النسوة، هذا بالإضافة إلى المواسم العامة في رمضان والعيد والموالد وغيرها.

ولايحتاج الصبية إلى من يدعوهم فهم دائماً هناك حيث يقع الحدث، ويتيح لهم سنهم ومعرفة ذويهم حرية التجول حيث شاءوا بين مجتمع الرجال والنساء على حد سواء ولاتعدل هذه المباهج بهجة دخول السوق ليلاً، فيترقب الأولاد ليلة «الزينة» احتفالاً بجلوس سمو الأمير بشوق بالغ، حيث تأخذ الأسواق زينتها بالألوان والأنوار والأعلام وأوراق الزينة، كما تفرش الطريق بالسجاد وتقدم الشربات والقهوة والحلاوة كما يرش ماء الورد ويتعطر الهواء بدخان البخور ويتزاور الناس ويسهرون شطراً من الليل في فرح غامر.

ويأنس الصبى إلى هذا المشهد الفريد من نوعه. فالأسواق التي يتوقف فيها دبيب الحياة وتقفر عرصاتها من الناس تعود في ليالي الزينة بكل زخمها ومباهجها سوى أنه لا بيع فيها ولا شراء. وحتى عازف الطنبورة المعتوة بجسمه الأسمر النحيل وطوله الفارع لاينسى أن يعود إلى السوق كما يفعل في كل نهار مستغرقاً في شبه غيبوبة وهو يدندن بصوته الناعم الخافت: «سالم ضرب سلوّمة... سالم يقول»!

المسمار.. والفلك الدوار

يذهب الأولاد إلى السوق لتحصيل «الخرجية» من الأدباء أو لشراء الحلويات أو تفصيل الملابس عند الخياط أو شراء أدوات اللعب كالكرة أو «التيلة» أو «الدوامة» وغير ذلك. والدوامة يبيعها تجار «البهرة» مع الخيط «المِشْبَل» بدون مسمار، ويسمى الشاعر امرؤ القيس «الدوامة» بخذروف الوليد وإنْ كان وصفه ينطبق على «الحنبوص» أكثر وهو بدون مسمار، وذلك في قوله:

«دريـر كخـذروف الوليـد أمـرّه

تتابـع كفيّـه بخيـطٍ موصّـل»

وتركيب مسمار «الدوامة» عند الحداد تجربة حافلة بعناصر الإثارة وإشباع الفضول. والطريق إلى الحداد من منفذ الحارة يخترق في بدايته المقاهي الشعبية العامرة بأجناس من البشر. ورغم أن دخولها محرم عليه إلا أنه لا يستطيع مقاومة إغراء التوقف قرب الحاكي «الفونوغراف» وتأمله ملِيًّاً كلما مر بقربه جيئة وذهاباً.

وتتفرع دروب السوق عند هذا المدخل وتتعدد أسماؤها تبعاً لنوع المهنة أو التجارة. والمدخل إلى سوق الأقمشة والملبوسات «البز أو القماش» يمر عبر محلات تنديف القطن، ولَشدَّ ما استأثرت بفضول الصبي تلك الآلة الكبيرة التي يمسك بها الندَّاف ليعزف عليها أغنية القطن البيضاء، ويتطاير رذاذ القطن في الهواء ثم ينزل ليرسم على محيّا النداف حواجب وأهداباً وشوارب كالثلج ناصعة البياض.

ويسلك الصبي إلى سوق البُهرة، ذلك الفناء الواسع في قلب السوق وهو أشبه ما يكون بمهرجان أو بمعرض مقيم ومتنقل في آن واحد لكل ما لايوجد في الأسواق الأخرى من سلع وخدمات. ففي هذا الفناء «فرشات» على الأرض للنسوة المقَنَّعات يبعن الأبر والخيوط والمقصات والأزرار إلى غير ذلك، ودِكَك لباعة الكعك والخبز والحلوى والأشربة، ومخابز على كل طراز وباعة متجولون، والبياعون بالمزايدات، وعرصات يتسابق فيها المتراهنون، ومطاعم شعبية تفوح منها الأبخرة وروائح الأكل، مع حشد كبير من المتسولين والمتسكعين.

ويحتل الحلاقون والحجامون واجهة المدخل. ويتعمد الصبي المرور بين صفوف المحتجمين ورؤوسهم منكَّسة إلى الأرض فلايرونه، محاولاً عبثاً أن يعرف سر تلك الكاسات والأكواب الدموية ومعنى الدوائر الحمراء والانتفاخات، التي تخلفها على ظهور ورؤوس أولئك المستسلمين للحَجَّام المُسِن الذي يجلس القُرفُصاء، متنقلاً على هذه الهيئة بين زبائنه ليغيِّر الكاسات على مهل، وكأنه يتسلى بتعذيب طابور من المذنبين.

يشتري الصبي الدوامة ويتجه إلى سوق الحدادين ماراً بسوق «الصفافير» فيتوقف لمشاهدة عملية تصفير القدور التي يشترك فيها أكثر من شخص.

فالمعلم «الأب» يتولى ترقيق القدور بالمطارق التي تحدث على جدرانها بلورات لامعة تشبه الوشم وتجعلها تدور بقدرة خافية حول السندان على نغمات من الإيقاع تختلف شدة ولينا. ويقوم الآخرون وهم غالباً أبناء معلم الصنعة بعملية التنظيف، بالوقوف على أقدامهم داخل قدر النحاس المقعَّر بعد وضع حجارة التنظيف في جوفه ثم يقومون بحركات راقصة تشبه «التويست» ولاتغري عملية التصفير والتبييض بالمواد التي تتطاير في النار خلال سحب من الدخان والروائح الخانقة بالبقاء أكثر من ذلك، وما هي إلا دقائق حتى يكون الصبي في سوق الحدادين فيجلس القرفصاء «ودوامته» بيده من جهة «منفاخ النار» يتقى الشرر المتطاير في «الكور» على الجانب الآخر. ويأخذ الحداد «الدوامة» ويتفحصها ثم يهمهم بعبارة استحسان أو استهجان لجودتها، والاستهجان أغلب.

ولايحول ذلك بينه وبين وضعها إلى جانبه علامة على القبول وانتظار الدور. حتى إذا حانت اللحظة الحرجة وجهز المسمار في النار الحامية أمسك الحداد الدوامة بيده اليسرى المتسخة بالرماد وتناول المسمار فأثبته في موضعه فإذا نجح ولم تحترق الدوامة أو تتشوه، طار الصبي فرحاً باللعبة الجديدة وغمرته بهجة ساذجة بريئة ورغبة جامحة لاختبار جودتها.

وفي أثناء فترات الانتظار والترقب يتلفت الصبي من حوله وينصت لما يدور من كلام في مجتمع الكبار. لكن ذاكراته لاتتسع لحفظ كل ما يسمعه أو استذكاره، فيرسخ في ذهنه ذلك الشيء الطريف من الحكايات والأوصاف والأمثال الشعبية. فهذا بائع عند مدخل السوق يشكو دهره وسوء حظه لمن حوله مردداً: «ومن الحظ لو نشرت ثيابي»، فيتطوع جاره لتكملة البيت: «في

حزيران... صار يوماً مطيرا».

كما يسمع قصة الأب الذي جاء يشكو إلى الحداد مشاجرة بين ابنيهما فقال الحداد للشاكي: «إنْ كان ولدكم ضرب ولدنا لازم يؤدب، وأن كان ولدنا ضرب ولدكم. انفخ يا صبيّ، أي لايهم» كما يتذكر جيداً ما بقوله الحداد للجالس بقربه«من يجلس عند الحداد يتوطى الشرر». ولهذا فهو يقوم من عنده فرحاً متجاهلاً بعض الثقوب التي أحدثها الشرر في ملابسه، فينصرف إلى سوق الماء العذب «الحنيني».

يفتش الصبي عن العميل ثم ينقل إليه طلبات المنزل بحسب ما أملى عليه والده، ويتجرع شربة من الماء العذب من فم القربة ويسيل شيء منه على جيوبه فيبترد بها قلبه، ثم يركب الحمار تصحبه القربة وبائع الماء من خلفهما، فإذا صادف في طريقه بعض من يعرف من أخدانه وهو يلعبون تغافل عنهم متعالياً، فرحاً بمركبه. وقد يسمع غير بعيد عنه نفرات الخباز بمحوِّر العجين على المنضدة ويشم رائحة الخبز تناديه فيتجاهلها متعللاً بما سيلقاه في المنزل، لكنه لايملك مع ذلك إلا أن يسرح بفكره فيتذكر موقعه المعتاد من تلك المنضدة العريضة الضخمة التي تسمح رغم انخفاضها للأقدام الصغيرة أن تمتد من تحتها، بينما تتلهى الأصابع بقطع الأجزاء الجيدة من الخبز التالف ومضغها بمنتهى التأني دون إحداث صوت، وكأنها مجهولة المالك. ويكون الخباز منهمكاً في سباق محموم بين سرعة تحوير العجين دون الإخلال بقاعدة النقرات على الطاولة، وبين المناورة لإدخاله في التنور المسجور القابع بجانبه في مستوى الأرض، فاتحاً فمه الوحشي وكأنه أحد الجلساء، لولا أن هذه المجالسة حميمة لاتطاق، فهو يتقبّلها على مضض ويصبر على وهج النار في وجهه، وضرر

الأصابع وتلف الخبز وتزاحم الزبائن وكثرة الديون، ثم لايشغله كل ذلك عن مقابلة الناس كلاً بما يليق بمنزلته وقدره.

وحينما يصلان المنزل، يبادر بائع الماء إلى طريق البوابة الكبيرة ذات المسامير الضخمة فلاينتظر الصبي حتى يفتح الباب بل يندس في الفرجة الصغيرة «فرخة الباب» ويفاجئ أهل البيت بالنبأ فيشيع بينهم الارتباك حيناً، حتى يستعد أهل المنزل لمرور الغريب، الذي ينطلق إلى حيث يصب الماء في الزير «الحِب» مكثراً من «التِّنِحْنِح» بصوت مسموع مبالغةً منه في إظهار الاحتشام، لكنه يتباطأ قليلاً حين يصل إلى بهو المدخل حتى يسمع من يطلب منه التريث، فيجلس على الحصيرة فوق الدكة المواجهة عادة لحجرة الضيوف فيقدَّم له شيء من شراب وطعام، تفصله عن المنزل ستارة كثيفة من الخيش أو قماش ثقيل.

ويحار الصبي كيف يمضي الوقت انتظاراً لمجئ رب العائلة، ويستولى عليه الشعور بالملل فليست في المنزل ألعاب، ولم يكن جلبها للمنزل واستعمالها أمراً مألوفاً، وعلى الصغار ابتداع وسائل التسلية لأنفسهم. وهو إذ يحس بالجوع يدس في النار تحت أحد القدور خلسة شيئاً من «البطاطا» فيتذكر آنئذ تشوُّقه «للبطاطا» المشوية عندما هُرِع كغيره من الصبية إلى موضع الحريق الكبير في سوق الخضار وشاهد مخزناً للبطاطا وقد شوتها النار ثم لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها. وفيما هو كذلك يجئ السقاء بعربته وهو يوصل ماء الشرب من العيون والآبار، ويشعر الصبي بمجيئه وكذلك أهل البيت من نهيق الحمار الذي يجرها، وصرير عجلتيها الكبيرتين. إنها تحمل برميلاً خشبياً ضخماً مشدوداً بأطواق من الحديد، ثم ينفتح الباب على مصراعيه ليدخل السقاء المشهور

بنشاطه وقوته حاملاً قربة على كتفه والأخرى تحت إبطه، ثم ينتهي من صب الماء بسرعة ويتوقف بدوره لدى الباب قبل الخروج لا انتظاراً لطعام أو شراب وإنما لكي يرسم على صفحة الجدار من سواد شحم العجلات خطيّن يضبط بهما حساب الاستهلاك الشهري ثم ينصرف.

ويعود الصبي للتسكع داخل المنزل فإنْ لم يصل إلى الباب من يُشبِع فضوله كالبقال الذي يبيع محصول المزارع نقداً أو مقايضة بحفنة من خبز أو رز أو دقيق أو تمر أو «الطعام»، أو جامع «الزري عتيق» وهي الملابس القديمة المطرزة بخيوط الذهب، أو تاجر الأقمشة من اليهود، أو بائع «منجوس» وهو السمك الصغير أو غير هؤلاء. وإنْ لم يسمع جرس الحريق حيث يُهرَع الناس وقد طارت عقولهم، فإنه يعمد إلى التحرش والعبث بكل ما تطاله يداه، وقد يتظاهر بأنه يغتسل عند البئر التي لايكاد يخلو منها منزل، ثم يتسلى بالدلاء وسكب الماؤ هدراً، أو قد تقع في يده بعض أواني الصين أو الفخار فتكسر، فيتوعده أهل البيت بالشكوى.

ويستمر في عبثه، حتى إذا أحس بأن ما يشبه حالة الاستعداد قد عمَّت أرجاء المنزل وسمع كلمة «يا الله..» مراراً تيقّن أن أباه قد عاد لتوه فيحتضنه لدى الباب ويرافقه إلى الداخل متشبثاً بملابسه حتى يستقر، ثم يترك كل منهما الآخر لشأنه. حتى إذا خلا والده للصلاة، عاد متسللاً على أطراف أصابعه، أمعاناً في المفاجأة، وهو إذ يجد والده مستغرقاً في صلاة أو في دعاء وعيناه تفيضان من الدمع من خشية الله لايحيد عن عزمه إلا أن يعتلي ظهره، حتى إذ فرغ من صلاته، ضمه إلى صدره وأسمعه من كلمات الحب والحنان ما يطمئن إليه قلبه ويرتوي به عطش نفسه، فتلمع عيناه في فيض من الحبور

والغرور، إنه يحس أنه الآن في بيته مع من يحبهم ويحبونه فيتذوق حلاوة الرجوع في نهاية المطاف، ونشوة الانتماء بعد شعور الضياع والتشتت بين دروب الحارة، ومسالك الأسواق ورحلة التطفل في مجتمع الكبار.

الثواب والعقاب

ولكن الصبي الغرَّ سرعان ما يتعلم وهو في ذروة نشوته بالحب، درساً من دروس الحياة، هو أن الفرحة لاتدوم وأن حياة المنزل كواقع الحياة، ذات وجهين.

إن ربة الدار عليها أن تقدم تقريراً بوقائع اليوم وما جرت فيه من أمور، فإنْ فعلت ذلك عند وصول رب البيت - لضيق صدرها ذلك اليوم - انقلبت الآية، فيدرك أن صبر ربة الدار على مخالفات الصغار قد بلغ حده، فإن كانت عصاة التأديب لاتزال في موضعها قريباً من متناول يده فإنه يمسك من يطاله منهم، بينما يهرب الباقون إلى سطح المنزل، وإنْ امتدت الملاحقة فإلى أسطح بيوت الجيران.

ولايغفل رب العائلة وهو يُوقِع العقاب، أن يتلو لائحة المخالفات إجمالاً وهو يمسك بالصبي، ثم يفصلها واحدة مع كل ضربة بالعصا وكأنه يقرأ كشف حساب، بينما يبالغ الصبي في الصراخ والاستغاثة مكرراً القول: أتوب.. أتوب والله العظيم، حتى يبح صوته، أو تذبل أصابع الأب، أو تتدخل الأم، أو الجيران أحياناً إذا جاوز العقاب حدَّه.

ويؤدب الأولاد عادة على المشاجرة وعدم الطاعة والتقصير في الواجبات وترك الصلاة، وإزعاج الجيران وأهل الحارة، وكذلك على التهرب من نوم الظهيرة «القيلولة» ومصاحبة رفاق السوء. وتتوقف مظاهر النشاط في المنزل

والحارة عامة عند موعد القيلولة فتخمد الأصوات وتنشل الحركة ويتوقف غسل الأواني عند البئر وتسدل الستارات، كما ينفى الديك والدجاج النقاق إلى موضع قصي. ساعة الحائط وحدها تعمل بدون اعتراض، وإذا كان رقاص الساعة المتمايل ذات اليمين وذات الشمال، يُحدِث وقعاً رتيباً يستجلب النوم للعيون النواعس فإن دقاتها تتحدى - دون ريب - قرار الصمت وكأنها تقول إن الزمن لابد وأن يعلن عن وجوده ويسير.

وفي المساء يعود الأب محملاً بالأصناف المستطابة من الحلوى والمكسرات والخبز المحلى بالتمر أو أي شيء آخر مما يسمى بـ «الهجور» وذلك للشروع في مراسيم المصالحة وهي أن يقبل الولد يد والده طالباً العفو معلناً التوبة فيشمله بالعطف والرضا ليتعشى ثم ينام قرير العين هانئاً.

وفي ليلة صيف يسترق الصبي السمع وهو في فراشه على سطح المنزل، متظاهراً بالنوم، لأحاديث الوالدين حيث تستكمل بقية أحداث الحارة وأخبار الجيران ويقرر رب العائلة خطة التدبير المنزلي ليوم الغد وما بعد الغد ومشاريع الصيانة والسفر واستقبال الضيوف القادمين. أما أخبار أعمال التجارة فتقتصر على الأخبار الهامة فقط، لأن التجارة «أسرار» في عرف التجار. وكان من بين تلك الأخبار الهامة الحريق الكبيرة في سوق الخضار. فيسمع الصبي التفاصيل المثيرة لهذا الحريق الذي تجاوز سوق الخضار إلى ما حوله لكنه لم يصل بحمد الله إلى «المتجر»، وبما أن الاحتياط واجب، فقد عهد والده إلى ربابنة السفن «النواخذة» والبحارة من أهل عمان وسواحل المملكة بنقل دفاتر الحسابات و«الأموال» وخزنة النقود والأمانات إلى موضع آمن. ثم يسهب في الثناء على ما أظهروه من نخوة وشهامة وكيف أنهم هبوا للنجدة عند

سماعهم الخبر. وهكذا يستعيد الصبي وهو بين اليقظة والمنام ذكرى البحارة من أهل عمان وهم يتنافسون على اصطحابه معهم إلى البحر في مراكبهم الكبيرة التي يسمونها «السنبوك»، وكيف كان يقضي نهاره مستمتعاً بحياة البحر وتقاليد العمانيين التي تختلف نوعاً ما عن المألوف في هذه السواحل. وأكثر ما كان يشد ولعه ذهابه وإيابه معهم في جمع كبير تقله زوارق مستطيلة تنفرد من حافيتها المجاديف وكأنها لكثرتها وتناسقها زعانف لأسماك كبيرة، وعلى كل مجداف بحار يشارك مع المجموعة في الإنشاد بصوت واحد ونغمة رتيبة وإيقاع يزداد سرعة مع ازدياد الحماس للتجديف وهم يرددون «خير نصلة بيد نوبي» أو غير ذلك، مما يدل على الشجاعة وقوة العزيمة.

ويغالب النعاس المتسلل مع النسيم المشبع بقطرات الندى، الأجفان الصغيرة فتستسلم للنوم على خيال البحر ورؤى الأمواج وخفق الأشرعة والمجاديف، فيفوّت عليه ذلك الاستماع إلى خبر يهمه كثيراً.

من علمنيّ حرفاً..

أما الخبر المهم فقد انتظر دوره، فلما حان الوقت أمر الوالد ذات صباح بأن يلبس الصبي الملابس التي أحضرت للمناسبة ففعل، ثم ارتدى فوقها «صدرية» من الحرير المزركش ولبس خاتماً وانتعل النعال النجدية التي يفضلها، وحين وضع والده في يده اليمنى كتاباً مجلداً قليل الصفحات عرف أنه «جزء عم» من القرآن الكريم وأنه في طريقة إلى معلم القرآن «المعلم أو المطوَّع».

أمسك الوالد بيد الصبي ليسير معه إلى المعلم، وكان من عادة الصبي الذي تقصر خطاه عن والده أن ينتظر حتى تتراخى قبضة الوالد أثناء

المشي فيسل يده بخفة ليتأخر عنه في المشي ويتسلى بمشاهد الطريق. فقد كانت مسارح للقطط والدواجن الهاربة، ومواضع جلوس للسائلين، ومناسبة للتشبه بالكبار في التقاط بقايا الخبز من وسط الطريق ودسها في التراب بجانب الجدار وشقوقه - حيث تكثر بيوت النمل، مراعاة لحرمة «نعمة الله»، إلا أن قبضة الوالد في هذا اليوم ظلت مُحكمة ولم يجد الصبي مناصاً من أن يتجاهل كل ذلك ويلحق بخطوات والده الحثيثة، حتى لقد نسي – من فرط انشغاله بما يبيّت له والده في هذا الصباح من أمر – أن يمارس عادة محبَّبة مألوفة من توقُّفٍ عند جدار منزل جار البيت المقابل لبيته، لكي يحفر في «الأساس» أي أساس الجدار، حيث تعود أن يكتشف كنزه المعتاد، وهو عبارة عن بعض من «الآنات» النقدية عوَّده ذلك الجار الطيّب الوقور «السيد حسين» أن يدسّها له في التراب تحت موقع النافذة إكرامية له كلما خرج في الصباح ذاهباً إلى عمله، وكأن هذا الرجل الفاضل – من فرط أدبه وتواضعه – يتحرج أن يظهر بمظهر المعطي أو المانح لهذا الذي يحبّه كأحد أبنائه، تقديراً له وإكراماً لصداقة والده. فهو يهيئ لهذا الصغير شعور الفرحة باستخراج كنزه بيده، بعد أن يشير إليه من بعيد بالموقع المعين، ثم لاينسى أن يوصيه بالكتمان بلغة الإشارة دون الكلام!

ويبادر الوالد إلى إحكام قبضته على يد الصبي - كلما تراخت قليلاً وهو يذكّره بمخاطر التباطؤ في السير، مستشهداً بآخر مرة حين تمَهَّل الصبي وهو ينكش بعصاه أحد الجحور في جدار قديم، وسقطت على رأسه حيّة كانت متدلية من مزراب فوق رأسه، وكادت الحية أن تلتف حول رقبته أو تلدغة وهو مذعور، لولا أن حانت التفاتة من والده فأنقذه منها.

واستقبل المعلم الأب بما يليق به من احترام وترحيب ثم استدار للصبي وعلى وجهه مشروع ابتسامة وهو ينتظر من الأب أن يبدأ بالكلام ليعرف كيف يتصرف مع «البضاعة» الجديدة!

ولم يطل انتظاره فقد فاجأه الأب بأن أوصاه خيراً وكرر بعض الآيات القرآنية وعبارات من مثل القول المأثور «ربه سبعاً وأدبه سبعاً وعلمه سبعاً.. ثم اترك حبله على غاربه» ولم يسمع المعلم ما كان يتوقع أن يسمعه أسوة بالآباء الآخرين «أعطيتك ابنى لحماً، وأريده منك عظما» أي لكثرة الضرب والتأديب، لهذا وتجاوباً مع التوجيهات، فقد نحى المعلم جانباً عصاه الطويلة الملمعة من كثرة مسحها بالدهن حفاظاً على طراوتها، واقبل على الصبي بابتسامة صفراء متكلفة وكسر تحت قدميه بيضتين تيَمُّنا أو دفعاً للأرواح الشريرة! وهو يقرأ سورة الفاتحة.

وسرعان ما ذهب الوالد، فجَرَّ المعلم الصبي معه إلى فناء الدرس، وصراخ الأولاد في غيبة المعلم يشق عنان السماء، ولم يشفع لهم سكوتهم المفاجئ لدى وصوله إذ سرعان ما أنزل بهم العقاب دونما تمييز، بينما استقر الصبي في المقعدة الجديدة وهي من الخوص، مترقباً المصير المجهول.

وافتقد الصبي تلك الابتسامة وبشاشة الوجه من المعلم بدخوله في زمرة الصبيان وجرى عليه ما يجري بشأنهم، ثم لم يعهدها إلا حينما كان يأتي المعلم لقبض راتبه الشهري أو عند إجراءات الاستلام في «مشاركة البيض» حيث يستولي على الثلثين منه، لقاء قيامه بصبغ البيض بالألوان وأخيراً عندما حان موعد الاحتفال بختم القرآن الكريم.

وفيما عدا تلك المناسبات المعدودة، فالعلاقة بين المعلم والصبيان إنما تسير وفق ذلك القول المشهور الذي يتردد في كل مناسبة «من علمني حرفاً.. صرت له عبدا».

عدد مارس ١٩٨٧

◄ ـ ٣ ـ حديث المدرسة

قلعة البرتغال

كانت قلعة البرتغال المكان المفضل لديّ لقضاء عطلة الأسبوع، أو «للتزويغ» من المدرسة في بعض الأحيان. وكلما عدت بذكراتي إلى أيام الطفولة وجدت قلعة البحرين ـ كما كنا نسميها ـ تستأثر بمكان بارز من تلكم الذكريات. فمن فوق أبراجها العالية كنت أشعر وكانني أطل على العالم كله. ومن خلال الفتحات المشقوقة في جدرانها بعناية وإحكام، كانت تتراءى لي القدرة الفائقة على التلصص ومراقبة القادمين، وإلحاق الأذى بأي منهم، لو أردت. وكنت أختار طريقي في القلعة، نزولاً أو صعوداً بحذر شديد فلم أكن أشك آنذاك في أن القلعة كانت مسكونة «بالأرواح الشريرة»، وأنها علاوة على ذلك مسرح لكثير من اللصوص والمجرمين، وكلما تعثرت بحجر من أحجارها واضطربت تحت قدمي، خِلْتُه يتثاءب كمن أفاق من سُبات طويل. وكثيراً ما كنت أحدّق في الصخور ذات التجاويف المستديرة والملتفعة بصمت كئيب، فأتذكر ما يقال من أنها كانت تضم كنزاً فتحه اللصوص، فتتراءى لي تلك التجاويف وكأنها أفواه توشك أن تصرخ مستعدية على ما فعله اللصوص والجناة من سرقة كنوز الأجداد الذين استودعوها الصخر.

وبعد أن أسرع في النزول متحاشياً ما أمكن المسالك غير المطروقة في الحفرة العميقة المحيطة بالقلعة خوفاً من الحيّات والعقارب، أتفيأ ظل أحد الأبراج الكبيرة المتآكلة حيث يبدو لي الزمن وكأنه غول لايشبع، ينهش من تلك الأبراج يوماً بعد يوم. أما سر هذه القلعة التي تستقبل القادمين بوجه كالح يتطاير منه البارود والشرر، ثم لاتجرؤ على أن تستدير لما حولها من بشر وأرض وحياة إلا من خلال جدران سميكة من الخوف والوجل فهو ما كنت أجهل سره آنذاك.

ورحلة العودة من القلعة كان لها أيضاً جو وطعم. وكنت أتعرف على موقعي من الطريق عبر البساتين والقرى، عند اجتياز أشجار الفاكهة المطلة على الشارع. فمن موقع أشجار الليمون «الإترنج» ابتداء إلى المواقع الأخرى الحافلة بالرمان والكنار واللوز، وكان منظر الفواكه المتدلية على جانبي الطريق والتفكير في التحرش ببعضها أحياناً يحجب رويداً رويداً خيال القلعة وتتلاشى في نفسي تلك المشاعر المتمازجة ليحل محلها شعور لا مثيل له من الزهو. فلقد كانت القلعة بمثابة المدى الأبعد الذي يمكن أن يصل إليه ولد صغير لايملك من وسائل المواصلات غير عجلة «دراجة» كثيراً ما كانت تتعطل به أثناء الطريق. عندها يتسرب الخوف إلى نفسي ويستبد بيَ الجزع.

ولكن كثيراً ما تأتي النجدة على يد «أبوداود»، وأبوداود هذا – كما كنا نلقبه – هو قصَّاص الحارة ورائد المخاطرات وبطل ألعاب القوى ومهندس العجلات ومستحضر الجن والأرواح. وقد تعلم مهنة الصياغة من والده، وأصبح يتردد على «القلعة» كلما وجد إلى ذلك سبيلاً كأن له فيها إرثاً يخشى عليه من الضياع. وأبوداود هذا صار يعرفه معظم السالكين ويتلفت صوبه المزارعون

ويشير إليه الصبية بالبنان كلما مر جيئة أو ذهاباً. وذات مرة أسرَّ التي أبوداود - والاهتمام باد عليه - بأمر خطير، قال إنه وجد الكنز الذي يبحث عنه في القلعة، وهو بحاجة إلى من يكتم الخبر ويحمل معه هذا الكنز. وعدنا إلى المدينة وأنا احتضن «جفيرا» من الخوص مهترئ الأطراف، يضم قطعة كبيرة من حجر أحمر وقطعاً صغيرة منه كانت تتساقط بين الحين والآخر على إحدى قدمي فتدميها، فأتجلد بالصبر مخافة أن يتنبه أبوداود لسقوطها فيعود أدراجه لالتقاطها من جديد، ولكن سرعان ما تلاشت الفرحة بالكنز بعد أيام. وجاءت نتيجة الفحص مبدِّدة للأحلام. وها هو أبوداود يستعمل خبرته في الصياغة ليميز أخيراً بين التبر والتراب.

التعليم الأهلي والحكومي

بعد ختم القرآن الكريم، رافقني أخي الأكبر إلى المدرسة الأهلية.. مدرسة الأستاذ عبدالرسول التاجر. وكان الوضع مختلفاً كثيراً عما ألِفْته عند «معلم القرآن»، فلأول مرة أدخل صفاً كبيراً يعج بتلامذة من مختلف الأعمار والمستويات التعليمية والاجتماعية. وتتفرع عن هذا الصف الطويل حجرة ثانية على شكل زاوية يجلس فيها المتقدمون في المدرسة والمتدربون على الآلة الكاتبة.

ويجلس الأستاذ التاجر على طاولة مستقلة تشرف على الجانبين، وهو المدرس الوحيد لكل ذلك العدد المتماوج من الناس! وكان جلوس التلاميذ أمام الأدراج، ومن خلفهم خزانات زجاجية مغلقة ورفوف عليها إعداد كبيرة من الكتب المجلدة منظراً غريباً ومثيراً ونقلة مفاجئة بالنسبة لي، عما كان مألوفاً من بساطة وبدائية عند معلم القرآن. كما أن حرية الدخول والخروج متاحة لمن يريد وكأنها مدرسة مفتوحة، ولايدرس التلاميذ ضمن مجموعات أو صفوف

وإنما ينتقل من يريد أخذ الدرس مباشرة إلى مكتب الأستاذ وينتظر دوره. ويتقبل الأستاذ تدريس أي عدد يجلس في مواجهته كل على انفراد، ويبدأ بأحدهم ويستمع إليه يقرأ الدرس بينما هو منشغل في تصحيح الكراسات أو كتابة درس جديد، ولايحول ذلك، بينه وبين الانتباه لتصحيح أخطاء التلميذ بين حين وآخر.

ثم ينتقل الأستاذ بين هذا العدد من الطلاب مستفيداً من تداخل الوقت، بمهارة لاعب الشطرنج الأستاذ، في مواجهة مجموعة من اللاعبين.

هذا الأسلوب التعليمي الذي يشبه مطاعم الوجبات السريعة لم تعهده المدارس النظامية بطيئة الحركة، لهذا كان الإقبال على مدرسة التاجر كبيراً يتماشى مع طلبات الوظائف لاسيما إبّان نشوء شركات النفط، والشركات الأجنبية وتوسع الدوائر الحكومية التي فتحت مجالات جديدة للتوظيف.

لقد تخرَّج من هذه المدرسة جمهور غفير، ولاشك أن جلُّهم - إنْ لم يكن كلهم - يذكرون لهذا الأستاذ المتفاني في عمله، فضله في نشر التعليم، وتضحيته بوقته وصحته وراحته وهو أسعد ما يكون بذلك. أما أجر الدراسة تلك الأيام فكانت روبيتين في الشهر ولاتُدفع بانتظام!

لقد اكتشفت في نفسي شوقاً عارماً للتعلّم فلم أقتنع بدرس واحد في اليوم، وصرت أحضر مبكراً لأخذ الدرس، ثم أقوم بتحضير الواجبات المطلوبة، وأتحين الفرصة حتى إذا فرغ مقعد للدراسة جلست من جديد لأخذ درس آخر. وقد يتكرر ذلك عدة مرات في اليوم فلا أجد من الأستاذ غير الترحيب ونظرات أفهم منها أن ذاكرته لازالت بخير.

وبجانب دروس العربية والإنجليزية والحساب، كنت أتسلى كثيراً بدرس تحسين الخط. وأتطلع إلى ما يكتبه في أعلى الصفحة باللون الأحمر وبخط الرقعة الجميل من أبيات الشعر التي تتجدد مع كل درس من مثل:

«هي الأخلاق تنبت كالنبات.. إذا سقيت بماء المكرمات»

كما حفظت منها هذا البيت الساخر:

«يمشي وقد نُصِبت عليه عمامةٌ

كالبرج لكن فوق تلٍّ نفاق»

لقد أيقظت هذه الأشعار أول ميل في نفسي لقراءة الشعر وتذوقه.

صادفت رغبتي للانتقال من مدرسة «التاجر» إلى «المدرسة الخليفية بالمنامة للبنين» كما كانت تسمى آنذاك، قبولاً عند والدي رحمه الله. فبالإضافة إلى كون المدرسة قريبة من منزلنا فإن والدي كان يحمل لهذه المدرسة ذكرى خاصة. لقد كان من بين مؤسيسها الأوائل خلال عام، ١٩٢٧ حينما كان اسمها «المدرسة الجعفرية». وساعد الوالد أيضاً في التعاقد مع مديرها الأول الأستاذ محمد سعيد بن جمعة وعدد من الأساتذة العراقيين. وتولى أمانة صندوقها حتى تم انتقالها بعد بضع سوات إلى الإدارة الحكومية، وطالما روى لنا قصة قيامه بتصفية ديون المدرسة ثم زيارته بعد ذلك للمستشار الحكومي السيد «بلجريف» وتسليمه المبلغ المتبقي من رصيد حسابات المدرسة، الأمر الذي أثار دهشة المستشار وإعجابه. ثم تغير اسم المدرسة خلال الأربعينيات إلى «الغربية» ثم إلى «أبي بكر الصديق».

وقد قيل أن مدير المدرسة وزملاءه من المدرسين العراقيين كانوا متشبعين بروح «الفتوة» والحماس الوطني الذي كان سائداً في العراق آنذاك، فأنشأوا فرقة كشافة وجهزوها بالآلات الموسيقية وصارت تطوف في الأحياء والأسواق مرددة بعض الأناشيد الوطنية مثل:

«يا بَنِـي البحريـن هـبوّا للعـلا

وارفعوا أَرْؤُسَـكم بين الملا» ...الخ

ولم يكن شيء من ذلك موجوداً عند دخولي المدرسة، لكني أتذكر وجود حجرة مغلقة كنا نتلهف لمعرفة ما بداخلها، حتى جاء يوم شعرنا فيه بحركة في فناء المدرسة الداخلي ولما خرجنا من الصفوف شاهدنا مجموعة من الشرطة تُخْرِج أعداداً من الآلات الموسيقية النحاسية وقد علاها بعض الصدأ، بينما انهمك آخرون في تنظيفها والنفخ فيها، وأخرجت آثار أخرى من الحراب والعصي وما يخص الكشافة، وهكذا اختفت تقريباً ملامح الماضي ولم يبق سوى أثر واحد هو درع الفتوة الذي ظل معلقاً على الحائط في موقع بارز من الفناء ومكتوب عليه كلمة «وأعدّوا». لقد كان من المناظر المألوفة أن تجد مجموعة من التلاميذ أمام هذا الدرع في مختلف الأوقات وكل واحد منهم يريد أن ينطق هذه الكلمة أو يفهم معناها.

بعد مضي أقل من سنة في مدرسة «التاجر» وحينما جاء موعدي للحضور إلى المدرسة الخليفية قابلت في الإدارة أحد المساعدين الذي همَّ بإدخالي في الصف الثاني، لولا أن المدير دخل فجأة، وكان هو الأستاذ سالم العريض رحمه الله، فلم يَحُلْ صِغَرُ سني لديه من امتحاني بشكل سريع قرر بعده

أن ألتحق بالصف الرابع، وكنت في التاسعة من العمر، ومن سوء حظي أنني دخلت أثناء حصة الإملاء العربي، وقد مضى على افتتاح الموسم الدراسي أكثر من شهرين، ولم يكن ترتيب دفتر الإملاء بكتابة الاسم والتاريخ والصف مألوفاً في دراستي السابقة، فأثار ذلك حفيظة الأستاذ المهزع فكتب في أعلى الصفحة بالقلم الأحمر «٢٩ شعبان سنة ١٣٥٧هـ». ولعله أراد عن غير قصد أن يخلّد هذا التاريخ في ذاكرتي جيداً فأشفع ذلك بصفعة قوية فكان له ما أراد.

ولم أتمكن من استيعاب التغيير المفاجئ في الدروس والأنظمة التعليمية فخرجت بنتيجة مخيبة للآمال. واستلمت دفتر النتائج - وكان صغيراً في شكل جواز السفر - ويحتوي على النتائج الفصلية. وعلى صفحاته الأخيرة نتائج السنة الدراسية ٥٥٪! وكان عدد طلاب الفصل يربو على ٦٤ طالباً.. وقد كتب تحتها المدير سالم العريض بالخط الأحمر عبارة «اجتهد لا تندم».

لكنني في العام التالي وقد دخلت الصف الخامس حققت نجاحاً باهراً وصرت الأول على الصف، ولم أترك فرصة للندم عملاً بنصيحة المدير، فحافظت على هذا المركز طوال سني الدراسة الابتدائية والثانوية. ولما كنت أصغر الطلاب سناً في كل صف دخلته فقد كانت هذه المفارقة موضع التعليق. والدروس في الابتدائية كانت تقتصر على العربية بفروعها، والإنجليزية والحساب والتاريخ والجغرافيا والرياضة والدين. ولم تكن المدارس آنذاك تعرف رياض لأطفال أو التربية الفنية والموسيقى، أو الأشغال اليدوية أو وسائل الإيضاح. وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية كانت الكتب المدرسية شحيحة وكذلك «الكراسات». وقد درست على أيدي

أساتذة فلسطينيين منهم الأساتذة عارف محمود وعمرو شحذة ويوسف الدجاني ونديم الحلاق. وأما باقي المدرسين فكان منهم الأساتذة: أحمد المهزع وخليل زباري وأحمد جاسم وعبدعلي عباس وشاؤول، وعلي المدني. كما أن المدير سالم العريض كان يدرسنا حصة الحساب من كتاب ضخم باللغة الإنجليزية! وأثناء درس الدين يخرج اليهود وغير المسلمين من الصف، ويتوزع الطلاب بين حلقتين دراسيتين لكل منهما مدرس خاص.

ومن الأمور التي أتذكرها أن مدير المعارف الإنجليزي المستر «والاس» كان نزقاً طائشاً لا يعبأ بمراعاة التقاليد المحلية وأنه فاجأ المدرسة أحد الأيام قبيل الظهر ومعه مجموعة من الأطباء واستدعى جميع طلاب المدرسة للفحص الطبي بدون استثناء. وتحرج معظم الطلاب من الفحص أمام أعين الآخرين وأثار ذلك بينهم الشغب والتذمر، فعاملهم المدير بقسوة. وحين تأخر موعد رجوعهم للمنزل عن حده، تداعى كثير من الآباء إلى المدرسة محتجين ولم يقتنع معظمهم بالمبررات التي قدمتها الإدارة لهذا التصرف الأرعن.

وأما «المستشار» فقد أمر «أثناء الحرب العالمية الثانية» بحفر الخنادق حول ساحات المدرسة وتدريب الطلاب والمدرسين على استعمالها ملاجئ خلال غارات موهومة ترافقها صفارة الإنذار، وكان الجميع ينزل إلى هذه الخنادق على قذارتها حتى تنتهي الغارات!

وزارنا يوماً سمو الأمير المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، وكنت في الصف السادس، ووقع عليّ الاختيار أن أرسم خارطة للخليج والهند ثم «أسافر» من البحرين ماراً بأهم المدن في شبه القارة الهندية، شارحاً ما

تشتهر به كل منها. وشعرت بسرور بالغ للثناء الذي نلته من سمو الأمير ومن الإدارة. ومن المفارقات إنني قد زرت فيما بعد معظم مدن العالم ما عدا تلك المدن الهندية!

وتذكرني أعوام الحرب العالمية الثانية في هذه المرحلة بالفيض الغامر من وسائل الدعاية الحربية الذي يوزع في صفوف الدراسة ومعها بعض الصحف، وأتذكر مجلة «المستمع العربي» سريعة الانتشار، كما أتذكر مظهر الرعب لدى النسوة والأطفال حين يعبر الجنود «السيخ» الأزقة والحارات وهم يهرولون فتوصد دونهم الأبواب وتوقِف «الحارة» أنفاسها حتى يختفي آخرهم عن الأنظار، وأخيراً لايكاد أحد ينسى أيام التموين بالبطاقات والنقص في الأطعمة والضروريات.

وكنت في تلك الفترة مغرماً بالمطالعة والقراءة، فقرأت في الصف الرابع والخامس جواهر الأدب، وكليلة ودمنة، وألف ليلة، وفي فترتي الخامس والسادس الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك، وروايات المنفلوطي، ومؤلفات لسلامة موسى، والمازني، وشعراء المهجر وأخيراً جمهورية أفلاطون.

عدد أبريل ١٩٨٧

٤ ـ كل الطرق تؤدي إلى الثانوية

كان اسمها حين التحقت بها في عام ١٩٤١ «المدرسة الخليفية الثانوية». وكانت لاتزال حديثة العهد. ذلك أنه بينما كنت في السادس الابتدائي جاء من «دائرة المعارف» من يختار عدداً من طلاب الصف لم أكن من بينهم لصغر سني، ولكن كان من بينهم أخي حسين، ويفترض أنه جرى مثل ذلك في سائر المدارس الحكومية الأخرى. ثم ضُمَّت هذه العينات المختارة إلى بعضها واكتملت في شكل صفين دراسيين ليطلق على ذلك اسم «الكلية» بكل ما يحمله هذا الاسم من بريق ولمعان وامتياز كبير. واختير للكلية موقعاً «مقر البنك الشرقي القديم» أو بناية القصيبي القريبة من السوق.

ثم خبا نجم الكلية بعد سنتها الأولى والأخيرة، وانضمت إليها حصيلة الصفوف السادسة والسابعة ليصبح اسمها «المدرسة الخليفية الثانوية»، وتفرق بقية الطلاب وانضم بعضهم إلى مدرسة الصناعة التي كانت بدورها حديثة العهد. لقد كانت بداية الأربعينيات مرحلة مخاض وولادة في تاريخ التعليم في البحرين، تشهد لمدير المعارف الدؤوب «المستر ويكلن» وحيويته تحت رعاية سمو أمير البلاد وتوجيه وزير المعارف المغفور له

الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة.

ووقع الاختيار على منزل كبير يملكه التاجر الوجيه منصور العريض على شارع الشيخ عبدالله بالمنامة ليصبح مقراً للثانوية. وكان بجانب المنزل مجمع صغير لنفس المالك يضم مشغلاً للصياغة وتجارة اللؤلؤ وملتقى لأهل الصنعة. ولم يلبث أن تحول هذا الجانب إلى قسم داخلي ثم انتقلت إليه مكاتب مدير المعارف فالمكتبة العامة فيما بعد.

وكانت الثانوية تشتمل على ثلاثة صفوف، أحدها يطل على حديقة الحيوان «الباغشة» بمنظرها الساحر، والآخران على شارع الشيخ عبدالله. ويقع في الوسط، مكتب المدير وغرفة للمدرسين كان كل منهما يتمتع بميزة هامة هي وجود مراوح كهربائية سقفية!

كان معظم الوجهاء والتجار - ما عدا قلة منهم - يمشون إلى السوق من منازلهم القريبة. وربما خطر على بال أحدهم فجأة أن يزور المدرسة الثانوية في طريقة إلى السوق سواء للاطمئنان على ولده أو لمجرد الاطلاع على معالم هذا الصرح التعليمي الجديد، أو للتبرع بشيء من المال. وكانت مراسم الاستقبال تتم على الوجه التالي: يقرع الجرس ويستدعى الطلاب إلى باحة المدرسة للانتظام في صفوف طويلة ثم يسير المدير برفقة الضيف الزائر، مستعرضاً الطلاب بما يشبه مراسم تفتيش الحرس، ثم يقفان في وسط الساحة فيلقي المدير كلمة ترحيب مناسبة، ثم يتقدم من الطلاب من يلقي نشيداً مثل «عليكِ مني السلام يا أرض أجدادي.. الخ» ويأتي آخر فيلقي قطعة شعرية، ثم يصفر المدير فيهرع عدد من الطلاب

لتشكيل هرم آدمي، يتسلّق فوقه طالب يلقي بيتاً من الشعر. ثم يتكلم الضيف بما شاء، وقد يمر ببعض الصفوف، أو ينصرف مودَّعاً إلى الباب. فأما المنشد فكان أحد اثنين: عبدالرحمن الشيراوي أو حسن المدني وكلاهما امتازاً بجمال الصوت. وأما ملقي الشعر فغالباً ما كان الشيخ خالد بن محمد آل خليفة. كان يمسك المسبحة الكبيرة بين أصابعه، ويتمايل وهو يلقي أبيات الشعر من نظم الشاعر علي الجارم مستغرقاً في أدائها بإلقاء رصين:

«من سلب الأعين أن تهجعاً

وبثّ ذات الطوق أن تسجعا

ومن رمى بالشوك في مضجعي

فبتّ مكلوم الحشا موجعا»

إلى آخر القصيدة.

ويبدو أن الشاعر نظم الأبيات في أعقاب الحرب العالمية الأولى، لكنها ظلت تعبر بنفس الجودة عن مآسي الحرب العالمية الثانية التي كان أوارها مستعِراً آنذاك. أما من يتسلق الهرم بخفة ظبي رشيق فلم يكن سوى أخي حسين كان يلقي دائماً هذا البيت:

«العالم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يخفض بيت العزّ والشرف»

ثم ينزل بسرعة قبل أن تندق أعناق من يحملونه من كبار الطلاب. وعندما

يقوم الضيف بزيارة الصفوف كنت غالباً ما أُستدعَى لإلقاء بعض الدروس أو المحفوظات.

المدرسون.. يمتنعون

أفاد أول تقرير رسمي صدر عام ١٩٥٠ عن «أحوال المعارف بإمارة البحرين» أن عدد طلاب وطالبات البحرين سنة ١٩٤٣ كان ٢٢٥٤ تلميذاً وتلميذة، وأن ميزانية المعارف كانت آنئذ ٢٤٣ ألف روبية كما أشار التقرير إلى أن دائرة المعارف كانت تلاقي صعوبة في توفير المدرسين سواء منهم المحليون والمنتدبون من الخارج بعقود خاصة، ولم يتنظم سلك التدريس إلا بعد مجيء أول بعثة دراسية مصيرية في سنة ١٩٤٤.

كنت عندها في الصف الثالث وكان هو الصف الأخير. ومن بين المدرسين المصريين الأوائل الأستاذ صبحي دحلة ذلك المدرس الساخر الذي لاتفوته نكتة ولا غمزة. وقد تولى الأستاذ يوسف الشيراوي مهمة نظْم أبيات الترحيب الساخر بهذا الأستاذ وترويجها.. تماماً كما كان ينظم حرس الاستقبال الخاص للمدرس «ناير» عند الدخول إلى الصف. واستعمل الأستاذ صبحي مع صفنا أسلوباً جديداً لحفظ دروس الحساب. فطبع لنا نحوا من مائة مسألة من مقرر الحساب قبل نهاية العام، ووعد أن تكون أسئلة الامتحان النهائي من بينها، وهكذا ضمن الطلاب النجاح في المادة، وضمنت المدرسة استيعاب الطلاب للمقرر.

وعلى خلاف الأستاذ صبحي كان الأستاذ عبدالله عبدالأحد البيضاوي من لبنان - مدرس العربية والإنشاء - معروفاً بالفصاحة وحسن الخطاب، يأخذ

الأمور بالجد ويصدق ببساطة وعفوية كل ما يقال له، ويأمرني أن أضع «علامة عاطلة» للطالب الذي يتجاوز الحد في قول أول فعل أو إهمال للدرس، ثم يخصم من علامات الطالب بقدرها، وأتوارى أنا خوفاً من انتقام الطلاب.

ومن المدرسين المصريين مدرس العربية والبلاغة الأستاذ محمود عبدالغني. كان أول مجيئة إلينا يفتتح حصة الدرس بمحاضرة عن مصر وروعتها وجمالها، ويقول إن مصر هي أم الدنيا، وقلب العالم العربي، وأرض الكنانة. إنّ صلة أهل البحرين بالثقافة المصرية والصحافة والأزهر ومتابعتهم للأحداث السياسية في مصر أمر ظاهر للعيان. ويبدو أن الأستاذ الكريم قد توقف عن تلك الدعاية حين اطلع على مدى معرفة أهل البحرين بمصر وما يكنونه لها من حب وتقدير.

أما مدرس الرياضة البدنية كمال عبده فقد استغرب أول مجيئه منظر الطلاب بالدشداشة التي كان يسميها «بيجامه» وأصر على استبدالها في درس الرياضة بالقميص و«الشورت» وحاول أيضاً - باعتباره ملاكما - إدخال دروس الملاكمة، واشترى لذلك مجموعة من القفازات الجلدية، لكنه لم ينجح. وتكونت في عهده فرق للاستعراضات الرياضية والمباريات وألعاب القوى والقفز وركض المسافات وسباق الدراجات.. الخ، وكان بطل القفز العالي بالعصا هو الأستاذ يوسف الشيراوي والمبرز في سباق الجري أخي حسين.

لم يتردد مدير المعارف آنذاك السيد «ويكلن» أن يقوم بملء الحصص الفارغة بعد استقالة بعض المدرسين وسفر غيرهم. وكان يعلمنا درس الطبيعة بالإنجليزي في حجرة أرضية مظلمة، وكان ينكب على التدريس بصبر وجد وهو يتصبب عرقاً من شدة الحر، ويمسك بقطع الثلج التي سرعان ما كانت تذوب

قبل أن يكمل الشرح عن خواص «الماء».

واهتم «السيد ويكلن» بتطوير أساليب التعليم وعلى الأخص منها اللغة الإنجليزية، فأدخل نظام لغة الأساس «البيسك» وتولى الأستاذ أبوالقاسم فيضي تدريس اللغة الإنجليزية وكان يتمتع بخلق رفيع وصبر عجيب على تحمل مشاكسة الطلاب وفي مقدمتهم الشاطر علي بن الشيخ الذي طالما أرعب بسكّينه الطلاب وأغضب المدرسين بدخوله الصف من النافذة بدلاً من الباب! وقد ساعد أسلوب الأستاذ فيضي وإصراره على التخاطب باللغة الإنجليزية على تحسين مستوى اللغة الإنجليزية كثيراً لكنه ترك التدريس بعدما أشيع من أنه يدعو إلى البهائية ثم سافر.

لقد تركت شخصيات أولئك المدرسين بصماتها في توجيه النشء، كما ساهم عدد منهم في المجالات الاجتماعية والثقافية، لاسيما في حفلات المولد النبوي والإسراء والمعراج التي درجت على إقامتها الأندية الوطنية في البحرين. ثم انعكس ذلك على النشاط المدرسي في الثانوية، فصدرت فيها صحيفة الحائط، ومجلة شهرية باسم «وحي الثانوية»، وأنشئت فيها مكتبة عامة وقام طلابها بتمثيل رواية «في سبيل التاج».

العريض.. ونجوم الليل

السماء.. عالم قائم بذاته، له جماله وسماته ومعناه.. ومع ذلك فلعل القليل من الناس من تعَوَّد أن يقَلِّب طرْفه في صفحة السماء ليستمتع بصفائها أو ليواكب نجومها الزُّهر اللَّوامع في مساراتها النافذة في عتمة الليل، أو المتوارية حياء في كنف قمر منير، وقديما أشاد بهذا المعنى أبوالعلاء المعري، بهدى من

بصيرته وشفافية روحه، حين قال:

رُبَّ ليل، كأنه الصبح في الحسن

وإنْ كان أَسودَ الطليلسان

فكأني ما قلت والبدر طفل

وشباب الظلماء في عنفوان

ليلتي هذه عروس من الزنج

عليها قلائد من جمان

وكأن الهلال يهوى الثريا

فهما للوداع معتنقان

وسهيل كوجنة الحب في اللون

وقلب المحب في الخفقان

يسرع اللمح في احمرار كما تسرع

في اللمح.. مقلة الغضبان

قدماه وراءه، وهو في العجز

كساع، ليست له قدمان

ولاشك أن الشعراء والفلاسفة والعشاق هم بعض أولئك النفر من الناس.

أما علماء الفلك فهم ينظرون إلى الأجرام السماوية نظرة علمية مجردة لا

علاقة لها على الأرجح، بالشعر أو الجمال.

وفي مرحلة دراستي الثانوية شغفت حباً بعالم السماء ومسار النجوم، وكان من وراء ذلك أستاذنا الكبير الشاعر إبراهيم العريض، ولايستقيم الحديث عن الثانوية دون الإشادة بأستاذنا العريض، الذي جمع في شغفه بالنجوم بين جهد العالم، وتأمل الفيلسوف، وإحساس الشاعر المرهف.

ومن قبل، عرفت من نجوم السماء النجم القطبي، وعبثاً حاول زميل الدراسة عبدالعزيز القاضي تعريفي بما دون ذلك من كواكب ونجوم، فلم يفلح، حتى جاء الأستاذ العريض إلى الثانوية مدرساً معاراً فأفدت من شرحه الكثير عن عالم السماء الدنيا. وما كانت حصة الدروس عند العريض لتنتهي بانتهاء الوقت حتى كنت أسأله دائماً وكان يجيبني دائماً، حيثما لقيته. وقد أَلِف الطلاب وألِفوه من أول درس وكأن له مع كل منهم معرفة سابقة. وباشر بتدريس الرياضيات باللغة الإنجليزية ابتداء، فلم يعسر فهمها على معظم الطلاب بفضل أسلوبه في التدريس.

وقد أحببت كثيراً الهندسة النظرية وكنت مغرماً بالفَرَضيات والأدلة المنطقية التي وضعها فلاسفة الإغريق، وكنت أسبق طلاب الصف في تعلم الدروس الجديدة بنفسي قبل ميعادها، حتى إذا صادف درس الهندسة فترة ما بعد الظهر والبطون لما تزل متخمة، غلبني التثاؤب أو النعاس ثم سرت العدوى للأستاذ بعد أن تثاءب طلاب الصف أو تظاهروا بذلك، فاستشاط الأستاذ غضباً عليَّ وخيَّرني بين ترك الصف أو الانتقال إلى المؤخرة ففعلت. ولا أذكر أنني عدت لمثلها ثانية. لقد سمعت عن الأستاذ العريض قبل مجيئه إلينا ممن درسوا عنده من قبل وقالوا إنه على ما به من رحابة صدر، يضيق ببلاَدة الفهم

والإحساس، وسخافة السؤال، وشرود الذهن، وإنه إذا غضب حري بأن يريَك نجوم السماء في الظهر!

وقد سعدت بأن أكون أثيراً عند الأستاذ العريض حين قال: «يا بني لابد وأنْ ترى على الطبيعة نجوم السماء في الليل في أوقات مختلفة منه لتكمل معرفتك بها». وضرب موعداً لذلك خلال رحلة المدرسة إلى «البديع» في موسم الربيع، وممن كان يرافقني في رحلات الفضاء هذه الأستاذ سعيد طبارة وأخي حسين وحسن منديل وطلاب آخرون تناقص عدهم بعد ذلك لأن الموعد الأول مع النجوم لايحين إلا مع موعد طعام العشاء! أما الموعد الثاني فهو أثناء النوم!

وكأنما تأبى السماء المتغيرة في مواقعها وكواكبها السيارة آناء الليل أن تطلع أو أن تغيب، دون نظرة وداع أو ضمة لقاء مع عشاقها، فلا عجب إذا كلف الأستاذ العريض نفسه مشقة النهوض في الليل، والمجيء متعثراً بأطناب الخيام، ليوقظ النائمين من سبات عميق، بعد نهار حافل بالتجول والإرهاق. ولاشك أن كل سهر يهون من أجل ترَصُّد ميعاد في أواخر الليل مع «عروس من الزنج عليها قلائد من جمان».

الحرب.. ومواسم العطاء

مع بداية الحرب العالمية الثانية، يتذكر الناس صوت المرحوم محمد دويغر وهو يعلن افتتاح إذاعة البحرين أول إذاعة في الخليج. وأتذكر صوت المرحوم الأستاذ سالم العريض وهو يذيع حديث التعليق على الأنباء أو «خطابات المستر تشرتشل» البليغة، وفيما عدا نشرة الأخبار والتعليق على الأنباء، وكلاهما يعتبران امتداداً لإذاعة لندن العربية، فقد كان الجمهور يتابع بشغف الأخبار

المحلية والعربية، والأحاديث الأدبية، والأغاني الشعبية والتمثيليات الإذاعية. وانشغل الناس في شراء أجهزة الراديو أو تحسين أداء وشكل الموجود منها لديهم. ولم يكن جهاز الراديو شائعاً في كل بيت، فكانت زيارة الجيران للاستماع إلى الراديو أمراً مألوفاً أثناء الحرب تماماً، كما أصبح الوضع فيما بعد بالنسبة لجهاز التلفاز وهو في أول عهده.

ويتحكم صاحب المجلس عادة في اختيار المحطات ويستسلم المستمعون لهذا الاختيار فتارة هنا لندن، وطوراً هنا برلين، وآنا هنا البحرين وكأنهم تنازلوا طوعاً عن حرية الاختيار. وقد كان لإذاعة برلين وبطلها يونس بحري، بريقها ممزوجاً بالحذر، إذ بينما يخفض الصوت تقترب الآذان من الراديو وتزداد حدة الانتباه، فيتحلقون حوله وكأنهم يستعدون لالتهام خروف محشي، حتى يشعر من تبادره السعلة منهم بالحرج أو الذنب فقد يفوّت ذلك على المستمعين خبرا عن زحف «رومل» على الصحراء الغربية، أو استيلاء الألمان على موقع مهم.

وسرعان ما تبدأ مرحلة التعليق، بعد نشرة الأخبار، ويحلل كل منهم الأخبار حسب فهمه ومزاجه، وتختلط الأصوات في مزيج من دخان «القدو» وأعواد الطِّيّب، ولاتخمد تلك الأصوات المتعالية والانفعالات إلا إذا جاءت نشرة أخبار ثانية، أو إذا حضر إلى المجلس أحد ممن اشتُهِروا بمعرفة الأخبار وتحليلها، وهو عادة ما يكون شخصاً متخصصاً في الاستماع الدائم إلى الإذاعات وقراءة الجرائد والمجلات، والتجول بين مجالس الاستماع ليلاً، والمكاتب والأسواق نهاراً، وقد عرفت من هؤلاء المرحومين محمد صالح الشيراوي والسيد مصطفى العلوي، وكذلك السيد يوسف زليخ. ومن طريف ما سمعته عن الأخير

أنه كان يطرق الأبواب في منتصف الليل إذا سمع خبراً جديداً إذ لايحتمل صدره الصبر والانتظار حتى يأتي الصباح. فإذا استجوبه حراس الليل زعم أنه يفتش عن «نعجة» هاربة!

أما من فاتته مجالس الليل فكان باستطاعته إشباع تعطُّشه للأخبار من جريدة «البحرين» للمرحوم عبدالله الزايد حيث يستغرق وقته في قراءة صفحة كاملة عن «حديث أذيع من محطة البارحة» فإذا تُتعِب نظره حروف الطباعة الخشنة الصغيرة وألوان الورق الردئ فبإمكانه الاستمرار في قراءة باقي الصفحات مع الأخبار والشعر والأدب، وسيقع نظره حتماً على جانب من المعارك الأدبية التي كانت محتدمة آنذاك بين «ابن العميد» و«ابن الرومي» وغيرهما من ذوي الأسماء الصريحة أو المستعارة.

ولم أكن أفقه الكثير آنذاك عن هذه المعارك الأدبية لولا ما سمعته عنها بعد ذلك، بحيث خيل إليّ أن معظمها كانت أصداء للمعارك الأدبية المشهورة على صفحات «الرسالة» وغيرها من الصحف المصرية التي احتدمت بين العقاد والمازني وطه حسين، والرافعي وزكي مبارك وغير هؤلاء.

وقد كنت مهتماً بإذاعة البحرين لأسباب أخرى غير نشرة الأخبار، فقد كان المرحوم أحمد يتيم منشغلاً بالتمثيل في الإذاعة، ودعاني مع أخي وعبدالعزيز القاضي للمشاركة في التمثيل حيث كان سني يسمح بتقليد الأصوات الناعمة، وربما كانت التمثيلية التي اشتركت فيها الأولى في الإذاعة وعنوانها «كسرى والعرب» جرى التدريب لها في مدرسة التاجر. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى منزل عبدالله بشمي وانضم إلينا راشد قراطة. ولم يكن التدريب مقتصراً على حفظ الأدوار والأداء، بل

استغرق استحداث المؤثرات الصوتية معظم الوقت، حيث كان أحمد يتيم يروح ويجئ كل مرة مصطحباً ما تيسر من أدوات المنزل والمطبخ لتقليد وقع حوافر الخيل، والمبارزة، واحتدام الحرب إلى غير ذلك. وكان البث المباشر على الهواء يتطلب الإتقان، وتحاشي الخطأ وكتم الأنفاس! وسرعان ما بادرت الأندية الثقافية بعد ذلك بالنزول إلى الجمهور على خشبة المسرح، ولم تكن المسارح جيدة الإعداد من حيث «الديكور» والإضاءة والمؤثرات السمعية البصرية، لكنها أدت دورها بنجاح واجتذبت جمهوراً غفيراً من الناس. ومن الغريب أنه حينما انتظمت المسارح بعد ذلك واستكملت شطراً من بهارجها فقدت جمهورها الغفير.

ثم خبت شعلة المسرحيات وانصرفت الأندية إلى «اليانصيب» وحفلات استعراض القوى وحمل الأثقال ثم إلى لعبة «الهوزي» بعد ذلك.

عدد مايو ١٩٨٧

٥ ـ مع نادي العروبة

لم أكن عضواً في نادي العروبة أثناء الدراسة الثانوية، لكن ذلك لم يمنعني من زيارة النادي، وقراءة الصحف، والاستعارة «المقنعة» من المكتبة، وحضور حفلات النادي الشائقة. وكانت القاعات في النادي تكتظ بالحضور من الوجهاء والأساتذة وأفراد الجمهور المدفوع بالإعجاب أو الفضول. ويفتتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات عادة بإسداء النصائح بأسلوب إذاعي رصين والتشديد على أهمية الأخلاق في نهضة الأمم وواجبات الشباب والمعلم تجاه المجتمع، فيتقبلها الحاضرون بالرضا وبهز الرؤوس بين حين وآخر. وسرعان ما يعقبه أمين السر الأستاذ حسن الجشي فيساهم أسلوبه المتقن وأفكاره المعارضة للجمود الداعية للتطور والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع في رفع درجة الحماس عند البعض وتوتر الأعصاب لدى الآخرين. فإذا صادف وأنّ تلاه في الخطاب الأستاذ علي التاجر خيِّل للحاضرين عندئذ أنهم يواجهون بركاناً يقذف بالحمم، من جراء صراحة الألفاظ والنقد اللاذع ودفقات الحماس كالموج العاصف يغشاه موج من فوقه موج أكبر منه اتساعاً. وبقدر ما تتوالى الصدمات، تتسع الأفواه المشدوهة حتى إذا أكمل حديثه لم يجد منظمو

الحفل بداً من تلطيف الجو باستراحة للمرطبات، أو قصيدة «رومانسية» من شعر المرحوم الأستاذ السيد رضى الموسوي، من مثل:

«انثروا فوق صفحة الدهر أزهاراً يفح ريحها مع الإشراق»

والأستاذان حسن الجشي والموسوي غنيان عن التعريف. أما الأستاذ علي التاجر فلم يُعرَف عنه أنه كان يقول الشعر أيضاً، لولا ما سجلته حفلات نادي العروبة على حد علمي، ومما وجدته في مناسبة من هذه المناسبات، قوله في سنة ١٣٦٠ هـ «١٩٤٠م»:

نحن في مهمة تهاجمنا الأحداث

فيه بكل باغٍ غدور

عزل لا نطيق أن ندفع الضّيم

فنلوي بشرّه المستطير

خنع لا طموح للمجد يحدونا

فنطوي برد الخنوع المرير

خمدت في صدورنا جذوة الدين

فتاهت عقولنا في القشور

وتلاشى الإباء فيها تلاشيَ النور

في لجة من الديجور

آه لـــو تبعـــث الحيـــاة ضيـــاها

ثانيـــاً في نفوســـنا والصـــدور

لجعلنا هـــذي الحيـــاة نعيـــماً

وفضحنـــا أســـرارها بالنـــور

ولم تكن المشاركة الأدبية مقصورة على أعضاء النادي، فقد كان يشترك فيها بين الحين والآخر عدد من أدباء البحرين وشعرائها وأساتذة من البعثات التعليمية كالأستاذ شحذة عمرو، والبيضاوي وغيرهما، كما يتولى التعليق والنقاش الحاضرون من أصحاب الفضيلة علماء الدين والضيوف.

وكان الأستاذ الكبير الشاعر إبراهيم العريض النجم اللامع في معظم حفلات النادي، إذ كانت تفرد له في العادة، أمسيات خاصة بكاملها يستغرقها في إلقاء الجديد من شعره القصصي محفوفاً بإعجاب الحاضرين وتصفيقهم. فقد ألقى بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٣ عدداً من قصائدة مثل «قبلتان» و«التمثال الحي» و«التوأمان» و«أسطورة الخيام» و«قلب راقصة».. وغيرها».

كنت أتابع حفلات النادي بشوق وأحضرها فأجلس بين الصفوف المتراصة محشوراً في مؤخرتها لايحفل بي أحد! لكني أتجاسر على الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الأستاذ العريض التعبيرية. ولم يكن لِيعكر صفو هذه السعادة شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردي إلى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها أصداء من أصوات النواطير المفزعة، تجرع صمت الليل وسكونه. وسرعان ما يصرخ أحدهم فجأة من آخر الزقاق «شنت» فأجيبه بصوت مبحوح من الخوف: «صديق»! كما أنه كان عليَّ أيضاً أن أجيب والدي

بعد ذلك عن أسباب التأخر.

لقد كان الأستاذ العريض أستاذي فترة من الزمن أثناء الدراسة الثانوية، كنت أحسد النادي به، ولكن في مثل تلك الأمسيات كنت أغبطه على كل ذلك الحب والإعجاب الذي يناله من النادي.

ويمضي الزمن، فإذا بالطالب الذي ما انفك يحرص على حضور حفلات النادي، ويلجأ لاستعارة الكتب باسم غيره من الأعضاء، يصبح عضواً فيه، بل ويُعهَد إليه في إحدى الفترات، أن يكون مديراً للمكتبة، فلايلبث أن يلفي نفسه منهمكاً في ترتيب الكتب ليكتب تقريراً بكل ذلك يرفعه إلى مجلس الإدارة. يفعل هذا ولايكاد يصدق أن العمل الرتيب الذي يستغرق منه جهداً لايقوى عليه عوده الطري، هو ذاته مصدر سعادة ورضى، لأنه يضعه وجهاً لوجه مع المراجع والمؤلفات الكبرى التي سمع بها من أساتذته في المدرسة أو أثناء المحاضرات أو من خلال المطالعة، من أمثال تاريخ الطبري، وصبح الأعشى، ومعجم الأدباء والبلدان، وكتب الأدب الأربعة: الأغاني، والعقد الفريد، والأمالى، والكامل، ثم دائرة معارف وجدي وغيرها. وهكذا تأخذة النشوة إذ يجدها بين يديه، يتصفحها على عجل وكأنها زاد المسافر، لأنه أول من يعلم بأن النظام يمنع استعارة المراجع، فيعيدها، ويترك أمر قراءتها للأيام.

ثم إن العمل في تنظيم المكتبة لايكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد، فقد كان من عادة الأعضاء القدامى وممن لهم حظوة في العلم والثقافة - أن يبدأ معظمهم زيارته للنادي بالدخول إلى المكتبة والتجول بين رفوفها المكشوفة ثم لايغادر الحجرة إلا بعد أن يعبث بشيء من الكتب والمراجع، فيعيد بعضها إلى غير موضعه على عجل، ويترك الباقي في مكانه منصرفاً إلى قاعة الجلوس

لقراءة الصحف. وكأنه بهذا العمل قد أرضى غروراً في نفسه، أو أشبع فضولاً، أو أظهر للأعضاء المستجدين صفة من الاهتمام الفكري، يتميّز بها عنهم.

صفة النادي القديم

كانت للنادي بوابة قديمة ذات مصراعين، منهكة الأطراف، لاسيما في الأجزاء السفلى حيث يلتقي المصراعان بسدّة الباب المتآكلة التي تنفرج عنها فتحة على شكل هلال صغير يسمح لحركة الجرذان جيئة وذهاباً، وتتكفل أسنانها القارضة في هدأة الليل توسعة تلك الفتحات كلما ازدد العدد أو كبر الحجم.

وترتفع فوق البوابة لوحة من الخشب السميك مكتوب عليها اسم النادي وتحته اسم كاتبها الخطاط أحمد العثمان بحروف في منتهى الوضوح، ويقال إن مناسبة تعليق هذه اللوحة رافقها احتفال متواضع على قارعة الطريق أثارت حماساً لدى المارة، وأوحت إلى بعضهم وهو الأستاذ عبدالله الكردي بارتجال خطبة حماسية قصيرة نالت الإعجاب.

والداخل إلى النادي يجد نفسه في دهليز صغير شبه مظلم ينتهي بفتحة من اليسار تطل على فناء مكشوف مستطيل، يؤدي من جهة الغرب إلى الحجرة الرئيسية المستطيلة التي تُستخدَم للجلوس والمطالعة وإقامة الحفلات العامة وبعض الأعمال الإدارية. ثم تتصل بها من جهة الجنوب حجرة المكتبة. وهناك حجرة ثالثة مصمتة الجدران على امتداد الدهليز ليس فيها سوى باب يطل على الفناء من جهة الغرب.

ولقد أتيت - ما وسعتني الذاكرة الطرية - فيما سبق، على ذكر الحجرة

المستطيلة الرئيسية التي كانت تقام فيها الحفلات، ولا أتذكر زيادة على ذلك، إلا أنها كانت أكثر الحجرات في النادي بهاء، وأنها كانت من الكِبَر بحيث تتسع في الأيام المعتادة لمن يطالع الصحف، ولمن يجلس للحديث، أو لتناول المرطبات، ولمن يؤدي عملاً إدارياً وذلك في الوقت الذي تتسع فيه أيضاً لمجموعة أخرى من المثقفين، دأبهم النقاش واستعراض عضلات الفكر، أو إطلاق سراح الذاكرة في مجالات الشعر والأدب والتاريخ وهلم جرًّا، حيث تختلط الفصحى بالعامية، وتمتزج كلاهما بكلمات ومصطلحات من الإنجليزية في منتهى السلاسة. وإذا كنتَ غافلا تقرأ في صحيفة دون أن ترفع رأسك، وسمعت صوتاً عصبياً عالياً، موسيقى النبرة، فذلك صوت الأستاذ حسن الجشي. أما إذا سمعت جملاً قصيرةً ضخمةً ينتهي معظمها بكلمة «هامبغ» الإنجليزية، فذلك هو الأستاذ علي التاجر. أما صوت الأستاذ إبراهيم العريض ونبراته فهما مميزان لدى معظم الأعضاء من أسلوبه الهادئ الحاني الرقيق تتخلله عبارة «يا ابني»، والأستاذ نادراً ما يغضب، فإذا فعل فإنه يزأر زئير الأسد فيصمت المتجادلون!

ومعظم أعضاء مجلس الإدارة كان دأبهم النقاش دائماً، والخصام أحياناً ولايجمعهم رأي واحد اللهم إلا في مواجهة الخطر المشترك، وهو في الأغلب أحد الأشخاص من المتعصبين للرأي القديم، أو أحد «المعممين» أي رجال الدين الذين يأتون لزيارة النادي، أو يضعهم حظهم في طريق أحد الأعضاء وهو داخل إلى النادي، فيعزم عليه بالدخول معه.

ومن بين العلماء الذين كانوا يحظون بتقدير خاص واحترام من قبل أولئك الأعضاء، فضيلة المرحوم الشيخ عبدالحسين الحِلِّي، إذ كانت أفكاره ذات شباب وحيوية وعنفوان، فيروق للأعضاء كل ذلك. وممن أذكرهم من العلماء

الآخرين فضيلة المرحوم الشيخ عبدالله محمد صالح، فقد كان يحظى بالاحترام اللائق عند زيارته للنادي، فلا يمنع ذلك الأعضاء من التمادي معه في حرية النقاش، فتصطدم الآراء وترتفع الأصوات!

فأنت تجد أذن أن هذه القاعة كانت تعج بالأنشطة المنوَّعة على صغر حجمها، وهي لاتصبح قاعة موحدة النشاط تُرَصُّ فيها الكراسي صفاً بعد صف إلا في مناسبة الاحتفالات العامة والأمسيات الأدبية من النوع الذي ذكرته في أول الحديث. وقد مر بنا أيضاً وصف حجرة المكتبة، ولم يتبق من حصاد الذاكرة ما يضاف لذلك سوى أن جدرانها كانت رطبة يطفح منها الملح فيسيء إلى الكتب، وأن الغبار يدخل من نوافذ الطريق المترب فيتراكم على السطوح، كما أن الإنارة فيها لم تكن كافية للقراءة. ومدخل حجرة المكتبة المطل على الفناء على جوانبه دكة مبنية للجلوس، ولكن أحداً لم يكن يهتم بالجلوس عليها، فهي من بقايا مجلس المرحوم الشيخ خلف العصفور، ولاشك أنه كان لهذه الدكة شأن كبير، فهي بمثابة مجلس الشرف والحظوة لمن يجاور الشيخ في مجلسه المشهور.

أما تلك الحجرة المظلمة التي ذكرتها - وهي ثالثة الحجرات - فقد كنت أخاف من دخولها وأنا تلميذ، فلما صرت عضواً في النادي وأوكل إليَّ إعادة افتتاح فرع التعليم، توكلت على الله ودخلتها فلم يكن في النادي مكان آخر غيرها. وما بقي في ذاكرتي عنها لا يعدو ثلاثاً: الأولى: إن قاع الحجرة كان متربا، بل قل منجماً من ذلك التراب الناعم المسحوق. والثانية: إن لوحة «السبورة» كانت لاتجري عليها الطبشورات بسهولة لخشونتها وتشقق ألواحها. والثالثة: إن التعليم استمر عاماً أو بعض عام ثم تفرق الطلاب ولم يبق منهم

إلا واحداً استمر لوحده نحواً من شهر. وأنا في حجرة المطالعة أعرف مجيئه من صوت نعاله يسحبها على الأرض سحباً. إذ كان شاباً من أطراف المنامة، وذات ليلة افتقدت صوت مشيته، وطال بي الانتظار فأدركت أن نهاية فرع التعليم أصبحت وشيكة لايمكن تجاهلها، فأغلقنا فرع التعليم. وكانت تلك حسبما علمت المحاولة الثالثة والأخيرة.

ويترامى إلى سمعك وأنت تصعد بشيء من المشقة درجات السلم العالية، الصراخ متعالياً من غرفة السطح المخصصة لمزاولة الألعاب الداخلية. وأول من يواجهك عادة في هذه الغرفة الأستاذ علي التاجر والسيد عباس العلوي في صراعهما الأبدي على لعبة «نرد الطاولة». وهما يلعبانها بمهارة وسرعة نادرتين. ولايمنع ذلك أحدهما أو كليهما من مشاركة الآخرين في تناقل الأخبار أو تشجيع اللاعبين أو تحدي من يلاعبه.

والأستاذ علي التاجر كان يحتفظ بمناقشاته التي لم تكتمل على ما يبدو في قاعة الجلوس، إلى هذه الفرصة، إذ يقوم بمجادلة جمهرة من الأعضاء وهو بمفرده، فيستدير لكل منهم على حدة حتى يُسكِته بكلمة «طق» ثم يعود للآخر وهكذا دوالَيك. ومواضيع الساعة التي غالباً ما تكون مثاراً للجدل هي من مثل الملك فاروق وأحزاب مصر، والعرش الهاشمي وأحداث فلسطين، ونوري السعيد والهلال الخصيب. فإذا استنفدت الأحداث السياسية فهناك أيضاً النقاش حول المفهوم الحقيقي للدين، وتأييد آراء مجلة «الأنصار» المصرية حول العروبة والإسلام، إلى غير ذلك.

وكان الأستاذ علي يلعب الشطرنج في بعض الأحيان وقد تعلمت هذه اللعبة بسببه. أما الآخرون في غرفة الألعاب فتجدهم منشغلين بلعبة «الدامة» أو

«الدمينو»، ولكن اللعبة المفضلة لدى جمهور رواد النادي، وكان بطلها أحد أبناء التاجر دونما منازع، هي طاولة «الكيرم» وهي لعبة لايميل إليها المفكرون عادة كالأستاذ علي التاجر لما تثيره من شغب وعبارات صبيانية، وكانت تسبب لإدارة النادي صداعاً مزمناً، وقد استقال بسببها الأستاذ علي من النادي حتى تم إقناعه بالعدول عن الاستقالة. ومن مرافق النادي التي كانت مسرحاً للنشاط إيوان صغير، وسطح ممتد، وغرفة مجاورة في جزء منها الإدارة والآخر مخصص لتنس الطاولة. إنها جميعاً عبارة عن مساحات ضيقة فُصِّلت على حجم أسرة، ولم يجر على البال أن تصبح مسرحاً لنشاط ناد يعج بالرواد. ولكن ما كان ضِيِّق المكان يوماً بمانع من حرية الحركة لمن دأبه النشاط، لذلك فقد كان لسطح النادي وذلك الإيوان الصغير شأن وأي شأن!

سطح النادي، كان المَفزَع للأعضاء من الحرّ في العصريات والأمسيات. شهد الدروس الثقافية وما تجره معها من مناقشات ومناظرات كما شهد الحفلات الداخلية أسبوعية وشهرية. وشهد كذلك بداية التدريب على التمثيل الداخلي للأعضاء والخارجي للإذاعة وللجمهور. وعند التحاقي بالنادي كانت الأمسيات الأدبية الداخلية تكاد تقترب من نهايتها مع نهاية العقد الخامس ولايعْلَق بذاكرتي الشيء الكثير عن هذه الاجتماعات ما عدا العبارات الرئيسية التي سمعتها في كل مناسبة من رئيس النادي وأمين السر تحث الأعضاء على الحضور، ومن كان في النادي و تخلَّف عن المجيء كان «يُستجلَب» قسراً أو عن شبه قسر لحضور الاجتماعات ويتكفل بذلك عادة الأستاذ حسن الجشي يساعده نفر من ذوي الجرأة واللسان.

ومعظم المتكلمين في تلك الحفلات الداخلية كان يبدأ حديثه عادة، بالتقليل

من شأنه في صياغة الكلام ويبالغ في ذم أسلوبه الركيك وأفكاره السقيمة، وقد يشير إلى نفسه بكلمة الحقير على أسلوب الآباء، ثم يختم تلك الديباجة قائلاً: إنه وافق على المشاركة تحت ضغط من أمين السر أو رئيس النادي، ولولا إلحاحهما لما وقف هذا الموقف الصعب! ويكثر الأعضاء إذا تضمن البرنامج شيئاً من المشوقات كالمسابقات أو الجوائز أو التمثيل أو الموسيقى أو الغناء، وأحياناً يكفيهم للحضور، الكرم غير المعتاد في الضيافة أو وجود زائر غريب، ويقل عدد الحضور منهم حين تقتصر الحفلة على كلمات موضوعة أو مقتبسة، ويبدو التذمر على الحاضرين، من ظاهرة الوشوشة فيما بينهم، أو التململ في الجلوس، أو التثاؤب بصوت مسموع.. وكل تلك الأمور تسبب لأمين السر الغيظ والإحراج.

وأذكر أنني كتبت كلمة تعالج ظاهرة التهرب من حضور الاجتماعات لاتخلو من صراحة ونقد لكلٍ من الإدارة والأعضاء. فلما رأى الأستاذ حسن الجشي قلة عدد الأعضاء ألغى الاجتماع بحجة أن كلمتي طويلة جداً وأن عليَّ أن أقسمها قسمين وأوزعها بين اجتماعين. وفي إحدى الأمسيات حدث لقاء مهم على سطح النادي ضم مجموعة كثيرة من الشباب المتعلم ومن الوجهاء والمصلحين، وذلك لوضع حد لفتنة طائفية ولجمع الشمل في جو من التواصي بالأخوة والإخلاص للوطن والأمير، ثم مناشدة المسئولين مباركة هذه الجهود.

الرحلات.. من أمتع الذكريات

دأب نادي العروبة على تنظيم رحلات ترفيهية للأعضاء إلى الجزر والشواطئ البحرية والبساتين، وعلى الأخص جزيرة «النبيه صالح» قبل ارتباطها بالبر، وإلى سترة حين كان منفذها الوحيد الجسر الذي أقامته شركة

النفط «بابكو» وإلى جزيرة «أم النعسان» وبستان سمو الأمير في الوسمية، وغير ذلك من المتنزهات والبساتين، وكان موسم معظم تلك الرحلات خلال شهور الصيف القائظة، وموعدها من الأسبوع ظهر الخميس حيث يستمتع المشتركون بالنوم على شواطئ الجزر الرملية أو في البستاتين. ثم يهرعون صباح الجمعة إلى العيون الطبيعية فيها مثل عين الرّحى، والسفانية، وحيث لاتوجد تلك العيون الطبيعية توجد الآبار الإرتوازية في البساتين وأحواض السباحة التقليدية، ومن حولها بعض الأبنية القديمة ومرافقها. أما المناطق ذات العيون الطبيعية فلم يكن حولها أي بناء، وكانت ظلال النخيل والأشجار هنا وهناك هي الملجأ الوحيد من وهج الشمس. ويكون موعد الرجوع عادة مساء الجمعة. وقد يجنّ الليل أثناء الرجوع إذا حدث لأحد الزوارق عطل في الطريق أو إذا تاه عن مسلكه الربان.

والقيام برحلات من هذا النوع إلى تلك الأماكن كان أمراً مألوفاً في البحرين، فما هو إذاً الشيء الذي يجعل رحلات أعضاء نادي العروبة أمراً مميزاً وذا معنى خاص؟ وكيف تصبح لهذه الرحلات الترفيهية دلالات اجتماعية ونفسية وعاطفية تجعلها تحتل مساحة واسعة في سجل الذكريات؟

إن الجواب ليس بسيطاً، وهو يذكرني بقصة قرأناها في المدرسة عن شخصين الأول متعلم والثاني أمي حينما ركبا لُجَّة البحر في زورق وسأل المتعلم الأمي إنْ كان يجيد القراءة والكتابة، فلما أجابه بالنفي قال له: «لقد خسرت نصف عمرك». فلما أشرف الزورق على الغرق سأل الأمي رفيقه المتعلم إنْ كان يحسن العوم فأجابه بالنفي فقال له: «لقد خسرت عمرك كله».

وقد شاهدت المتعلمين وخبرت الأساتذة والمثقفين في تلك الرحلات فوجدت معظمهم أعجز ما يكونون عن الاعتماد على أنفسهم وأقل قدرة عن مساعدة الآخرين اللهم فيما عدا إصدار الأوامر. إن عدداً من غير المتعلمين أو من أنصافهم كان يستأثر بالإعجاب في تلك الظروف ويحظى بالسلطة في تسيير أمور تلك الرحلات بعد أن تخلى لهم الأساتذة وفرسان الكلمة عن الميدان طائعين.

وأنت تجد أن أمثال هؤلاء يمتازون بالبساطة والطيبة، وهم أبصر بمسالك الطرق، وأعرَف بالمواضع والأشخاص، وأقدر على التعامل مع أفراد الشعب. وهم يهبون للنجدة بوازع من حب المساعدة.

وحالما تحطُّ الرحال، تراهم يعملون كخلية النحل، في إعداد الوجبات، وتوزيع المرطبات، ثم تجد منهم من يفرش الأرض، ومن ينقل الماء، ومن يطبخ ومن ينفخ ومن يصب القهوة والشاي ويلاطف الناس مشرق الوجه مبتسماً مسروراً بما فعل. وكأني لحد الآن أسمع في هذه اللحظة ضحكات المرحوم جعفر الناصر ونكاته، وأشاهد ابتسامة المرحوم نوح قاسم وسروره كلما خاطبته قائلاً:

«عليك ناح غـــراب البين يـــا نـــوح

أيـــن الســفينة بل أيـــن الملاليـــح»

فيعجب للشعر ثم لايغضب لمعناه! وكأني بالمرحوم السيد عباس العلوي يتبادل الأدوار مع غيره من مثال رشيد الماحوزي، ورضي القميش وعبدالله الوطني والمرحوم أيوب حسين وكاظم العصفور حتى إذا صب الطعام وجهزت

المائدة وجدتهم أكثر الناس سروراً وأقلهم شراهة وأكلا، وأوسعهم صدراً للدعابة وأكثرهم صبراً على النقد وجوارح الكلام.

ويختلط في هذه الرحلات الترفيهية أعضاء النادي، صغاراً وكباراً، ويأتي مع بعضهم أقاربهم أو إخوانهم أو آباؤهم فيتعايشون، حين يعطي أولو العزم والهمة لإخوانهم خير ما يتمتعون به من مواهب إنسانية، فإن ما يسمعونه من كلمات التقدير والإعجاب يعطيهم تعويضاً نفسياً يغمرهم بالرضى والسعادة، ويجني النادي من ذلك كله الشيء الكثير!

إتفاق أدبي من عشرين بندا..

كان من رأي زميل المدرسة الثانوية.. عبدالعزيز محمد القاضي، أن تبادل الأفكار في أمور الثقافة والمعرفة، والأدب والشعر، أمر بالغ الجدية ويحتاج إلى توقيع اتفاق بيننا يقول: «لقد عزمنا نحن الاثنين الموقعان أدناه أن نقوم بعون الله، في تبادل آراء وأفكار تتضمن نواحي علمية وأدبية واجتماعية تعود علينا بالنفع المأمول!.. الخ». ثم يعقب هذه المقدمة تنظيم كيفية التعاون في عشرين مادة! وقد سقط التاريخ سهوا لكنه كان على الأرجح خلال عام ١٩٤٣ حينما كنت في سن الثالثة عشرة. ثم تداولنا ردحاً من الزمن في تبادل آراء وأبحاث تتضمن الشعر والأدب، والفلسفة، والأخلاق والعادات وفقه اللغة، ومعنى السعادة وغير ذلك. وكتبنا بها محضراً يتضمن الرأي المشترك، أو تسجيلاً لموقف كل طرف عند الاختلاف.

وكان من سوء حظي عند الاقتراع أن أكون البادئ بالحوار، ولم أجد شيئاً سوى أن أشحذ القريحة لنظم أبيات من الشعر كانت أول تجربة في هذا المجال:

نظر البدر من خلال السحاب

فرأى الماء كاللُّجَين المذاب

فأتى كي يبل جسماً نحيلاً

هدّه السير في الفيافي الرحاب

فرمته الحراس، وهي ظلال

رسمتها البيوت فوق الحباب

برماح طويلة وسهام

وسيوف قواطع وحراب

فاعترته انتفاضة الذعر لما

لامس الماء، فانبرى للإياب

وبقدر ما كان سروري بنظم تلك الأبيات عظيماً لكونها تجربة في استقامة الوزن والقافية على أقل تقدير، وتصويراً ساذجاً لاضطراب وجه القمر على صفحة الماء فإن عبدالعزيز لم يترك سهماً في جعبته الثرية برصيد أدبي جيد وذوق ناقد إلا ورماني به، حتى عزفت عن النظم فترة من الزمن، بينما قرر هو استبعاد القطعة وعدم الاعتراف بها. ولم استنكر منه ذلك فبالإضافة إلى فارق السن بيننا فقد كانت لديه موهبة أدبية راسخة. وحين قرأ عليَّ ما نظمه بعد ذلك بزمن غير طويل، وأتى على وصف «البدر» في السماء كانت ترافقه بسمات الظفر وهو يقول فيها:

«قد انهد جلبـــاب الظـلام وجفنه

وأطبق سترٌ حالك اللون فاحمُه

فيالك من مرأىً ويالك مـــن رجىً

أهضت بقلب الصبّ.. ما هو كاتمه

وإنْ ضاء بدر واجتلى ظلمة الدّجى

فلاح كوجهٍ واهن الطرف ساهمه

فيالك بدراً، كدت مـــن روعـــة لـــه

أطـــير كأنـني بين صدغيه لاثمه

يضاحك سربال الظـلام فينتضي

عن الركب بؤساً.. طالما التجّ عارمه»

وبعد مرور سنة أو تزيد من المحاورات والمناظرات، والاتفاق والاختلاف، دب الملل إلى نفسين ناشئتين تتشوقان إلى المعرفة وتتطلعان إلى الجديد. واتخذ الاتفاق سبيله إلى زاوية النسيان.. فقد طرأ على الساحة عنصر جديد استحوذ على الاهتمام.. إنه مجلة «الأنصار» القاهرة، مجلة «الفكرة العربية والثقافة الإسلامية».

عدد يونيو ١٩٨٧

٦ ـ دعوة الأنصار

تولّت آخر مقالة في مجلة «الأنصار» القاهرية في سنتها الرابعة عام ١٣٦٣هـ، قبل أن تتوقف نهائياً عن الصدور، شرح تاريخ الحركة وبداية فكرتها، فهي «مجهود قلة مناضلة وراء الحدود والقيود، غير منظورة ولا مسموعة ولا ذات خطر، وهم في مصر لم يتجاوز عددهم أحد عشر رجلا». والبدية كانت عام ١٣٥٩هـ حين عقدت الجمعيات الإسلامية في مصر ثلاثة اجتماعات لمؤتمر عام بقصد الوصول إلى «جبهة إسلامية»، حيث حضر هذه الاجتماعات نحو ستين جمعية! لكنها انتهت جميعاً إلى الفشل بسبب الأحقاد والتنافس الشديد على الرئاسة والمراكز والاختلاف على صيغ العبارات والألفاظ البراقة! وقد شهد صاحب الأنصار «أحمد صبري» تلك الاجتماعات وتأكد له عدم جدواها، فأسس هيئة «للتوجيه الثقافي» أساس عملها «تقريب الثقافة الإسلامية الحقيقية لأذهان المثقفين، ودعامة قانونها إلغاء نظام «الرياسة»، وأن لايزيد عدد الجماعة على خمسة وعشرين، وأن لا يقبل فيها المشهورون المعروفون من الأدباء والكُتّاب الذين تحددت ميولهم وأهدافهم. ثم انضمت إلى تلك الهيئة أسماء معروفة مثل حسن عبدالمقصود المحرر بجريدة «الأهرام»، ومحمد

أبوبكر إبراهيم، مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف، وشاعر لم يُذكر اسمه، وعدد من رجال التربية في الجامعة ودار العلوم والجهات الثقافية الأخرى، منهم:

حامد عبدالقادر أستاذ علم النفس واللغات السامية بدار العلوم، والدكتور أحمد فكري واثنان من الصحفيين المعروفين فبلغ مجلس الأنصار أحد عشر عضوا!

ثم صدرت مجلة «الأنصار» لتحمل صور هذا التوجيه الثقافي، ورسائل الأنصار باعتبارها مادة هذا التوجيه ومرجعه، وصدر من تلك الرسائل: كتاب «النظريات العلمية في القرآن ثم «قناع الفرعونية» ثم «ضوء في تاريخ التوحيد».

أما المجلة فقد ابتعد بها «أحمد صبري» عن توجيهات الهيئة ومجلسها حتى لا تقع مشاحنات، وارتضى «حسن عبدالمقصود» صاحبا لامتياز الأنصار. وقد أقامت أسرة الأنصار ثلاث حفلات تعارفية في ثلاث سنوات متعاقبة شهدها كثير من الأصدقاء الشخصيين، يصفهم صاحب الأنصار بأنهم صفوة من الرجال المعروفين في المجتمع بالأمانة والجهود الثقافية. وبهذه الاجتماعات وحدها - على أنها مجرد مظهر تافه - تهيب الأنصار كثيرا من أعدائها الألداء.

يقول أحمد صبري عن قصة البداية: كان كل شيء حولنا في سنة ١٣٥٩هـ كما هو اليوم شبيها ببرج بابل. على أن أكبر خطوة إصلاحية قمنا بها في أثناء العام الأول هو شل حركة هؤلاء «العلماء ذوي المؤهلات» الذين طمعوا في

الانتفاع من موجة إصلاحية حديثة كالأنصار فيها عزم وطرافة، ولها منهج وصحيفة. فخفَّت حدتهم بالتدريج حتى انتقلوا من مؤسسين في حركة الأنصار إلى مساهمين مثابرين في قراءتها، ومبايعة نشاطها ومعاونتها من جهة نفوذهم بقدر الإمكان.

وبعد مرور نحو سنة على الهيئة الثقافية، ضاعت في المناقشات والاقتراحات، صدرت «الأنصار» وصدرت أبحاثها عن الفرعونية، ومقالاتها في الحملة على طه حسين وسياسته «في مجاهل وزارة المعارف» فاضطرب لذلك أصدقاء الأنصار العلماء، وجزع رجال الفن، ورجال اللغة العربية ورجال الدين أيضاً.

ثم واصلت الأنصار مسيرتها في وجه التيار أربع سنوات بأقلام كتابها غير المشهورين، واقتصرت الأقلام المعروفة على عدد قليل من الأسماء والمقالات من بينهم محمد سعيد العريان، ومحب الدين الخطيب، وفريد الراوي، ومحمد محي الدين، ثم فهد الريماوي، ومحمد أسعد راجح، وصاحب الامتياز حسن عبدالمقصود، وكأنما كانت المجلة تتخلى عن تلك الأسماء المعروفة أو كانوا يتخلون عنها مع بداية كل عام جديد، حتى اقتصرت على الأسماء الثلاثة الأخيرة، لقد كانت مسيرتها تشبه انطلاقة صاروخ ذي أربع مراحل، تنفصل الواحدة تلو الأخرى بتعدد المحطات، فلايكون هذا الانفصال سبباً في ضعف، أو انحرافاً عن خط سير، وإنما هو مبادرة مقصودة لإيصال «المركبة» وملاحيها القلائل إلى مدارها المطلوب في الفضاء الواسع وراء الحدود والقيود.. المدار الذي رسمه صاحب الأنصار وسعى إليه.

الأنصار.. والشمس الغاربة

«تقوم القصور وتقع، وتُشاد البواذخ ثم تنهار، ولكن صروح الدول التي أقامها العرب باسم الله عشرات المرات ليست كالقصور والصروح. فكل حجر منها كان خليقة من الخلائق الطيبة، وسجية من السجايا الكريمة، وشرعة من الشرائع الخالدة، فوقوعها وتفتتها بانهيار هذه الدول قد ترك على الأرض أطلال الدين لا أطلال المُلك، وشواهد العدل لا بقايا الجبروت، ومعاً لم الوعي والرغد والرخاء، لا آثار الذل والخنوع والخوف. فأي رجل لايبكي كثيراً بهذه الأطلال، ولاينشج طويلاً عند هذه الدوارس!».

تلك الكلمات لأحمد صبري صاحب «الأنصار» المجلة التي وقف بنا حديث الذكريات عندها، فيما سبق. ولو قُدِّر لإنسان اليوم أن يعود خمسة وأربعين عاماً إلى الوراء، ليقابل أفراداً من المعجبين بالأنصار، أو المتحمسين لها، لوجدهم على هيئة تقرب من الوصف المذكور. لقد كانوا حقاً فتية تبدو على وجوههم ملامح الجدِّ إنْ وقفوا لسؤال، وإذا ساروا فكأنما هم - على طراوة أعوادهم - يحملون معهم ماضي أمة، وطموحات جيل. تأمل ما قاله ذلك الفتى الذي قصر باعه في تجربة الشعر فعزف عنه على نحو ما سبق ذكره، كيف يعود بعد شهور. فينظم على نفس الشاكلة:

حـنَّ الفـؤاد وهاجـه الوجـد

وصبـا، فليـس لوجـده حـدُّ

وشجـاه ربـع، كـان منتجعـاً

للعـزّ، أبلـى رسمـه العهـدُ

فلــــو أن أطـــلالاً تقاذفـــــها

ريــح تـــروح، وديمـــة تغـدو

لبدا بهــا الرســم المُحيــل ومــا

ربعـــي يكـــاد من البلى.. يبدو

أوَ كلمــا ســـاءلــت دمنتـــــه

عـــزّ الجـــواب.. وأبطـأ الــردُّ

داعــي الهــدى، والشــرع منفطــر

والجــور يستشــري ويشـــتدُّ

لبتـــك منّـــا أنفـــس كرهــت

ضيمـــاً.. وطعـــم حمامها شهـدُ

تلـــك النفـــوس علـــى بداوتـــها

لكــن تحضّـــرَ دونهـــا الجلــدُ

ثم تأمل ما قاله شاعرهم عبدالعزيز القاضي، في أكثر من مناسبة، في التحسر على الأمجاد الذاهبة:

شجى الربع صباً لم تهجه طواسمه

بـل الأرث مسلوباً، وقد عزّ ظالمه

حنانيكمـــا روّعتمـــاه وقلبـــه
تظل على الذكرى الشجون تقاسمه
فقد سلب المجد الذي شـاد سمكـه
أباه من الآباء.. لا عـزَّ هادمـه
ألا كفكف الدمع الهتون أخا الحجى
فما الدمع شافٍ الخائرات عزائمه
لأنت الفتى فانهض كفيت أذى العدى
وشمـّر فـإن الجور هبّتْ سمامئه
فمـا عازبـات المجـد إلا روائـح
وما يفتلى المربـاع إلا سوائمـــه

ومثل قوله من أبيات مشبعة بأنفاس من البيداء:

أهيجـا فـؤاداً كـاد أن يتأرّسـا
يؤرّقه هم.. إذا اللـيل عسعسـا
برته يد الأحداث - إلاّ صبابـة -
فما جُس نبـض فيه.. إلا تنفسا

أربع العلى والمجد قد كنت عامراً
فما لك إذ ناجيتك اليوم أخرسا
أكفكفه دمعاً إذا سال غربه
فما انقاد لي صبر، ولا الدمع أسلسا
أهجت دفيناً أيها الربع إذ غدا
مقامك بعد العزّ، أشقى وأتعسا
خليليَّ إنْ ترقأ على الدار عبرتي
فجودا بدمع منكما ليس أبخسا
إذا الدهر لم يوردك للخير مشرعاً
فكن أنت للخير الغداة.. مؤسسا
وإنْ جابهتك النائبات بنكبة
فجابه بها نفساً لدى الكرب أمرسا

ثم يتردد مثل ذلك لدى «أنصار» الشام ولسان حالهم يقول:

الرمال السمراء ظمئى إلى الماء
وتسقى الدنيا إباءً ومجدا

كما يشارك شاعر الأنصار في العراق هلال ناجي متجاوباً مع أصداء الأنصار..

أقلِّي العتاب، وكفّي الملاما
وخلي الشجون تزيد اضطراما
إلامَ السكوت وذا موطني
يسام نكالاً ويشكو الطغاما
ومن يَعْربٍ أمة للخلود
تنازعها الكيد.. عاماً فعاما
تقطّع أوصالها بالظباة
وتأبي المقاطع فيها انفصاما
فما للشباب أطاع الخنوع
وما للكميّ.. أضلّ وهاما!!

وحين نعود بعد ذلك الاستعراض السريع الذي لم يشمل كل مَواطن الأنصار على امتداد الوطن العربي، لنستزيد صاحب الأنصار في شرح موقفه من صروح وأطلال حضارة الشرق التي سبقت ظهور الإسلام، نقرأ ما يلي عن حضارة مصر الفرعونية: «حقاً لقد كان المصريون القدماء في عهد الفراعنة أقوياء، ولكن جزيء هذه القوة كان مركباً في ذرتين: إحداهما عبوديتهم لأربابهم، والأخرى جهلهم بحقوقهم. لقد كانت قوتهم المظلومة أشبه في تدفقها بعصارة الزيت، ولا تظهر في الوجود إلا من طواعية المعصرة، وانقياد الثور!».

ولمن يسأل عن حقيقة أحوال العرب والمسلمين في هذا العصر يجيب: «والآن بعد ألفٍ ومئات من السنين يعود العرب والمسلمون في أوطانهم التي صغرت، إلى فقر الموارد، وفاقة العيش، وهذه العودة المخزية هي أبسط ما يفرضه الله من العقوبات على المفرطين في مواهبهم وفضائلهم».

الأنصار.. والفكرة المستجدة

نقرأ للأنصار هذا الاستهلال: «الإسلام والثقافة العربية كما يجب أن يعرفهما الناس معرفة الفهم والاقتناع يحتاجان في هذا العصر إلى عرض الإيمان بهما عرضاً صحيحاً، يستند إلى العلم والمنطق والذوق، استناده إلى الاعتراف بجميع التطورات التي اتسعت بها معرفة الناس في هذه الأيام الأخيرة، وإلى الإقناع العقلي بأن أكثر ما خرج من هذه التطورات من تلبيسات الحياة وبوارقها إنما هو لغو بالنسبة للإنسانية عامة، وخطأ في الاتجاه بالنسبة للمسلمين خاصة». ويضيف صاحب الأنصار في موضع آخر موضحاً: «فالعلم المعاصر الذي استطاعت أدواته ووسائله أن تمكن للعين الأوروبية الباهتة الحولاء من الاستطلاع في خفايا تاريخنا، وأحوالنا، وأسرار نهضتنا، هو بنفسه الذي يعيننا بهذه الأدوات، نحن العرب، على رد هذه الزيارة الاستطلاعية للشرق والغرب معاً، فتحت يدنا الآن من وسائل الاطلاع على شتى حوادث التاريخ، وتموجات العقل، وتقلبات المذاهب، واصطراع الرغبات، ما يجعلنا بالمقارنة، وبالتجربة، نستخلص الرأي الذي نراه في قوانين السلوك والاعتقاد التي تدور عليها رحى النضال الحي في حياة الأمم التي نراها، والتي يرتبط مصير مجهودنا الحيوي بها، ونحن نعيش مع هذه الأمم عيشة التبادل والتجاوب والتعاقب في داخل هذا الجسم البشري

الواحد، الذي لا فكاك لنا في حدوده وقوانينه وارتباطاته، أو في المقدور لنا في آخرته وغايته ومستقبله».

وبعد: فلا أذكر على وجه التحديد متى وأين كان لقائي الأول مع مجلة الأنصار، والأرجح أنني اطلعت عليها لأول مرة من بين المجلات التي كانت معروضة على المائدة الثقافية في نادي العروبة، من أعداد السنة الرابعة والأخيرة في عام ١٣٦٣هـ. وسرعان ما وجدت أن عبدالعزيز القاضي يشاركني هذا الإعجاب بالأنصار. ثم اكتشفت أن دائرة المناصرين والمعجبين بها كانت أوسع مما ظننت، فقد شملت الأستاذ إبراهيم العريض، وحسن الجشي وعلى التاجر، وإبراهيم الصباح وعدداً من الأدباء والمثقفين. ومن زملاء الدراسة والطلاب الشيخ خالد بن محمد آل خليفة والشيخ دعيج بن علي آل خليفة، والشيخ عبدالرحمن الجودر، ومطر علي مطر وفهد الظاعن وغيرهم.

أما سبب هذا الإعجاب المتنامي يوماً بعد يوم، بالمجلة ومواضيعها وترَقُّب إعدادها الجديدة في مطلع كل شهر هجري، فهو بدوره أمر يستعصى على التحديد والحصر.

والحقيقة أن «الأنصار» بذلت كل ما في وسعها لشرح تلك الأفكار والدفاع عنها بجرأة نادرة، على امتداد السنوات الأربع من عمرها، وهي أفكار كانت تنطلق من آفاق جديدة تختلف عما ألِفه القراء، في المجلات أو في بطون المكتبات، حتى لقد تحير الكثيرون في تصنيف الأنصار ووضعها بين «التقدمية» أو «الرجعية»، وكانت الأنصار تنشر رسائل المادحين وأقوال القادحين ثم ترد عليها بأسلوب «جامع مانع» كما يقول المعجبون. أما قول

الكارهين لها فمن مثل ما نشرته نقلاً عن مجلة الصباح الدمشقية تحت عنوان «مدرسة جديدة» قولها: «يحرر هذه المجلة كُتَّاب لم يُشتهروا بعد واثقون من أنفسهم، يدعونك إلى الثورة على المجتمع الحديث «المجتمع المظلم»، كما يسمونه، والعودة إلى نظم بسيطة من الحياة، ويُسبِغون على دعوتهم، ونقاشهم، وعلى شتائمهم التي يوزعونها بين كل الناس، مظهراً من العلم عنيف الحجة، ماهراً في الاقناع، لأنهم يحاربون الحياة التقدمية الحديثة وهم مطلعون على كل دخائلها».

وهكذا بين أقوال المادحين، وأصوات الكارهين كانت الأنصار تستقطب من حولها عدداً من رجال الثقافة والفكر الذين وقفوا عند حد الإعجاب، ومجموعة من الشباب المثقف المتحمس الذين تجاوزوا دائرة الإعجاب إلى حد المناصرة والتأييد والحوار المستمر. وقد جرى مثل ذلك في البحرين، وقد كنت مع أولئك الزملاء من الطلاب ضمن تلك الدائرة الأقرب إلى الأنصار.

وأتذكر أنني على محدودية ثقافتي في المرحلة الثانوية، وضغط الدروس كنت أرافق مجلة «الأنصار» حيثما حللت لاستكمال قراءة مقالاتها قبل ورود العدد الجديد في مطلع كل شهر هجري. وكان أخي الأكبر يشتري الأنصار ولكن سرعان ما أتلقف العدد منه ثم أحتفظ به لنفسي. ولم أعرف طوال تلك الفترة ولا أخال أن زملائي كانوا يعرفون الكثير من الأسماء المشهورة اللامعة في عالم الرياضة أو السينما أو التمثيل أو الفن أو الغناء على نحو ما يفعل الشبان الناشئون. فقد كانت أدمغتنا الفتية وأخيلتنا الجامحة منشغلة بأسماء أخرى تملأ فراغنا بالجد، وعبثنا بالاهتمام، كما تستحوذ على قدر غير يسير من مساحة اللهو واللغو في حياة كل منا.

ولربما كنت مطالَبا أن أقف قليلاً للتعريف بتلك الأسماء وأصحابها، وهو أمر غير يسير لما قد ينطوي عليه من إيجاز وأجحاف.

أحمد صبري

ولكننا وقد ركبنا قطار الزمن مع الأنصار فلابأس من أن نتعرف على تلك الوجوه والأسماء، قبل أن يقف بنا في محطته الأخيرة، وسيكون هذا التعريف مجرد لقاء عابر في مسرح الذكريات لا شأن له بالدراسة الجادة، أو النقد والتحليل. ولابد أن نبدأ بصاحب الأنصار وحامل فكرتها «أحمد صبري شويمان»، ولاشك أن دوره يتجاوز كثيراً المقالات الموقعة باسمه أو باسم الأنصار والكتب التي صدرت باسمه، فأنت تشعر بأن روحه وفكره يسريان في جميع المقالات، رغم تعدد الأسماء. وخصّ أحمد صبري نفسه بكتابة الافتتاحيات وسلسلة مقالات متصلة في كل عدد تلقى أضواء على تاريخ التوحيد في حياة العرب قبل الإسلام وتبين أنهم وإنْ كانوا وثنيين في الظاهر فهم موحدون بالفعل. وتنضوي تلك الأفكار تحت نظرية «أثر البيئات في العقائد» فهو يدلل على أن بيئة الصحراء العربية التي عاشها البدوي قادته إلى معرفة الله.

ويستشهد في دعم ذلك بآراء من سبق من المفكرين، وعلماء الاجتماع والمتخصصين في دراسة الهجرات العربية التي انبعثت من جزيرة العرب وتاريخهم وخصائص حياتهم الاجتماعية والعقلية. وبسبب هذا الاستعداد الفطري والخلقي كان اصطفاء الله الأمة العربية لحمل رسالة الإسلام «والله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولهذا يستنكر صاحب الأنصار ما رسخ في الأدمغة عبر التاريخ من اقتران مدح الإسلام بذم العرب والحط من شأنهم وتضخيم الجوانب السلبية التي سادت مجتمعهم قبل الإسلام. دون الاهتمام بتحليل أصولها ومعرفة منشئها، ويعتبر ذلك من فعل الشعوبيين الحاقدين.

محمد ظافر

ثم نلتقى بكاتب آخر وهو «محمدظافر» وموضوعه الدائم الذي يكتب فيه تحت عنوان «المجتمع الإسلامي المنشود». وهو يجيب على سؤال «كيف كنا نعيش لو تصورنا استمرار الحضارة العربية الأولى»!! فينتقد من يتصور إمكانية اقتباس خير الحضارة الغربية دون شرها لأنهما كما وصلا إلينا اليوم متلازمان. فأما العمل الصحيح فهو عزل التطور العلمي عن الثقافات المتزامنة معه، فيبقى العلم وهو ترث إنساني عام، ونستعيض عن الثقافات المستوردة بثقافتنا العربية الإسلامية. فالمسألة هي أن كل العلوم باقية لأن أية حضارة في الدنيا لاتقوم بالتأخر عنها. ولكننا سنستخدمها بحسب حاجاتنا وأذواقنا لا بحسب حاجات الآخرين. فلايكون مجتمعنا هجينا خليطاً مرقعاً، وإنما يكون مجتمعنا ذاتياً أصيلاً متماثلاً، فيه من كل صور الحياة، وليس لحياة الآخرين صورة فيه.

وفي جانب آخر من المجتمع الإسلامي المنشود يتكلم محمد ظافر عن العوامل الاقتصادية في المجتمع وتأثيرها على دور كل من الرجل والمرأة فيه. وهو يرى أن نظام الأسرة يلقي الضوء على النظام المالي، وأن الشريعة العادلة للمرأة ليست الحجاب ولا السفور، وأن الآلات ليست هي التي استعبدت الناس، وليس العلم هو الذي أدى إلى تظالم الأمم. ثم يقول: أصبح

البحث في نظام الأسرة في حضانة الفقهاء الإسلاميين يدافعون عنه بالحجج القديمة التي في أيديهم، وعلى ألسنتهم وفي كتبهم. وصار النظام الاقتصادي بجميع مسائله ومشاكله بعيداً عن متناول أيديهم، لأنه يتراءى لهم هناك على الزبد العالي في موج البحر المتلاطم الذي لم يركبوه بعد. ولكن من الذي فصل بين نظام الأسرة وقواعد تركيبها الاجتماعي وتوجيهها الفكري، وبين القوانين الاقتصادية التي تضع الدرجات لهذه الأسرة في مجال الإنتاج والكسب والاستهلاك، والتي تحدد لها مسالك التعامل الصحيح في كافة نواحي النشاط، أخذا، وعطاء، واستفادة! الذي قرر هذا الفصل تأخر الدعاة الإسلاميين عن الانتهاء من الكلام في مسائل السفور وتنظيمه، ومساواة المرأة بالرجل وحدودها، وإباحة الرقص الإفرنجي أو استنكاره، ومشكلة أزياء النساء على البحر وحِلِّها، وهل يجوز الزواج من أربع في هذا العصر الآلي أو لايجوز؟! ولذلك مرت الشئون الاقتصادية - باصطلاحاتها المعاصرة - دون أن يتبينها الرأي العام الإسلامي، بجميع مؤثراتها القوية لاتمسه بشيء!

حامد أبو العطايا

وتحت عنوان «نظريات في حياتنا العقلية» يعالج حامد أبوالعطايا ظاهرة تدني مستوى ومضمون النتاج الفكري والثقافي في المجتمع العربي، ويعتبر كثرة انتشار الجمعيات والنوادي والمؤسسات الإصلاحية، بصورتها الحاضرة، ظاهرة مَرَضية خطيرة تشير إلى وجود الداء، أكثر من توفر الدواء، لأن العلاج لايكون في متناول أيديها وهي على تلك الصفة من تصارع الأهواء وتعارض الرغبات والأهداف، فيقول تحت عنوان «ماذا تحب أيها

القارئ.. إنني أريد أن أربح منك، فأرشِدني إلى ما تحبه وترضاه». إن معظم الكتب والمجلات أصبحت الآن منبهات عضوية شديدة لا أكثر ولا أقل، فتناول قطعة من كتاب كذا، أو ازدراد موضوع من مجلة كيت يفيد بحسب تجارب العارفين في تنشيط بعض الغدد أو اخماد بعض المشاعر الإنسانية الطيبة! أو إحداث الانفصال العقلي عن كل مسئولية أدبية ليتم اندماج القارئ في عالم اللهو وغيبوبة الاستهلاك الجسدي، ولم يعد غريباً من طول تملق هذه المجلات والكتب لأهواء القراء، وتعقبها لأجسامهم تعقب كلاب الصيد، أنْ نجد عدداً كبيراً من الشباب يصابون بداء الخضوع للعادة في شراء هذه المجلات، حتى بعد زهدهم فيها، وسأمهم لحاجتها، فهم يشترونها ليطرحوها أرضا! ماذا تحب أيها القارئ.. إنني رهن أشارتك! هذه لغة الناشر، وليست لغة المفكر! ولعله قد ذهب المفكرون من زمن بعيد، وبقي الناشرون وحدهم! كما أنه ينتقد انتشار الجمعيات الإصلاحية التي لاتسمن ولاتغني من جوع حيث تكون فارغة البال تتربص للمناسبات فتحتفل بها، وتعقد للتفاهات فتجادل عنها، والتي لايكون العضو فيها أكثر من مجرد اسم مجوف على ورقة، أو رقماً مسجلاً في قائمة، أو مبلغاً زهيداً من المال يدفعه اشتراكاً في كل شهر فلايرى له أثراً يظهر في غير إضاءة المكان، أو في تسديد البعض من أجور الموظفين والخدم، أو في شراء ممسحة جديدة لأحذية الداخلين والخارجين، ويصف المجلات التي تصدرها تلك الجمعيات بأنها مجلات خرساء!.

صادق الحكيم

أما حامل لواء الأنصار في مواجهة الفن القصصي فهو «صادق الحكيم»

إنه يؤكد أن الفن القصصي ليس عربياً ولا إسلامياً، وهو يتعقب بمهارة العالم وحذق المطلّع الخبير منشأ الفن القصصي والمسرحي في بيئة المجتمع الغربي حيث الضباب والبرد والمطر والثلوج، فيراهما أثراً تلك البيئة ومظهراً من مظاهر التفكير والتعبير لدى الفرد والمجتمع في تلك البيئة. وهو لايصلح لمجتمعنا ولايتناسب مع تفكيره. فلقد كانت القصة عند العرب مقتصرة على السيرة الحميدة والقدوة الصالحة والعمل الطيب والبطولات في ميدان المكرمات. ولما جاء الإسلام أصبح هذا المعنى راسخاً في الإعجاز القرآني في «أحسن القصص» وأصدقها، فأصبح قصص القرآن هو النموذج السامي الواجب اتباعه ومعالجة القصة حسب أصوله لتصبح في المجتمع أداة بناء لا هدم، ومصدراً لإيقاظ المشاعر الطيبة، لا تخدير الحواس! ويشرح صادق الحكيم هذه الآراء على امتداد أعداد الأنصار. ومما يقول فيها:

«يرجع شبه الفن في كل شعب إلى أمّه الطبيعة. فالطبيعة حول العرب تلد الأدب الصادق والطبيعة حول الأوروبيين تلحّ عليهم بفكرة التعويض القصصي. والطبيعة الشرقية، لايجود غرسها إلا بالأساطير. لقد عرفنا أن القصة في أوروبا نشأت لتحقق غرضاً اجتماعياً عاماً، ولذلك كانت التطورات القصصية مقياساً للتطورات السياسية والاجتماعية. ولم يحدث أن شاع مذهب سياسي أو اجتماعي في أحد الدول الأوروبية الكبيرة كفرنسا وإنجلترا وروسيا قبل أن يسبقه مذهب قصصي يمهد له تمهيداً طويلاً، ومن يراجع تاريخ المذاهب الاجتماعية الواسعة النطاق التي تصطرع اليوم في نواحي العالم يجد من ورائها جبهة من الصور القصصية التي تمثل

اتجاهاتها وتشرح مقاصدها وتجمع أسرارها ورموزها..».

ويقول أيضاً: «إن الطبيعة الجليدية المظلمة المخوفة الكثيرة الاحتمالات في الغرب أصبحت في مادتها عقلاً باطناً لهذه الشعوب تستمد منه الرجاء في فن التعويض بالقصص والمسرحيات..».

والخلاصة أن الكاتب يؤكد أن الفن القصصي عندنا لايستطيع أن يقوم بالمهمة التي يؤديها في الغرب سواء في توجيه المذاهب السياسية والاجتماعية أو إحداث تغيير جذري فيهما ولهذا فهو محكوم عليه بالفشل، إلا أن تكون مهمته تخدير المشاعر والحواس ونسيان المتاعب والهموم وهو ما يؤديه بالفعل.

محمد أسعد راجح

أفسح صاحب الأنصار أحمد صبري المجال على مصراعيه لمحمد أسعد راجح ليكتب عن التصوف، فكتب متناولاً الموضوع من الناحية العملية في دنيا الواقع وسيرة رجال التصوف المعروفين، وندد بأساليب الحرمان والرياضات الصوفية ودعواهم التي تصل إلى حد ادعاء الولاية والنبوة! وعند البعض إلى التقمص الروحي! ولم ينس صاحب الأنصار أن يحتفظ لنفسه بمداخلات متعددة عن التصوف تضمنتها مقالاته وأبحاثه وردوده في مجلة «الأنصار»، صادرة عن نظرة شاملة لمعنى التصوف وتصور أوسع وأكثر بُعدا. بل إن الأهمية التي برزت في موضوع التصوف وصلته بالبحث في تاريخ التوحيد جعلته يفرد لذلك كتاباً خاصاً تحت اسم «التصوف في نظر الإسلام - الرسالة الثالثة للأنصار»، حيث يشرح أغراض الكتاب، فيقول:

«على أن هذا الكتاب الشامل الذي يقدمه الأنصار ليكون مرجع الثقافة العربية في موضوع التصوف، يتجاوز في نسقه وأغراضه البعيدة مجال تلك المقالات الأولية التي مهدنا بها في المجلة لهذا البحث، ذلك أن هذا الكتاب لايدور في موضوعاته حول أشخاص الصوفية وأحوالهم في الممالك الإسلامية، وإنما هو يستوعب حقيقة التصوف العامة في العالم كله، ويعمد إلى تفسيرها، وتجلية غوامضها، وتعقب عواملها وأعراضها بين مختلف الشعوب».

ثم يلخص أحمد صبري تعريف التصوف في مختلف حالاته بأنه «انقطاع أسباب الوصول إلى الله، ثم توهم الوصول إليه، بلا وصول». وهو يرى أن التصوف في نظرته الشاملة «سلوك عالمي» لاتحده حدود الطرق والمذاهب الجزائية التي يتألف منها، وأنه موقف سلبي من الحياة يتسم بالوقوف عند الوسائل ونسيان الغايات، وأن التصوف لايقتصر على الدين فقط بل يتعداه إلى الجوانب الأخرى فهناك صوفية الفن للفن، وموجات الصوفية الأدبية والفنية والبوهيمية التي تحفل الصحف والكتب برسومها ورموزها». ثم يضيف قائلاً: «والآن فلننظر إلى الزمن القديم والحديث في الشرق والغرب، وفي الدنيا الجديدة نفسها التي فاضت فيها هذه المعتقدات في طوفان الأجناس، فسنجد حركة صوفية تشمل طرفي الأرض، فهذا الشوذي العابد للطبيعة في الشرق الأقصى، هو بعينه الدرويش الغريب الأطوار في الشرقين الخائرين الأوسط والأدنى، وهو هو البوهيمي، الأفاقي المتربص، المنطوي على أدق الأسرار، مجتازاً سهول أوروبا المثلوجة متدثراً بظلامها، فمن هؤلاء الهائمين الذين لايتلاشون ولايستقرون في خضم الحياة البشرية المتدفقة،

تنبعث آلاف الصور في السلوك الصوفي عبر الأزمان والأمكنة، حاملة نفس الأطوار والغايات، على أنه ثمة مكان واحد في الأرض لم يخرج منه صوفي قط: هو الجزيرة العربية».

وأخيراً بريد الأنصار..

وختام لقائنا مع كُتَّاب الأنصار هو بريد الأنصار ورسائل القراء، وهو منبر أدارت من فوقه الحوار الفكري مع القراء في أمور شتى، ومن أبرز تلك المواضيع النزاع على الخصائص بين العقليتين العربية والآرية. وبين الساميتين العربية والعبرية. ننقل من ذلك فقرات بقصد التعريف نشرتها الأنصار بتوقيع «حسام» من بحث مفصل:

«نعتقد أن أمر العالم في توحيده، وفي خيره وشره، هو تداول مستمر بين سيطرة العقلية السامية بأحد فرعيها عليه، وهما العقلية العربية والعقلية اليهودية، وهذا واضح لنا نحن العرب كما هو واضح تماماً لبني إسرائيل! ولكن هذه الحقيقة ما تزال بعيدة جداً عن مدارك المنتمين إلى العقلية الهندية الأوروبية، أو الآرية أو الأعجمية إطلاقاً كما نسميها».

وفي بريد العدد التالي من المجلة تزيد الأنصار تأكيدها على هذا الاعتقاد بتسجيل الحقيقة التالية، ننقل منها هذه الفقرة:

«لقد انقسم العالم في تأثره بين رسالة العرب في الدين، ورسالة اليهود في الدنيا. وأن الدنيا لتشهد في هذا العصر واحدة من المعارك الدورية الشديدة بين هذين الشعبين، والعقليتين والرسالتين للسيادة على أبواب بيت المقدس، وأن الأمم كلها لتقدر مدى الأثر الكبير الذي سيتركه نهاية هذا الصراع

العنيف في مصير العالم. فالعرب قلة فقيرة مستقيمة، واليهود قلة موسرة ضالة. وثقافة كل منهما عامة في الأرض، فليست متكتلة في مكان واحد، ومعنى هذا أن مصير ثقافة الأمم في خيرها وشرها مرتبط بهذه النهاية التي يترقبها الجميع باهتمام وجزع. وهو اهتمام نراه عند العارفين بتاريخ العالم أكبر من الاهتمام حتى بنتيجة الحرب الحالية. ذلك أن مصير «بيت المقدس» الذي هو الباب الخارجي الكبير لبيت الله في مكة، وأحد الموانئ الرئيسية على محيط وطن التوحيد في صحراء العرب، هو الذي سيحكم باتجاه العالم في تيار إحدى العقليتين المتنازعتين في خاتمة هذا الصراع، فيمضي العالم بعد الحرب إلى الهاوية والصهيونية.، أو إلى الأمن والعروبة!».

الأنصار وحديث الهجرة

استغرق الحديث عن مجلة «الأنصار» حيِّزاً من هذه الذكريات، ابتداءً من قصة نشوئها وانتهاء بلقاء سريع مع كُتَّاب الأنصار ونماذج من أفكارهم وآرائهم سواء منهم من كان معروفاً باسمه في دنيا الكتابة أو من كان مجهولاً غير معروف. لقد كانت «الأنصار» مجلة جادة فيما تكتب، وأفكارها التي عبرت عنها بجرأة وصراحة وصدق في شتى المجالات كانت تمتاز بالجدة، والخروج عن المسلمات المألوفة. ولعل تلك الظواهر - مضافاً إلى ما سبق شرحه من أسباب - كانت وراء تعلقنا بها واهتمامنا بمتابعتها في مطلع كل شهر جديد. كنا نلتقى في مواضع متعددة لتدارس تلك الأفكار.. في المدرسة، أو في النادي أو في السوق. ولكن أجمل اللقاءات ما كان يتم في مجلس الشيخ خالد بن محمد آل خليفة الذي كان كالجذوة المتأججة في حماسته وصراحته

وقوة بأسه. وسواء كان مجلسنا عنده في «العمر» حيث تتهامس الرمال والكثبان، ويتعاقب الظل والحرور تحت فيء شجرة بريّة قرب نبع ماء تحوم حوله الإبل والشياه، وتستنزف جوفه أيدى السقاة والرعاة، أو كان ذلك على «دكة» في كنف الدار يمتد عليها الظل، والشمس تميل نحو المغيب، أو كان في موضع آخر في «البَدعِه» فوق الرمال البيضاء على حد السيف من البحر، فقد كانت الأحاديث تبدأ دائماً بالأنصار ثم تتراخى أطرافها لتفسح المجال أمام حديث البادية وأخبارها، والأشعار ورواتها، يتخلل كل ذلك فيض من كريم الضيافة، وجميل المشاعر، وفصول لتناول القهوة، وترويح النفس.

كما كنا نجتمع أحياناً في المكتبة الخليفية بالمحرق أو في مجلس المغفور له الشيخ علي بن خليفة وأبنائه الطيبين في المحرق أو على ساحل «الجابور» قبالة قلعة البحرين. وكان الشيخ دعيج بن علي دائب الحركة والنشاط لاتعييه الحيلة في تبديد الصمت بحديث مثير، وتعكير الهدوء بالأحداث الصغيرة.

وكان جلوسنا على مقربة من الشاطئ يتيح ليَ فرصة للتفرس في ملامح المارة وحركاتهم. فالمشاة من المزارعين والصيادين الذين أنهكهم عمل اليوم، وعاجلت خطاهم الحاجات الملحة، يلقون السلام وهم مسرعون حتى لَيكاد يفوت عليهم ذلك سماع رد التحية. وآخرون ممن يتسلون بإلقاء التحية على مهل، والمشاركة بنصيب من الضيافة وتبادل الحديث.. حديث مجاملة عابرة أبعد ما تكون عن الجو الذي نحن فيه.

أما مجلس المساء فينعقد في البيت الكبير بالمحرق، ويتفق في مجرى الأحاديث ونسقها مع مجالس النهار، لولا أن الحضور يزداد بمجالسة عدد

من الأصدقاء كالشيخ عبدالله والشيخ عمر، ونفر من أفراد البادية، ولفيف من حملة صقور الصيد «الطيور». والصقر الذي لايجد الذراع المهيأ لحمله، لايعجبه الانتصاب إلا على قاعدته قبالة صاحبه المكلف به. لذلك تتكاثر الحفر والثقوب في أرض الغرفة مع كل من يرد إليها من حملة الصقور، في موسم الربيع. والصقر لايكف عن الحركة برأسه أو بجناحيه، والتلفت باستفزاز وشموخ عدواني يستجلب الحذر، بقدر ما يستولي على الإعجاب والزهو، فلا يصرفه عن ذلك إلا إغراؤه بازدراد قطع من اللحم، أو التحايل لوضع الغشاوة على عينيه، وبعدها يستطيع صاحبه أن يدلي بدلوه ويشارك في الحديث. ومن المستجدات في مجالس المساء مساءلة أعراب البادية عن أمر «الربيع». وهي صفة جامعة للعشب والمطر والكمأة ومراعي الإبل والأغنام، وعن أخبار المقيمين والظاعنين. ويمتد الوقت بإنشاد شعر البادية حيث يتمتع الشيخ خالد بذاكرة خصبة، ولا يفوته حينما «يعد» من أشعار محمد القاضي في وصف القهوة أن يتلفت صوب عبدالعزيز القاضي الذي يرد عليه بالإيجاب والإعجاب. ولاينشد عبدالعزيز - وهو شاعر الجماعة دون منازع - شعره بنفسه إلا نادراً. فهو يكتبه ويلقيه إليَّ فأنشره بين الأصدقاء. ويقوم بإلقائه الشيخ خالد كلما حانت مناسبة لذلك.

كنا على شيء من تلك الحال سنة تزيد خلال صدور مجلة الأنصار حتى حدثت «المفاجأة»، ثم عدنا لمثلها بعد ذلك على الوصف السابق بعد سنة أخرى أو تزيد، حدث خلالها تغيّر كبير.

وحديث تلك المفاجأة يشتمل في واقع الأمر على ثلاث مفاجآت بدلاً من واحدة:

الأولى: إن مجلة الأنصار قررت فجأة التوقف عن الصدور بعد عدد ذي الحجة من عام ١٣٦٣هـ.

والثانية: أن المجلة كشفت سراً عن حقيقة كتاب الأنصار مفاده أن محمد ظافر، وحامد أبو العطايا، وصادق الحكيم، وحسام ليست سوى أسماء مستعارة، وأن كل ما تم نشره من مقالات مطولة وأبحاث تحمل هذه الأسماء إنما هو من كتابة ومجهود أحمد صبري نفسه صاحب الأنصار. وبذلك يكون قد تحمل بنفسه عبء تحرير المجلة وإصدارها أربع سنوات متواصلة إضافة إلى ما صدر عن الأنصار من «رسائل»، وذلك فما عدا المقالات القليلة نسبياً التي شارك فيها كتاب حقيقيون.

أما المفاجأة الثالثة: فهي أن صاحب الأنصار ومن معه من أفراد أسرة الأنصار قد قرروا الهجرة من عالم المدن الضيق إلى فضاء الصحراء الواسع. «وإنها لأيام تخرج بعدها أولى طلائع الأنصار«المهاجرين» إلى حيث يعتزون بدينهم وأخلاقهم. لايخرجون بطرا ولا رياء ولاتشردا في الأرض، وأنما يهاجرون إلى الله ورسوله اعتصاما بالحق، وإباء للدين والحرمات».

ولهذا السبب أصبح عدد الأنصار الأخير هو عدد «الهجرة» والعنوان العريض لكلمة الافتتاح «لبيك اللهم لبيك» ورد فيها: اللهم ولا عذر لنا، فامنن علينا فإنه سبحانك أنت المنذر بقولك: «إن الذين توَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيمَ كنتم، قالوا كنا مستضعَفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا». ومما ورد في عمود «بشائر الهجرة». «لقد تكلم لسان الأنصار

بالحق فيكم، وجرى شراع دعوتها على ثبج الموج في محيطكم، ليبلغ صوتها بين العسر والمشقة إليكم. وإن المؤمنين بهذا الحق الصريح لناجون به إن شاء الله». ثم يضيف «أما في هذا العدد فقد جعلنا ختام الكلام بشرى البُشْرَيات لإخواننا وأصدقائنا ولخصومنا أيضاً».

أسف قراء مجلة «الأنصار» لتوقفها عن الصدور، وتوالت الدهشة ممزوجة بالأسى والمرارة عند جماعة الأنصار ومؤيديها، وكأنهم لم يتوقعوا ن يسكت هذا الصوت الجرئ، وتنقطع تلك الومضات الصريحة المضيئة في يوم من الأيام.

ثم ذهبت الحيرة، وخف أثر المفاجأة فانقسموا فريقين: فريق أثنى على التجربة، وفريق أظهر التأثر، ثم أمسك عند هذا الحد. والأستاذ حسن الجشي في مقدمة هؤلاء، أتاح له وجوده في القاهرة في أعقاب توقف مجلة «الأنصار»، الفرصة للتعرف على أحمد صبري، وعن طريقه اتصل الأستاذ إبراهيم العريض بصاحب الأنصار، فأهدى إليه هذه الأبيات من الشعر الصادق المعبر:

إلى الأستاذ أحمد صبري:

«يا عبقريّ العصر غير مدافع

والكوكب الوقّاد في ظلمائه

مضت القوافل وهي تخبط في الدجى

حتى استضاء، فكبّرتْ لضيائه

مـــا ســـرَّني مدحـــه إلا بعـــد أن

ألفيتـــه للشـــرق، بـــاب رجائـــه

تلك القرون.. كأنمـا هـــي ليلـــة

ليلاء، أســـفر صـــبحها بذكائـــه

إن الذي بـرأ العقـول سما بهـــا

صعداً... وخصـّك دونهـا بسمائه

فاسـلم، فما هذا الزمان سوى فـم

يشكـــو، وتعلـم أنـت موضـع دائـه

ما كان للصحراء أن تظـما وفـــي

أعماقـــها هـــذا الغديـــر بمائـــه

٤ صفر ١٣٦٤هـ

الموافق ١٨ مايو ١٩٥٤م»

وقد أجاب عليها أحمد صبري برسالة وصف فيها وقع تلك الأبيات في نفسه بقوله: «فأما قصيدتك فقد رسمت لي بها هدفاً بعيداً مازلت أفتح عيني وأعقد أجفانها عليه».

وفريق آخر تحمس للمسيرة الجديدة ورأى الاستمرار معها.

على أنه بقى مع ذلك هذا السؤال الكبير: وماذا بعد الهجرة؟ دون أن يجد

الجواب الشافي. وكلما تجاوز السؤال الملح الهدف القريب للهجرة وهو «تطهير النفس» إلى الغايات البعيدة، فإن المستقبل المجهول يبدو وكأنه مغلف بالغموض.

وهكذا استبد حديث «الهجرة» بمجلسنا عند الشيخ خالد الذي كان متحمساً لها، فذهب مع البعثة الدراسة إلى مصر. ثم سارع في العودة وشد الرحال بعد ذلك إلى مضارب بنى خالد شرقي الجزيرة العربية، فجادت قوافي الشعر في توديعه بكل شاردة وواردة. ثم عاد بعد ست سنوات تقريباً واستمعنا إليه وهو يعرب عن شعوره بالسعادة، ويعتبر تلك السنوات تجربة مفيدة لا غنى عنها. وممن خرج إلى البادية أيضاً من أنصار العراق الأديب الشاعر هلال ناجي. فارتحل إلى أطراف البادية وهو يهجو حياة المدن قائلاً:

«بأرضِ التأرُّسِ تذوى النفوس

وتفنى الجموع هوى وانقساماً»

ثم رجع منها بعد سنتين أو ثلاث ولسان حاله يقول:

«أسفي على عمر نقضي نصفه

في خيبة المسعى إلى الآمال

وبنات أفكار لنا عربية

رخصت لدى الأعجام وهي غوالي»

عدد يوليو ١٩٨٧

ـ ٧ ـ بغداد.. دار السلام

ولقاؤنا «دار السلام»
وكم لها في القلب ذكرى
أضفى عليها دجلةٌ
من حسنه فنّاً وسحرا
والباسقات من النخيل
تمد في الأعماق جذرا
وجنائن تهدي إلى
المشتاق أنساماً وعطرا
والبدر يقتحمُ الظلام
يشقُّ للسارين فجرا
خلعتْ فؤاد الروم من هلع
ودكت عرش كسرى

حديث الدراسة في العراق له مكان أثير في نفسي. والأبيات من الشعر المذكورة التي نظمتها في الثمانينيات تكاد أن تشي بذلك الحب وتلك المنزلة. ولكلٍ في حياتي اليافعة قصة، لايكتمل حديث الذكريات بدونها:

قرر مدير المعارف الإنجليزي الذي خلَف «السيد ويكلن» فجأة ترشيح بعثة كبيرة إلى مصر. يبدو من سرعة استدعائها فيما بعد، أنه لم يحسب حساباً لتكاليفها. وكنت وأخي حسين على رأس قائمة المرشحين لها. وأذكر أنني حملت الخبر إلى والدي بَهِجاً مسروراً فما راعنى منه إلا جدار من الصمت العميق. فلما خرج عن صمته قال: هذا الأمر لايصير. فأظلمت الدنيا في عيني ولم يشرق من نورها بصيص حتى مع الجهود من جانب أخي الأكبر صادق في تأليب الوسطاء من ذوى الحظوة والنفوذ، فقد أصر والدي رحمه الله على موقفه الرافض بحجة الخوف على الدين والأخلاق.

وقد ركبني من جراء ذلك همّ كبير، حتى جئت ذات يوم ألقي عليه تحية الصباح وأنا أهم بتقبيل يده متوقعاً منه الأعراض، وإذا بي أفاجأ به يبتسم منشرحاً ويضمني إليه ثم يقول: لقد قرأت في بعض «التفاسير» أخيراً في شرح قوله تعالى: «ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق». إن حرمان الأبناء من طلب العلم هو نوع من القتل لنفوسهم لايرضى به الله، ولهذا فقد وافقت على سفرك مع أخيك حسين للدراسة، ليس إلى مصر ولكن إلى العراق على نفقتنا بدلاً من الحكومة، لأن العراق أقرب موقعاً من مصر. وفيها من الأقارب والأصدقاء من يستطيع أن يتعهدكما بالرعاية.

واستبد الفرح بأخينا صادق وحسم ترددنا بأن تطوع للقيام بمهمة ولي الأمر. ولعل هذه المعالجة منه للوالد كان مبعثها خوفه من أن تقع عين الوالد

على شرح آخر يقصر طلب العلم على دراسة الفقه والشريعة دون غيرها. وقد أوفى أخوناً الأكبر مشكوراً بما تكفل به، بل وأضفى عليه المزيد من فنون الكياسة وحسن التصرف، ومكابدة العناء. ولم ينس في ذروة انهماكه بإنجاز معاملات السفر أن يوجهنا لاستصدار كتاب توصية من وزارة المعارف. فذهبت برفقة أخي حسين للسلام على المغفور له الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وزير المعارف، في مجلسه بمبنى بلدية المحرق. وبفضل المساعدة والاهتمام من قبل الرجل الطيب الشهم الأستاذ إبراهيم حسن كمال، حصلنا على الخطاب في مدة وجيزة، ثم سافرنا متوكلين على الله.

وصلنا بغداد وكانت السنة الدراسية قد بدأت. ثم ذهبنا إلى وزارة المعارف، ووزيرها آنذاك محمود الألوسي، وكان بناؤها على الطراز القديم على شكل حوش كبير تحيط به مكاتب المسئولين والموظفين، وفي ساحتها بدأت أول مواجهة بيننا وبين الإجراءات «الروتينية» العريقة المتأصلة! وكفانا أحد كتاب «العرضحال» عند المدخل مؤنة إعداد العريضة على الأسلوب الموروث من العهد التركي. واستغرق تسجيلها وترقيمها بضعة أيام، وبعدها بدأت مع الأخ صادق مهمة التنقل بالعريضة ومرفقاتها بين المكاتب والردهات، وكان عليه أن يتزاحم مع المراجعين ويسترضي البوابين، ليحظى بفرصة المثول أمام المسئول المختص، بعد ساعات من التمرين في مواجهة السؤال والجواب، واستجماع الشجاعة إزاء هيبة الموقف أمام المسئول الذي كثيراً ما كان يكتفي بإلقاء نظرة عجلى ثم يؤشر عليها ويلقيها إلى البواب في أحسن الحالات، أو يزيحها جانباً مردداً العبارة المألوفة «تعال بكرة». حتى وجدنا أنفسنا وقد تخطينا منتصف الشهر الثاني من الموسم الدراسي ونحن لم نعرف مصير القبول.

وذهبنا لاستشارة بعض العارفين فذُهِلنا حين اكتشفنا أننا لم نزل في أول الطريق، وسألنا عن الحل فقيل لنا لابد من واسطة مباشرة مع الوزير ليختصر المراحل في مسالة هذه الأوراق. وجاءنا المنقذ في شخص الأستاذ سلمان الصفواني، فقد كان على معرفة بالوزير، وله مركز قيادي في حزب الاستقلال، ويصدر جريدة «اليقظة» المعروفة، كما كان أيضاً من أصدقاء الوالد.

قام الأستاذ الصفواني مشكوراً بالمسعى الحميد، وطلب سعادة الوزير أوراق المعاملة وصار يقلبها بانفعال وهو يتعجب من إخضاع معاملات طلاب عرب الخليج لهذه الإجراءات الطويلة وهم ضيوف على العراق. ولما كان مجمل القضية هو القبول في المدرسة والقسم الداخلي فقد كلم الوزير هاتفياً مدير الثانوية ومدير القسم الداخلي وانحلت المشكلة. ذهبنا لمقابلة مدير ثانوية الأعظمية فاستقبلنا ورحب بنا، وشعرنا منه لأول وهلة بدفء العاطفة التي يتميز بها الوجه العراقي الأصيل، وخيَّرنا في الالتحاق بالصفوف التوجيهية العلمية أو الأدبية، وكانت نظرة منا سريعة على المنهج الدراسي العلمي كافية لصرفنا عنه واختيار القسم الأدبي، فقد اكتشفنا أن دراستنا العلمية دون المستوى المطلوب بكثير.. وعلى العكس من ذلك كان شأن المستوى الأدبي، لدرجة أنني أعفيت بموجب النظام المعمول به في اعتماد علامات الفترات، من تقديم الامتحان النهائي فيما عدا مادتي الرياضيات وأحوال العراق. وانضم معنا في الدراسة بعد أيام الشيخ دعيج بن علي آل خليفة، الذي أنقذه بدوره، قرار الوزير. أما شأن أوراق المعاملة فإنها بعد أن استفاقت من سباتها فجأة فوق مكتب الوزير، أعيدت لكي تستأنف سيرتها الأولى، ولم تصل مؤشَّرة بالقبول إلى إدارة المدرسة والقسم الداخلي إلا بعد ما يقرب من ثلاثة شهور!

رحب الطلاب العراقيون بوجودنا معهم، ونمت بيننا وبين عدد منهم أواصر من الزمالة والود لم يعكر صفوها نوعاً ما إلا تحفظنا تجاه ما أُلِفوه من مغادرة الصفوف الدراسية لأسباب معظمها سياسي. فقد كان مألوفاً أن يقف أحدهم على حين غرة فيصفق بيديه هاتفاً «مظاهرة» فيتبعه الآخرون ويخرجون من الصفوف أثناء الفسحة، وأحياناً خلال حصص الدروس، فلايكون من المدرس، إلا أن يجمع أوراقه ويغادر الصف على عجل.

وكنا نحن الثلاثة نبقى في الصف مجاملة وحذراً باعتبارنا «أغراب». لكن مدير الثانوية الطيب نصحنا بعد ذلك بالخروج مع الآخرين تجنبا لنقمتهم، ففعلنا. وبعد أن نعود أدراجنا إلى القسم الداخلي ينشغل كل منا بشأنه. لقد كان الشعور الوطني على أشده في النصف الثاني من الأربعينيات لاسيما مع تجدُّد الأخبار عن المفاوضات مع بريطانيا لإنهاء العاهدة العراقية وعقد معاهدة جديدة.

وكنا نستمع إلى أخبار المظاهرة الصاخبة ونقرأ عنها في الصفحات الأولى من الجرائد اليومية، وكنت كثير الإعجاب بالقصائد الحماسية التي تنشر من آن لآخر لاسيما قصائد محمد صالح بحر العلوم الذي حضرت له أحد الاحتفالات في فناء مشهد الكاظمية، وكان لتوّه خارجاً من الاعتقال. فلم يكن منه إلا أن توجه بخطابه مؤشراً بيده إلى حيث يجلس عبدالإله ونورى السعيد وهو يقول:

«هذي قصور الخائنين وحولها للأبرياء مشانق وقبور»

ويقال إنه بعد هذا الاحتفال اعتقل وتمت إعادته إلى السجن! كما أعجبت

أيضاً بالشاعر محمد مهدي الجواهري.

وفي ذلك الوقت كانت الأحزاب والصحف الناطقة باسمها تتبارى في المزايدة على كسب الجماهير وإثارة مشاعرهم الوطنية، في الوقت الذي تسعى فيه للحصول على مكاسب سياسية تجاه الحكومة أو تجاه الأحزاب الأخرى. وفي مقدمة تلك الأحزاب، حزب الاستقلال ورئيسة مهدي كبه، وأمينه العام فائق السامرائي، وجريدته «الاستقلال»، أما سكرتير حزب الاستقلال فكان الأستاذ سلمان الصفواني، وجريدته «اليقظة»، كما كان هناك أيضاً الحزب الوطني ورئيسه كامل الجادرجي، وصحيفته «الأهالي»، ثم حزب الأحرار لصالح جبر، وجريدته «الزمان» وهو بطل معاهدة «بورتسموث» المشئومة، ظاهرياً، إذ كان معروفاً أن بطلها الحقيقي إنما هو نوري السعيد. ثم هناك الحزب الشيوعي السري، وغيره من الأحزاب الصغيرة، كما تأسس حزب البعث سنة ١٩٤٧، ولم يكن له ذلك الوقت، الصوت المسموع. ونتيجة للشعور العام ضد بريطانيا أصبحت تهمة التعاون مع الإنجليز أمراً شائعاً. وصرنا نتوقع ممن نتعرف عليهم من الأصدقاء العراقيين - بعد انتهاء عبارات الترحيب والثناء على عروبة البحرين - هذا السؤال دائماً: ماذا ستفعلون مع الإنجليز!

ومن أطرف تلك المشاعر التي أتذكرها أن نوري السعيد أمر بتخصيص مدرسة باسم «كلية العلوم» تقع قبالة القسم الداخلي لدار المعلمين الذي كنا نسكن فيه، ويقال إن الغرض منها تدريب أوائل الطلبة وتقوية لغتهم الإنجليزية وتعليمهم أصول «الإتيكت»، وذلك تمهيداً لابتعاثهم لإتمام الدراسة الجامعية في بريطانيا. وكانوا يرتدون زيا خاصاً شبيها بزي طلاب الجامعات

الإنجليزية، فتعرض هؤلاء الطلاب «المرفهون» لنقمة الطلاب العراقيين وسخريتهم، حيث كانوا يتجمهرون من حولهم عند الدخول والخروج ويسمونهم - تجنياً - بأذناب المستعمرين. وكان يربط الكاظمية بالأعظمية عبر النهر جسر خشبي متأرجح محمول على حاويات صغيرة، منذ عهد الأتراك. وذات يوم مر على الجسر قطيع كبير من الجواميس الضخمة، ثم انفلت زمام سيرها فانطلقت تثير الهلع والخوف ولم يقف بها المسير المجنون إلا عند تلك الكلية سيئة الطالع، فدكت أسوارها وعصفت بما في الحديقة من أشجار ونبات، فقال المتجمهرون: حتى الجواميس العراقية تكره الاستعمار!

في هذا الجو السياسي المشحون كان القصر الملكي يحاول جاهداً إشغال الناس بأخبار التشريفات الملكية والزيارات والحفلات والمبرات، وإقامة مواسم الأفراح والأتراح. ففي فناء مشهد الكاظمية أقيم مأتم «ملكي» واستقدم لقراءة القرآن مشاهير من القراء من بينهم أبوالعينين شعيشع والشعشاعي وغيرهما، فانشغل الناس زمناً - ثم جاء موسم الأفراح الملكية، وحضرت أم كلثوم فتقاطر العراقيون على بغداد، وعمت مظاهر الزينة والأفراح، وفرشت بعض الشوارع بالسجاد، وسهرت بغداد حتى الصباح! على صوت أم كلثوم..

الطلاب.. والإضراب!

كان من الصعوبة بمكان الحصول على سكن في القسم الداخلي لولا تدخل وزير المعارف شخصياً. واستقبلنا مدير القسم الداخلي لدار المعلمين الابتدائية بالترحاب، وأوجد لنا مكاناً للسكن في ردهة البعثات العربية، وهي صالة كبيرة مستطيلة تتسع لأكثر من عشرين سريراً، كان موضعنا فيها - أنا وأخي حسين - قريباً من الوسط ومعنا طالب ثالث من الحجاز اسمه حسين الدباغ. وعلى

يميننا تمتد أسِرَّة الطلبة المبتعثين من جنوب الجزيرة العربية وأندونيسيا وجاوه ومعظمهم من أصول عربية. أما عن الشمال فكان موضع الطلبة العرب من سوريا والاسكندرونة التي سمعنا بها لأول مرة وعرفنا أنها تسمى «باللواء السليب». ولكل جانب زعيم يتكلم باسمه فأما زعيم الطلبة الجاويين فكان اسمه «أبوبكر» وأما زعيم الجانب الآخر فكان الأستاذ فايز إسماعيل الذي أصبح فيما بعد وزير دولة في سوريا. ويجتمع كلا الزعيمين في ميزتين: الأولى اجتهادهما في الدروس والمراجعة، والثانية أن كلا منهما يمتاز بشخصية جذابة، وأدب جم، وبراعة النكتة وخفة الروح، لكنهما يختلفان بعد ذلك في كل شيء. وقد أصبح موقعنا بين تلك المجموعتين وكأنه بمثابة حاجز مادي. ولطالما خامرني العجب من تلك الظاهرة كلما وجدت أن الجماعتين تسكنان في ردهة واحدة بينما يعيش كل منهما في عالمه الخاص. وتراءت لي عندئذ طبيعة العلاقات البشرية، وخاصة النفس الإنسانية، حيث يصبح من الممكن أن يشكل الحاجز النفسي والثقافي سوراً من العزلة أسمَك من الجدار وذلك بمحض الخيار والقرار.

ومن المفارقات أنه بينما كان أبوبكر مولعاً بالموسيقى والرقص الإفرنجي ودعوة رفاقه لمشاركته في ذلك، فإن فايز إسماعيل كان يصرف وقت فراغه في تدارس مبادئ وأفكار حزب البعث مع رفاقه. وبينما كان يشفع لأبوبكر أدبه واعتذاراته في تخفيف حدة احتجاجاتنا عليه لإيقاظنا في الصباح الباكر على صوت الموسيقى من أسطوانات الحاكي الذي يعتز به، فإن فائز إسماعيل كان ينسحب مع رفاقه إلى ركن قصيّ من القاعة خلال الساعات الهادئة من الليل أو النهار، ثم يتناقشون في سكينة وهدوء. وقد قيل إن

الأستاذ ميشيل عفلق يشارك في تلك الاجتماعات. وليس من المستبعد أن تكون الزاوية الهادئة في ردهة البعثات العربية قد شهدت بداية مولد حزب البعث العراقي، قبل إعلانه ببضع سنين.

كانت علاقتنا بالجميع علاقة ود واحترام متبادل. ومع ذلك فلم أكن مرتاحاً من الرقص الإفرنجي ولم يستهوني من الموسيقى إلا تلك الأنغام الإسبانية الرقيقة، التي سمعتها بعد ذلك كثيراً وذكرتني ولاتزال تذكرني كلما سمعتها، بتلك الأيام. وعلى الجانب الآخر فقد شغلتني فكرة الأنصار عن أفكار حزب البعث العربي، وكان فائز إسماعيل يفهم هذا فجنَّبنا ذلك كثرة المناقشات.

كانت الأعظمية منطقة سكنية جميلة وهادئة تجمع بين حياة المدينة، وجمال الأرياف. علاوة على أن فيها مرقد الأمام «أبوحنيفة» ومزاره، من جانب، والمقبرة الملكية بهندستها البديعة على الجانب الآخر مما يلي النهر بالقرب من القسم الداخلي. وحينما أذهب في الصباح إلى المدرسة كنت أتجنب الشارع المعبَّد حيث حركة المرور والازدحام، وأسلك طريقاً مختصراً عبر المزارع وبساتين النخيل، فأجد على جانبي الطريق المترب المتعرج ظاهرتين متناقضتين: فعن يساري تتناثر بيوت السكن الفارهة بحدائقها الجميلة حيث تكثر الورود والأزهار وتتدلى خلف أسوارها أغصان أشجار البرتقال. أما على الجانب الأيمن فتمتد بساتين النخيل فارعة الطول تتخللها مجمعات سكنية صغيرة للفلاحين وأسرهم. وهي بيوت من الطين الأسمر في المنخفض مما يلي سدة النهر فتتعرض قبل غيرها لأخطار الفيضان، وإذا سلمت فإنها تتعرض حتماً لنزيز الماء المتسرب فتغرق فيه أو تكاد. وتخال هذه البيوت الطينية

لصغرها وانخفاضها وكأنها بنيت على مقاس الأقزام حيث تستطيع أن تشاهد على البعد رؤوس الأشخاص الذين يعيشون فيها. فإذا ما أخذك الفضول إلى الاقتراب منها غير مبال باستفزاز الكلاب النباحية، فباستطاعتك أن تراقب معظم ما يدور بداخلها من نشاط منزلي ريفي وكأنك تتفرج على مسرح مكشوف.

والقسم الداخلي بموقعه الجميل هذا كان يضم بالإضافة إلى ردهة البعثات العربية، مجموعة كثيرة من حجرات السكن. وقد تعرفنا على عدد من الطلاب العراقيين القادمين من كافة أنحاء القطر العراقي، من العرب والأكراد، ومن أهل المدن والأرياف والعشائر، وشاركناهم في حياة القسم الداخلي بحلوها ومرها، ففي المناسبات السعيدة يجود الطبخ وتمتلئ الأطباق بالأصناف الشهية، ولكن عندما يختل ميزان الطعام ويخلد مقاول التجهيزات إلى الاطمئنان في غفلة من الرقيب، تقل جودة الأكل وكميته، فيشيع التذمر ويُضرِب الطلاب عن الأكل فنتضامن معهم أيضاً. ، ولاتجد الإدارة في قاموسها مادة تفصّل كيفية التصرف مع كميات الأكل الهائلة إذا أضرب الطلاب عن الطعام، فتعمد إلى التخلص من الأكل بإلقائه في المجاري أو مع النفايات تشيّعه عيون متوثبة مشبعة بالاستفزاز، ولاتنتبه الإدارة للأمر إلا بمرور عدة أيام قد تتجاوز الأسبوع فتتراكم في جنبات الحديقة تلال من الرز واللحم والخضار والزبدة تتطاول مع كل وجبة جديدة.

وفي أيام كهذه من الإضراب عن الأكل، كنت أخرج من القسم الداخلي برفقة الشيخ دعيج بن علي كعادتنا دائماً إلى مقهى الرصافة، وننتظر في الركن المعهود فيأتي خالد الصانع ونفر من الأصدقاء. أما هلال ناجي فيأتي

متأخراً بعد أن ينزع عنه الزي الإفرنجي ويلبس لباس أبناء العشائر العراقية، فيأخذ مكان الصدارة متهللاً منشرحاً، وننشغل في هذه الجلسات بحديث «الأنصار» وما يرد من البحرين من أخبار الشيخ خالد بن محمد وقصائد عبدالعزيز القاضي، والأخبار العامة، ثم ينبرى هلال لإسماعنا من شعره الجديد أو المعاد وهو يلقيه مستغرقاً بحركات تعبيرية يكاد يغمض معها عينيه، مبالغة في التعبير والتأثر، ثم يتوقف عند آخر المقطع على هيئته من التعبير وكأنه يقول: ما لكم لاتقولون أحسنت.. فنقولها ونطلب المزيد: فإذا انتهى المجلس حلف علينا بالطعام، فلايسكن روعه ولاتهدأ أقسامه المغلَّظة إلا إذا وافقناه على المسير إلى منزله القريب، أو مرافقته = وهو الأغلب = إلى موضع على جانب المدخل من شارع الرشيد، حيث يأخذنا إلى دكان «لبان» مشهور يرفدنا بالتمر والحليب، واللبن ومشتقاته.. فذلك هو الغذاء المثالي الذي تصفه «الأنصار» بالغذاء الكامل.

عدد أغسطس ١٩٨٧

ـ ٨ ـ بدايات.. الأعمال الحرّة

انقطعت عن الدراسة في العراق بعد السنة الأولى. وكذلك فعل الزميل دعيج بن علي آل خليفة، ثم أخي حسين الذي لم يلبث أن عاد إلى بغداد لاستكمال دراسته في كلية الحقوق. ومما زهدني في مواصلة الدراسة الجامعية عزوفي عن المراكز الوظيفية، فاتجهت لمزاولة التجارة منذ أواخر عام ١٩٤٦ وأنا على مشارف السابعة عشرة من العمر. وكان الواجب يقتضي مساعدة الوالد في أعماله التجارية والتعلم منه، فقد كان يعمل في تجارة الاستيراد والتصدير والبيع بالعمولة «السعي» في مجال الأطعمة الجافة والمواد التموينية. لقد كان طريق البحر هو المصدر الرئيسي للاستيراد والتصدير، وللسفر كذلك. أما وسائل النقل فهي السفن الشراعية الكبيرة وتعرف بأسماء متميزة، وكانت تمخر عباب البحر بين أفريقيا وسواحل الهند والخليج، أما السفن ذات المحركات «اللنشات» فكانت - لصغر حجمها - تقتصر في الغالب على التنقل بين سواحل بلدان الخليج.

والاسم الدارج لجميع تلك السفن هو «الخشب»! أما البضائع المشحونة فهي «الحِمَّال» وإذا وصلت المخازن فهي «الأموال» ويسمى المسافرون بـ«العِبرية».

والوسيلة الأخرى الرئيسية لنقل البضائع والمسافرين كانت السفن التجارية ومعظمها يعمل بين الهند والخليج، وقليل منها يصل إلى البحرين مباشرة من المرافئ الدولية البعيدة. لهذا كانت معظم تلك البضائع تأتي عن طريق الهند على البواخر الهندية التي تسمى بحسب وجهتها «بالمُعَلِّي» إذا كانت متجهة للبصرة، «والستّان» إذا كانت عائدة إلى الهند. وفي ذلك الوقت كان أهم ما يشغل بال التجار والمسافرين هو السؤال عن موعد وصول «المعليّ والستّان»، ويُهرَع معظم الناس إلى ساحل الفرضة ليتأكدوا من وصول المركب بالمشاهدة على البعد ويؤثر وصول كل مركب على حركة أسعار المواد التموينية فتنخفض ثم تعود إلى الارتفاع إذا قل المعروض منها في السوق.

ويستلم والدي بالبريد «تعريفا» من المصدرين عن شحن البضائع من الهند بالبواخر أو من ساحل عمان على السفن الشراعية، فيستعد لاستقبالها، ثم يستمر السؤال عن موعد وصول «الخشب» حسب توقعات الطقس والرياح «الوِلْم» ولايهدأ البال إلا بعد وصولها. أما إذا اضطربت الأنواء، وتجهَّم البحر بفعل الرياح والأمواج العاتية، فإن ربابنة السفن والملاحين يبادرون بتخفيف الحمولة ورمي جزء منها في البحر. وكان مألوفاً أن تغرق السفن، لاسيما إذا اصطدمت بالصخور «الفشت»، وكثيراً ما سببت هذه الكوارث إفلاس التاجر صاحب الحمولة، أو مالك السفينة، وتقتضي الأعراف من التاجر المنكوب - إذا كان ذا مركز مرموق - التجلد أمام الناس حتى لايفقد ثقتهم، وأن يبدأ بالسؤال عن سلامة النفوس قبل سلامة الأموال. لقد كان والدي يملك عدداً من السفن ويستعملها في نقل البضائع التي تخصه أو المرسلة إليه. وفي عدد من المرات كنت حاضراً حينما بلغته أنباء غرق السفينة بما فيها من بضائع

تخصه، فكان يتصرف على النحو المألوف فيحتفظ بهدوئه ولايجهر بالشكوى. وكان رحمه الله معجباً بترديد هذا البيت من الشعر:

«إذا سلمت روس الرجال من الأذى فما المال إلا عدة للنوائب»

وحينما تصل السفن إلى الميناء ينزل منها الربان «النوخذا» مع حاشية من بطانته والبحارة المقربين إليه في أزيائهم العمانية المحتشمة وهم يلبسون العمائم والثياب الملونة وفي يد كل منهم عصا طويلة من الخيزران. أما ربابنة الخليج وبحارتهم فملابسهم أكثر بساطة، ويحملون في أيديهم مسبحات «الكهرب» بدلاً من العصي. وربما تزامن وصول «الخشب» من جهات متعددة، فتجد بجانب العماني، البحار البصراوي، والكويتي، والسعودي وأحياناً الهندي - الذي يأتي ببعض البضائع لكي يشحن البلح الجاف «السلوق» إلى الهند فيأخذ سبيله إلى المعابد الهندية حيث يستعمل بكثرة في طقوس الأفراح والأحزان على السواء. وهكذا يمتلئ دكان الوالد «الصفير نسبيا» بتلك الأفواج فتختلط الأنفاس الساخنة وتتصاعد روائح الثياب المصبوغة وتتعدد اللهجات والألسن. ويشتد بيَ الأمر من جراء ذلك لاسيما في الظهيرة من أيام القيظ الحارة، فأحس بالأختناق وأتجلد على مضض حتى ينفرج الحال.

يتسلم الوالد المكاتيب «الخطوط» وبداخلها كشوف البضائع «وتعريفاتها» فيفتح لكل واحدة منها حساباً في دفتر «صوا في الأموال» وحالما تنتهي الإجراءات البسيطة لتخليص البضائع من الميناء والجمرك، ينقلها المتعهدون إلى المخازن على ظهور الحمير أو في عربات صغيرة يجر كلا منها حمار كبير! لقد اشتُهرت حمير البحرين قديماً بالقوة، والجمال وبياض اللون، وكانت في يوم ما من السلع المرغوبة في البلدان المجاورة - فكان أصحابها يصدرونها إلى

الخارج بعد استيفاء المواصفات المطلوبة، واستحصال إذن خاص بإخراجها من البلاد.

ولو تصورنا أن «الأموال» التي وصلت لتوها إلى الميناء تتكون من ألف أو ألفي كيس، فإن ما يتبع هذا التصور سيكون ولاشك منظر قافلة طويلة من هذه الحمير البيضاء الكبيرة المصبوغة أرجلها بالحناء، وهي تسير وسطاً بين الهوادة والركض وكل منها يحمل على ظهره اثنين أو ثلاثة من تلك الأكياس، بينما تتدلى الأجراس الصغيرة المعلقة في رقبة كل منها لتنبّه الغافلين بمسيرها في الطريق، ولابد بين الحين والآخر أن تغشاها العصي على الظهر لتحثها على المسير، أو على جانب من الرقبة لتغير وجهة المتقدم منها إلى منعطفات السوق وطرقاتها الضيقة «المتربة» وقد ألِف «أهل السوق» هذه المناظر يومياً وتعودوا على رؤيتها، فانتزعت منهم العادة عنصر التشوف والفضول.

ويتمتع الشيّالون «ويسمون بالحمّارة» بمهارة فائقة في معالجة ورفع الأكياس من الأرض بمفردهم أحياناً، ثم شدها إلى أحد جانبي الحمار بنصف ربطة من الحبل الذي يتدلى الباقي منه لاستلام كيس ثان على الجانب الآخر، ثم يتم حزمهما بتوازن على ظهر الحمار المسكين، فإذا كانت بالحمار عافية وقوة وضع عليه كيس ثالث! كل ذلك والحمار الصبور فاتح أبواب أذنيه الطويلتين، وأطراف عينيه على العصا، حتى لايفوته شيء من تعليمات صاحبه، وهي عبارة عن مجموعة أصوات وإشارات وأوامر يصاحبها التهديد باستعمال العصا، فيفهم الحمار ما يراد به فيقف دون حراك، باستثناء حركات من الذيل تنبىء عن ملل الانتظار أو القلق المكتوم. ثم يتحرك بعد ذلك على هوى سائقه ويميل معه يَمنة ويَسرة حيثما أراد. ولايزعج صاحب الحمار شيء أكثر من توقف

الحمار لمزاولة شيء من حقوقه الطبيعية، أو حريته في الوقوف وتجربة صوته بالنهيق، وإذا حرم من ذلك وكان به من ثقل الحمولة احتجاج صارخ، وقف بها حارناً عن السير فلايثنيه عن ذلك ضرب ولا توبيخ.

فإذا وصلت طلائع قافلة الحمير إلى «المخزن» أعاد «الحمّار» فك الحبال بحذر بمثل تلك المهارة في شدها، ثم يستلم الكيس الأول على كتفه ويمشي به على عجل، قريباً أو بعيداً - حيث المخزن «ويسمى بالبَخّار» الذي يشبه في أغلب أوقات النهار حماماً للبخار لما فيه من وخامة وحر، ويتجنب في طريقة خطورة التعثر بما يعترضه من أحجار وموانع، ودِكَك وأعتاب، ثم إذا وصل إلى المكان استعمل إحدى قدميه مؤشراً عند الموقع المناسب لرصّ تلك الأكياس في صفوف متجاورة يسهل عدها «وتسمى أقلام» فإذا ما ألقى الكيس من على كتفه عن جنب، أصاب موقعه فلايعدو عنه، ولا ينال قدمه أي سوء. فذاك ما أصبح اليوم أثراً من الماضي لاتكاد تسترجعه الذاكرة في زمن الحاويات والقاطرات والشاحنات.

وأتذكر أن أحد الأجانب سألني يوماً، وهو يمزح، إذ كان يشاهد عند المساء قافلة من الحمير وهي تخوض مياه البحر لتنقل السمك من المصائد، فيما إذا كانت الحمير تعمل أيضاً وقتاً إضافياً بعد الظهر، أو أنها تعتبر من وسائل النقل البرمائية.

ومن الأمور الأخرى التي جرى التعلم عليها في محل الوالد أصول البيع والشراء، ويتم معظم البيع بالجملة بواسطة السماسرة «الدلالين» وذلك بالهمس في الأذن حفاظاً على السر، وترتسم على قسمات وجه الوالد مظاهر الانفعال بالرضى إذا كانت الصفقة مقبولة، أو العبوس والاشمئزاز. فإذا تم

الاتفاق أصرّ الوالد على أثبات تفاصيل الصفقة في دفتر اليومية، وطلب من «الدلال» أن يوقع عليه عن الجانب الآخر الذي فوضه، ومَن كان لايجيد التوقيع والكتابة، أخذ الوالد بأبهام يده اليسرى ليبصم بها بعد قراءة النص عليه.

وكان يحضر إلى الدكان جماعة من تجار التجزئة أو الموزعين فيساوم واحد منهم على السعر وهو يتشاغل بفحص بعض العينات وتضخيم عيوبها. فإذا وافق على السعر طلب فحص البضاعة وأخذ عينات منها، فيأتي دورنا - أنا وأخي - في مرافقة المشتري إلى المخازن، ويتطلب اختيار المفاتيح ذاكرة قوية لشدة التشابه بينها، وتتوزع مواضع تلك المخازن في كل حدب وصوب ومعظمها في منعطفات الشوارع ودروب السوق والأزقة، حيث يساهم سكان أعالي السوق من الهنود في تلوين القمامات والأوساخ فيها، بما يلقونه عليها من النوافذ من بقايا الأكل وفتات الموائد.

ولايتقيد معظم التجار الصغار بأسلوب الوالد في تحرير محضر البيع وتوقيعه، ويفضلون دفع مبلغ مقدماً «عربون» ريثما يتم استلام البضاعة. ويصر الوالد على التوقيع لكنه يقبل بالعربون على مضض، فهو كما أخبرني لايعتد بالعربون إنفاذاً للبيع، فإذا تراجع المشتري، فإن الوالد لم يكن يجيز مصادرة العربون!

وكان عليّ أيضاً أن أمرّ يوم السبت من كل أسبوع على عملاء الوالد لاستحصال المسابعة وهي الديون، وأن أقوم بعدّ النقود من العملة الفضية «الروبيات» واختبار جودتها بإلقائها على حجر صلد أملس، واستبعاد الردئ منها تبعاً لصوت الرنين. وهناك أيضاً طبع نسخ من الرسائل الصادرة والفواتير باستعمال «المكبس» على دفتر النسخ «بالكوبيا» بواسطة قطعة قماش

مبللة، وكذلك ترجمة الرسائل والبرقيات من الإنجليزية وإليها. ومن التجارب المضنية وزن الأكياس بميزان «القبان» وتتم هذه العملية البطيئة بالقرب من المخازن، أو في الفرضة أو على سطح السفينة في عرض البحر، دون اعتبار لظروف العمل الشاقة، ولا لأوقات الراحة والطعام، فالمهم أن يتم الاستلام أو التسليم بأسرع ما يمكن!

الوالد.. مباركة وتشجيع

في أواخر عام ١٩٤٧ قررت السفر إلى باكستان والهند، وكانتا في أول عهدهما بالتقسيم.

كان معي على الباخرة إلى كراتشي عدد من صغار التجار من الكويت والبحرين ودبي، ومعظمهم ممن يطلق عليهم بتجار الذهب، وكان معي في دار السكن في كراتشي واحد من أولئك الشبان من البحرين، وجدته يُقَتِّر على نفسه في المعيشة لدرجة أنه يعمد إلى إغراء الحمام بالدخول إلى الحجرة، ثم محاصرته واصطياده، بدلاً من شراء اللحم! ثم لم تلبث أن تواردت الأخبار في الصحف عن تصرفات مهربي الذهب المشينة، فهمت معها سر التزاحم بينهم على دورات المياه في الباخرة قبل وصولها إلى الميناء.

زودني والدي رحمه الله بتوصيتين: الأولى موجهة إلى التاجر الوجيه سعود عبدالعزيز الفليج، حيث زرته في مكتبه في كراتشي الذي يضم أيضاً المجلس ودار السكن، فوجدته إنساناً شديد الاتزان، أصر على أن أتناول معه الوجبات فوافقت على تناول الغداء معه يومياً، ولم أندم على ذلك فقد كان الطعام شهياً وصرت أزوره في المساء للاستماع إلى المذياع «الراديو»

ولاسيما أخبار الحرب الفلسطينية ومشروع التقسيم. وكان يتحكم في خفض صوت المذياع لدرجة تضطرني لتقريب أذني من الجهاز فيذكرني ذلك بأيام الحرب الماضية، وإذاعة برلين الممنوعة.

والخطاب الثاني من الوالد حملته إلى التاجر الباكستاني «حاج جيتا باي كوكل» ومكتبه في كراتشي في دور علوي من بناية في السوق القديم وسط طريق ضيق، فركبت الأدراج المرتفعة حتى وصلت إلى مكتبه بعد أن اجتزت عدداً كبيراً من الموظفين كل منهم مكب على صندوق أرضي للكتابة على الأسلوب الهندي الشائع يفترش سجادة و مقعدة رقيقة على الأرض. وبعضهم يعالج صفحات من دفاتر محاسبية سميكة أو عريضة الصفحات ويكاد يغرق في جوفها لضعف نظره. ثم استقبلني الحاج جيتا بشيبته الوقورة وجسمه الناحل، كما يستقبل تاجراً من عملائه المعروفين، فكان لهذا الاستقبال وقْع جميل في نفسي بلغ ذروته حين دعاني للغداء في اليوم التالي على مائدة كبيرة حضرها جمع من أصدقائه ومعارفه. لقد أصبحت بين عشية وضحاها ضيف شرف على مائدة رجل ثري ومشهور يملك أسطولاً من السفن يناهز المائة أو يزيد. وقارنت بين هذا الاستقبال الذي يجلب الثقة ويؤكد الشعور بالمسئولية في مرحلة من إثبات الذات، وبين مقابلة الدكتور البلوشي المعروف، فقد كان بدوره صديقاً مقرباً من الوالد وطبيباً لعائلتنا، ولكنه عاملني وكأني لم أزل في نظره ذلك الولد الصغير.

ومن كراتشي قررت السفر إلى بومبي، وفوجئت يوم السفر حين وجدت أن جميع البواخر ووسائل النقل أصبحت مسخَّرة لتبادل الهجرة السكانية بين الهند وباكستان، وكان من حظي أن أسافر مع أعداد غفيرة من المهاجرين تعد

بالألوف لايهمها إلا أن تجد لها مكاناً يسمح بالجلوس في أي موضع من الباخرة، حتى هممت بالعدول عن السفر لولا أن صادف مرور جماعة من البحارة العمانيين فعرفوني، وقالوا: هذا ولد الحاج محمد نوخذانا، فما كان منهم إلا أن حملوني على أكتافهم مع أمتعتي وشقوا لي بمناكبهم موضعاً على سطح السفينة بين تلك الجموع من الهندوس، ثم نصبوا عليه السرير فكنت كلما رفعت رأسي قليلاً شهدت حولي بحراً لُجِّيًّا من رؤوس الهندوس وعمائم السيخ، ولم تكن لي حاجة إلى بومبي غير حب الاستطلاع والتعرف على أصدقاء الوالد ومشاهدة الأسواق، وكان معروفاً عنها آنذاك أن ماءها وهواءها غير صحيين على العكس من كراتشي.

ونزلت ضيفاً عند الوجيه الحاج جعفر عبدالرحيم في منزله، وكان معه كل من الحاج أحمد والحاج حيدر درويش والحاج إبراهيم محمود وكلهم من مشاهير تجار الخليج، ولم يطل بقائي فرجعت على عجل ولم أعد أذكر من تلك الزيارة سوى كثرة ازدحام البشر والمواصلات العامة وغلاء البترول، وحرية الأبقار في التجول فتزاحم المارة على الأرصفة وتعطل المرور عند الإشارات دون أن يحتج أحد، كما شاهدت في ذروة الزحام أناساً يلطخ أجسامهم الطين والأصباغ يمشون وهم عراة، عرفت بعد ذلك أنهم من رجال المعابد، وشاهدت انتشار الفقر واستعمال الأرصفة للمعيشة والنوم.. على أن أهم ما تركَّز في ذهني من الوجهة التجارية، زيارتي - لأول مرة في حياتي - معرضاً صناعياً وتجارياً وأدهشني تطور الصناعة في الهند منذ ذلك التاريخ.. وأهم من ذلك كله احتفاء العارضين بنا وتبادل البطاقات والعناوين!

رحلة الرجوع من بمبي إلى كراتشي كانت تجربة معاكسة تماماً لرحلة

المجيء. لقد حصلت على مكان في الدرجة الأولى فاستمتعت بما فيها من امتيازات ووسائل راحة. ولكن المئات من الباكستانيين العائدين كانوا يحملقون فينا من وراء الزجاج الملون ويركزون نظراتهم وإشاراتهم عليَّ دون سائر المسافرين، ووجدت الخلاص في تغيير ملابسي العربية، لكنني لم أجد معي من اللباس الإفرنجي غير بدلة قديمة من لباس الكشافة المدرسية فلبستها، ولكنها أثارت فضول من معيَ من المسافرين ومنهم سيدة كبيرة السن تبدو عليها ملامح الثراء وفي معيتها عدد من السيدات والوصيفات ينادينها «البيجوم»، ولا أتذكر من أحاديثها وقصصها الكثيرة سوى أنها تملك مصانع ومزارع وأنها تعرف الزعيم «غاندي» جيداً وتعرف عن حياته الكثير! كما تعرفت على ثري إنجليزي يملك مصانع للسكر في باكستان، وأعجبتني هذه المعرفة مع كل هؤلاء، فقد كانوا يخاطبونني وكأنني فعلاً رجل أعمال لا ناشئاً في أول عهده بالتجارة. وذكرني ذلك بما ورد في إحدى رسائل الوالد من نصائح يقول فيها: «إشارتكم إلى حدوث مرض كوليرا في البلاد غير صحيح نحمد الله البلاد نقية، لاتُقَصِّر على نفسك وكن في راحة واستراحة وأحسِن السلوك، واستعمل الرزانة مع التجار تكون مقدراً عندهم وأخبرني عن أيهم أحسن أخلاقاً معك».

وصلت إلى كراتشي فلبست ثيابي العربية ونزلت، فلما وصلت عند مدخل البناية استوقفني باكستاني وصار يقلب نظره في ملابسي ويستأذن بلمسها ويسألني إذا كانت هذه هي ملابس العرب منذ عهد الرسول ﷺ والصحابة، فترددت في الجواب وأشفقت أن يؤدي به حب التبرك إلى أن يستوهبها مني فأعود إلى البحرين لابساً بدلة الكشاف! وحين خلوت إلى نفسي شعرت كم هو مُشين بالعربي أن يسيء التصرف في هذا البلد المسلم وهو يتزيا بزي العرب

الذي يعتقد أهله أنه زي الرسول الأعظم وصحابته ويتبركون به!

رجعت إلى البحرين في أوائل عام ١٩٤٨ وعرفت المزيد عن أخبار المظاهرات الشعبية بمناسبة تقسيم فلسطين، وقد وصلتني بعض أخبارها في كراتشي. هذه الأحداث التي لم أشهدها بنفسي والتي استمرت ثلاثة أيام متواصلة وشاركت فيها مختلف فئات الشعب لتأييد نضال الشعب العربي الفلسطيني، تعتبر أكبر تجَمُّع شعبي من نوعه خلال سنوات النصف الأول من هذا القرن. ومن الواضح أنه لم يكن مقدراً لتلك التظاهرات أن تؤدي إلى أحداث العنف والاعتداءات التي تزامنت معها في اليوم الثالث، حتى جاء بعد ذلك المستشار تشارلس بلجريف ليكشف في كتابه من واقع معايشته لتلك الحوادث، بأن الاعتداءات المذكورة إنما قامت بها جموع غوغائية من بحارة السفن الراسية في الميناء، وأسقاط سكنة «الحي الغربي» بالمنامة وعدد من صغار الباعة المرتزقين، في الوقت الذي قام فيه المواطنون الطيبون بما تقتضيه المروءة والشهامة.

ثم سرعان ما قررت السفر في أثناء حرب فلسطين إلى العراق هذه المرة، وكنت مثل غيري، متحمساً لتحرير أرض فلسطين، عاقداً الأمل على الجيوش العربية.. فرسمت خارطة لفلسطين وضعت عليها إشارات بالأسهم الحمراء تبين مواقع تلك الجيوش وتقدمها في زحف التحرير، ثم ذكرت تاريخ دخول الجيوش العربية أرض فلسطين، وموضعاً فارغاً لإضافة تاريخ الفراغ من تحريرها، ثم علقتها على الحائط قرب الفراش، فلما طال بي الانتظار لم أجد بداً من السفر. وحين رجعت من السفر وظهرت للعيان مهزلة «ماكو أوامر» نزعت تلك الخارطة في ذروة من الانفعال والحسرة،

وتذكرت ما جرى بالأمس القريب في بغداد حين مسيرة استعراضية وهي في طريقها إلى فلسطين «كما قيل» وهتاف الجماهير يرتفع من حولها عالياً وهي تقول: «أجعلوا «تل» أبيب، «وادي» أبيب!».

اشتركت مع أخي صادق بتشجيع من الوالد في عدة صفقات خارج المؤسسة لحسابنا، فلما تيقن بقدرتنا على العمل المستقل، منح كل واحد منا عشرة آلاف روبية، وفتحنا باسمنا محلاً تجارياً تحت اسم «مخزن العاصمة» للاستيراد والتصدير والعمولة. في ذلك الوقت كانت أوروبا وأمريكا واليابان وأستراليا هي المصدر الرئيسي للسلع الكمالية والكهربائية والأطعمة المعلبة وشراب الفواكه، وغيرها من السلع التي طال انتظار جمهور المستهلكين لها بسبب انقطاعها عن الأسواق خلال سنوات الحرب. وكان المستهلك يُقبِل على تلك السلع بشراهة استهلاكية فيشتري كل ما تصل إليه يداه، لاسيما إذا عرض تحت اسم «التموين» ولو كان مما لايحتاج إليه كثيراً. كان الحد الأعلى للربح هو من ١٥ إلى ٢٥ بالمائة حسب نوع السلعة، أما المصاريف والإيجارات والتكلفة العامة فكانت زهيدة، مما يحقق للتاجر مبلغاً جيداً من الربح، فأدت هذه المعادلة الثلاثية إلى تنشيط التجارة في الداخل وكذلك بالتصدير إلى أسواق الخليج، فالحكومة تراقب الأسعار، والتاجر يربح بسبب حجم المبيعات وقلة الأكلاف، أما المستهلكون فهم بما تناله أيديهم من سلع مستورَدة، فرحون!

ووجدتْ وجوه جديدة تركت الوظائف العامة، أو غامرت ابتداء في ممارسة هذا النوع غير التقليدي من التجارة، فرصة للظهور والنمو بشكل طبيعي متدرج. وأمثال هذه الطبقة الوسطى من التجار عملوا الكثير لتحقيق فرص النجاح بمجهود ذاتي، وطرقوا أبواب الثروة الموصدة بيد من حديد، إذ لم

يكونوا من بين أثرياء الحرب أو المتلاعبين ببطاقات التموين ابتداء، كما لم يصبحوا من أثرياء النفط ومنتهزي فرص الثراء المشبوه فيما بعد ذلك.

التجارة مقبرة المواهب

خلال عملي في التجارة لم تنقطع صلتي بأسرة الأنصار، ولا برجال الفكر والأدب ونشاطات الأندية الثقافية. كان يجتمع في محلنا لفيف من الأدباء والكتاب والشعراء على رأسهم أستاذنا الكبير إبراهيم العريض، الذي كان يخصنا بالزيارة يومياً في أغلب الأحيان ثم علي التاجر، وحسن الجشي ودعيج آل خليفة وعبدالله الطائي، وأدباء من المملكة العربية السعودية في القطيف والخبر والإحساء، منهم أحمد الراشد المبارك، وعبدالعزيز القاضي، ومحمد سعيد المسلم، وعبدالرسول الشيخ علي الجشي، وأحمد المصطفى وغيرهم.

وكنت أخرج مع بعضهم نتمشى مساء خارج المدينة، ثم الاستراحة في بعض المقاهي الشعبية، وأتذكر أن الأستاذ علي التاجر كان لا يفتأ يحمل تحت إبطه في كل مرة يخرج معنا كتاباً ضخماً باللغة الإنجليزية هو كتاب «كفاحي» لهتلر على اعتبار أنه يقوم بدراسته في مجال أبحاثه عن الصهيونية، حتى كادت نسخة الكتاب أن تبلى وتتمزق. وكان يؤكد لنا دائماً وهو يعض على شفتيه بعصبية وبأسلوب التحدي، إن اليهود هم مصدر الشرور في العالم وإن وراء كل ظاهرة تبدو للناس غريبة وغامضة، أيد يهودية تحركها وتوزع على مسرح العالم أدوارها بخبث ودهاء، وذلك ابتداء بأسرار السياسات العالمية والمحافل الصهيونية والتآمر على الشعوب والحكومات، وانتهاء بتصدير برتقال يافا إلى البحرين! ولكونه ماهراً في الإقناع، قوياً على المجادلة فقد كنت آخذ الكثير من آرائه على محمل الجد وأجامله في غيرها، لكني لا أعتبرها من قبيل المسَلَّمات.

وممن كان ينسحب من ساحة الجدال ويخرج متأثراً الأستاذ مَعَن العجلي، لكنه يعود في اليوم الثاني حتى إذا حضر علي واحتدم النقاش خرج فجأة كما دخل لاينسى في خروجه أو دخوله محلنا، أن يوجه إليّ كل مرة تلك الكلمات ذاتها «يا أخي حرام عليك، أترك التجارة واتجه للأدب، ألم أقل لك مراراً من قبل أن التجارة هي مقبرة للمواهب؟».

تلك الجلسات في الدكان أيام الأسبوع لم تكن بمثابة المجالس المنظمة بل كانت أغرب إلى اعتبارها محطات في الطريق ، ولم يكن محلنا يخلو في الغالب أيضاً من تواجد قاض أو فقيه أو رجل دين معمم كفضيلة الشيخ المرحوم عبدالحسين الحلي. كانت حصيلتنا المعنوية من هذه الزيارات لمحلنا كبيرة ومشرقة، أما الحصيلة المادية فكانت صفراً.

أما جلوسنا لاستقبال الأصدقاء أنا وأخي صادق وأحيانا الأخ حسين، فكان في يوم الجمعة فيأتي لزيارتنا إضافة إلى من ذكرت، عدد من الأساتذة وخريجي الجامعات والدارسين من الشباب من بينهم السيد رضي الموسوي وقاسم أحمد فخرو وماجد جواد الجشي، ورسول الجشي ويوسف أحمد الشيراوي وعلي محمد فخرو، وإبراهيم يعقوب وراشد فليفل ومحمد قاسم الشيراوي وآخرون.

صوت البحرين

ساهمت تلك الأسماء التي ذكرتها - معظمها أن لم يكن كلها - في الكتابة في مجلة «صوت البحرين» التي صدرت أواخر عام ١٩٤٩. وإذا أضفنا أسماء الأدباء والشعراء والكتاب الآخرين في البحرين أمثال محمود المردي، وعلي

سيار وإبراهيم حسن كمال ومحمد دويغر وأحمد يتيم وعبدالعزيز الشملان ويوسف زباري وعبدالرحمن المعاودة وعبدالعزيز الشيخ علي وأحمد سلمان كمال وناصر بوحيمد، وأحمد آل خليفة، وكثير غيرهم، أدركنا مدى القاعدة الأدبية والثقافية العريضة التي انطلقت منها «صوت البحرين». لقد استقطبت خيرة المواهب والإمكانات الأدبية المتوفرة لخلق مجلة رائدة في تاريخ صحافة الخليج بأجمعه، ولقد ساهمت في «صوت البحرين» أيضاً أقلام عربية من بلدان عربية متعددة، فأصبحت هذه المجلة بمثابة الوجه المشرق للثقافة والفكر والأدب، للبحرين وللخليج في كافة أرجاء الوطن العربي الكبير.

عالجت «صوت البحرين» هموم المواطن العربي بأمانة وصدق، وجدية والتزام، وقد جاء صدورها بعد سنوات من توقف مجلة «الأنصار» وبعد أن خفتّ أصداؤها، ولكن روح الأنصار وأسلوبها أثّرا في اتجاه المجلة فيما يتعلق بالتوعية والتوجيه الثقافي والفكري، فكان لها طابع عربي قومي إسلامي مميز، وأسلوب صريح.

ومن أهم ما كرست «صوت البحرين» جهودها له بعد التوجيه الثقافي، معالجة الإصلاح الاجتماعي وإنصاف الفئات العاملة وتبَنّي قضايا العمال - وفي جانب آخر الدفاع عن عروبة البحرين وتفنيد الإدعاءات الأجنبية بالسيادة عليها. وفي هذا الصدد قامت المجلة بترجمة ونشر كتيب للأستاذ مجيد خدوري عن «البحرين وإيران» وقدمت له بكلمة شاملة. وأدى الاقبال الشديد على شرائه إلى إعادة طبعه مرة ثانية، ولا غرو فقد كان الاقبال على المجلة ذاتها كبيراً، وفي تقديري أن فجوة الفراغ الثقافي والأدبي التي خلّفها توقف «صوت البحرين» ماتزال قائمة بعد مرور ما يناهز ٣٧ عاماً شهدت خلالها

البحرين قفزة في مضمار التعليم والتخصصات الجامعية في مجالات الأدب والثقافة والعلوم والفنون.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العبء الأكبر في تحرير «صوت البحرين» وإصدارها، بالرغم من وجود أسرة تحرير لها ومجلس إدارة، قام على مجهود ثلاثة: هم الأستاذ حسن جواد الجشي، ثم إبراهيم حسن كمال، وعلي التاجر. أما دوري في المجلة فكان لايتعدى كتابة عدد من المقالات وسد الفراغ في بعض الأبواب حينما تكون المجلة ماثلة للطبع، ثم المساهمة في توزيعها ومدِّها ببعض الإعلانات، وكان مألوفاً عندنا في «المحل» أن يجد المشتري إعداد «صوت البحرين» بجانب المراوح الكهربائية والمعلبات وزجاجات شراب الفواكه صيفاً، والملابس الجاهزة والأصواف شتاء. ويقبل الناس على شراء المجلة قبل أن تنفد، إقبالهم على شراء الحلويات من محلنا بسعر التموين!

وختاماً..

فعند هذا الحد ونحن على مشارف الخمسينات من السنين نقف مع هذه الذكريات في حلقتها الأخيرة. لقد شهدت الخمسينيات وما تلاها أحداثاً جساماً في تاريخ البحرين وإرهاصات متباينة لجميع العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، التي انسابت في شرايين المجتمع منذ أوائل القرن العشرين على شكل روافد صغيرة متشعبة لتصب بكل زخمها في خزان كبير تجمعت فيه مجاري السيل، فامتلأ وأوشك على الفيضان في انتظار الأيدي الأمينة الواعية المخلصة لتوجيه الماء المتدفق نحو الأرض المتعطشة لإنتاج الأمن والخصب والرخاء.

وليس العهد بالتطورات التي جرت في الخمسينيات وما بعدها ببعيد جداً، ولهذا فإن هذه المرحلة من التطور لمواكبة المسيرة المتقدمة للعالم العصري الحديث حَريَّة بأن تكون موضوعاً للدراسة بأدوات التاريخ وشواهد المذكرات، وهي بذلك لاتدخل ضمن اختصاص هذه الذكريات الشخصية العابرة.

عدد سبتمبر ١٩٨٧

تقي البحارنة 262

فهرس

الحبر الباقي ٥
مقدمة .. في الشعر العربي (١) ١١
مقدمة .. في الشعر العربي (٢) ٢١
ابن مقرب .. شاعر مجهول! ٣٤
القومية العربية .. في مهب الريح! ٤٨
الحضارة التي نريدها (١) ٥٨
الحضارة التي نريدها (٢) ٦٥
في الميزان ٧٣
مملكة النفس.. .... ٨١
الإسلام قول وعمل ٨٥
ثلاثة شهور في لبنان (١) ٩١
ثلاثة شهور في لبنان (٢) ١٠١
ثلاثة شهور في لبنان (٣) ١١٤
أوراق برتغالية ١٣٠
ذكريات الجناح الطائر ١٤٥
أولاد الحارة ١٥٤
حديث المدرسة ١٧١
كل الطرق تؤدي إلى الثانوية ١٨٠
مع نادي العروبة ١٩٢
دعوة الأنصار ٢٠٧
بغداد .. دار السلام ٢٣٣
بدايات .. الأعمال الحرة ٢٤٤

كانت كتاباته في «صوت البحرين» تتميز بتنوع مادتها وفي تعدد موضوعاتها وأفكارها المستمر في كل عدد.

فكان يكتب في القومية العربية ويستعرض كتاباً عن الفتوة، ويكتب في أدب الرحلات في ثلاثة مقالات عن رحلته إلى لبنان، ولا ينسى الشعر الذي يكتب فيه بحثاً على حلقات، ومقالاً عن «ابن مقرب.. الشاعر المجهول»، ويستعرض موضوعات فكرية هامة حول «الحضارة التي تريدها».

وبجانب تنوّع موضوعاته كان يتنوع في الأسلوب بين المقال الأدبي والسياسي والفكري، ويُظهر ثراء معلوماته وثقافته ولكن بدون تصَنُّع كما كان يفعل غيره.

Kingdom of Bahrain
Ministry of Information
Government Printing Press
مملكة البحرين
وزارة الإعلام
المطبعة الحكومية